الحجاج اللغوي

قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي



تنسيق

الدكتور حسن مسكين

عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع
٢٠١٧

الحجاج اللغوي

قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي

تنسيق

الدكتور حسن مسكين

عالم الكتب الحديث
Modern Books' World
إربد- الأردن
2017

الكتاب

الحجاج اللغوي قراءات في أعمال أبو بكر العزاوي

تأليف

أبو بكر العزاوي

الطبعة

الأولى، 2017

عدد الصفحات: 262

القياس: 17×24

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2016/8/3944)

ISBN 978-9957-631-06-2

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد - شارع الجامعة

تلفون: (00962 - 27272272)

خلوي: 0785459343

فاكس: 00962 - 27269909

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
almalktob@gmail.com
facebook.com/modernworldbook

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن - العبدلي - تلفون: 5264363/ 079

مكتب بيروت

روضة الغدير - بناية بزي - هاتف: 00961 1 471357

فاكس: 00961 1 475905

المحتويات

تقديـــم

الدكتور أبو بكر العزاوي

رائد الحجاج اللغوي في العالم العربي

تمتد علاقتي بالأستاذ الدكتور أبو بكر العزاوي إلى ما يزيد عن ثلاثين سنة.

عرفت فيه شخصية فذة، جامعة للعديد من الخصال والمميزات الحميدة التي خصه الله تعالى بها. عرفت فيه شخصية الرجل الطيب، ذمت الأخلاق، محب للخير، لا يتوان قط عن تقديم المساعدة والعون للناس عامة والباحثين وطلبة العلم بخاصة. حيث كانت تأتيه وفود من الباحثين والطلبة من مختلف التخصصات ومن كل الجامعات، من داخل المغرب وخارجه، سواء للاستفادة من علمه الرصين وتوجيهاته السديدة في مجال تخصصه الحجاج اللغوي واللسانيات والمنطق أو في تخصصات أخرى له إلمام واسع بها.

مكتبته الخاصة الغنية بشتى المصادر والمراجع والأبحاث في علوم ومعارف متنوعة وبلغات مختلفة كانت قبلة لطلبته والباحثين الذين يجدون فيها ضالتهم، ينهلون منها الكثير من المعلومات والأفكار والمعارف التي قد لا يجدونها في المكتبات العامة.

كيف لا والأستاذ أبو بكر عاشق للكتاب، خبير بعوالمه وأسراره، ما إن تجالسه حتى يخبرك بإصدار جديد أو نظرية حديثة أو ندوة مرتقبة. دائم التفكير في قضايا اللغة والأدب والفكر والمنطق والنقد.

الأستاذ أبوبكر موسوعي الثقافة والعلم والمعرفة، فقد نشأ في بيت علم وصلاح، وتتلمذ على علماء وأساتذة رواد داخل المغرب مثل الأستاذ عباس الجراري والأستاذ أمجد الطرابلسي وخارج المغرب مثل أزفالد ديكرو. وقد أثمر ذلك إنجاز أطروحة متميزة باللغة الفرنسية، تعد من الأطاريح الرائدة في الحجاج اللغوي بإشراف العالم اللغوي أزفالد ديكرو

سنة 1983. وقد شكل عمله هذا فتحا علميا في مجال الحجاج اللغوي في العالم العربي، حيث لم يكن أحد من الباحثين قبله يتحدث عن هذه النظرية أو يطبقها في تحليل الخطاب.

وهكذا ومنذ هذا الإنجاز العلمي، توالت أعماله الرائدة، وتجسدت في مجموعة من الدراسات والأبحاث والمؤلفات القيمة، ومنها على وجه الخصوص:

- اللغة والحجاج: دار الأحمدية للنشر: الدار البيضاء 2006 .
- الخطاب والحجاج: دار الأحمدية للنشر: الدار البيضاء 2007.
- حوار حول الحجاج: دار الأحمدية للنشر: الدار البيضاء 2010.
- اللغة والمنطق: دار طوب بريس – الرباط – 2014 .
- الحجاج والتلفظ (Argumentation et énonciation) باللغة الفرنسية - دار طوب بريس – الرباط – 2014
- من المنطق إلى الحجاج: عالم الكتب الحديث: الأردن – 2016.

إضافة إلى كتب وترجمات أخرى، بعضها قيد الطبع وبعضها قيد الإعداد في مجالات أخرى، مثل التداوليات والدلالة المعرفية والمنطق والدراسات الفكرية والثقافية.

والواضح من خلال تتبعنا لهذه المؤلفات أن الأستاذ أبوبكر لم يكتف فيها بتقديم هذه النظريات الجديدة، وإنما استند فيها إلى جانب التطبيق، فحلل بها العديد من المتون والنصوص والخطابات الشعرية والنثرية والسياسية والبصرية وغيرها، فكان بحق رائدا في هذا المجال. وقد ساعده في ذلك تكوينه الرصين في مجالات عديدة، سواء في اللسانيات المقارنة أو المنطق أو الحجاج، حيث لم يكتف بتطبيق هذه النظريات على اللغة العربية، وإنما عمد إلى تطبيقات مقارنة على لغات عديدة، استخلص منها نتائج جديدة أغنى بها هذه النظريات وأضاف إليها اجتهادات شخصية، تتلائم وخصوصية الخطاب موضوع التحليل، مما جعله يتجاوز بها ما قدمه أساتذته، فاستحق بذلك لقب الأستاذ المجتهد، المجدد.

ولأن الأستاذ أبوبكر يحب أن يرى ثمار هذا التجديد و الاجتهاد مستمرا في طلبته، فهو لا يمل من تعريفهم بأدواته ومعارفه وتقديم تجربته لهؤلاء الطلبة الذين يعدون بالعشرات داخل المغرب وخارجه، كي يستثمروها في أبحاثهم وأطاريحهم.

الأستاذ أبوبكر من خيرة الأساتذة الذين يحرصون على تقديم محاضرات رصينة ومحكمة لطلبتهم داخل المدرجات، فقد عرف عنه الحزم والصرامة في ذلك، لكن من غير تعسف أو إكراه، بل احتراما للطالب وتقديرا للعلم وإحساسا بالمسؤولية. وقد أثمرت طريقته هذه العديد من النتائج الهامة سواء في خصائصها أو في المستوى العلمي الرفيع للطلبة والباحثين الذين تتلمذوا عليه أو الذين أشرف على أبحاثهم.

لقد عرفت فيه أيضا تعدد المواهب والثقافات واللغات، جمع بين ثقافة أصيلة ضاربة جذورها في التراث، وتكوين عميق وواسع بالنظريات والعلوم الحديثة، لغوية ومنطقية وحجاجية وأدبية وفقهية وشرعية وأصولية وتفسيرية، كيف لا وهو الحافظ للقرآن الكريم المتقن لأحكامه والملم بالعديد من علومه.

عرفته باحثا، مولعا بالكتاب، باحثا عنه في كل مكان، ينفق الشيء الكثير من أجل الحصول عليه والإفادة منه.

الأستاذ أبو بكر من القلائل الذين جمعوا بين إتقان التراث بكل ينابيعه وامتداداته، فهما وتفسيرا وتأصيلا، واطلاعا واسعا وعميقا بالنتاج العلمي واللغوي والثقافي الحديث في تنوعه، وبمختلف لغاته، لكن من غير تقليد أو ذوبان . كتاباته تعبر عن شخصية الباحث المجدد المجتهد، العصي عن التحديد أو التصنيف، لم يزده علمه إلا تواضعا وإصرارا وصبرا على مواصلة البحث والاجتهاد الذي يثمر في كل مرة مؤلفات ودراسات متميزة تكشف بحق أننا أمام شخصية باحث وعالم من طينة خاصة، تستحق عن جدارة واستحقاق لقب رائد الحجاج في العالم العربي.

لهذه الأسباب كلها اجتمعت ثلة من الباحثين والأساتذة والأكاديميين والمبدعين المتميزين من تخصصات متنوعة أدبية ونقدية ولسانية وسيميائية وبلاغية وحجاجية، لتتناول بالدراسة والتحليل مشروعه الرائد في الحجاج اللغوي وتحليل مختلف المفاهيم والأدوات

والخلفيات النظرية والمنهجية التي أطرت أعماله، في محاولة منها لكشف المنطق الذي يحكمها، والفلسفة التي توجهها، والأدوات الإجرائية التي يستخدمها الباحث خاصة في مجال التطبيق، الذي يعتبر الجانب الأبرز في مشروعه العلمي . ذلك أن ما يميزه عن العديد من مشاريع الباحثين الآخرين، هو إصراره المتواصل عبر هذا الزمن الطويل من العطاء والإنتاج والتأليف على اختيار المجال الأصعب ألا وهو تنزيل واختبار تلك المفاهيم والآليات الحجاجية على نصوص وخطابات عديدة ومتنوعة الأجناس، من الأدب شعرا وقصة ورواية،وأمثالا إلى الدين قرآنا وحديثا، إلى اللغة والإشهار وسائر الخطابات اللغوية والبصرية الأخرى، وذلك بدقة وعمق قلما نجدهما في أعمال أخرى لباحثين ممن عنوا بتحليل الخطاب استنادا إلى نظريات الحجاج اللغوي التطبيقي.

والواضح أن تفرد الباحث أبوبكر بهذه الخصائص والمميزات نابع أساسا من تكوينه الموسوعي والرصين في معارف وعلوم متعددة ومختلفة وبلغات عديدة أيضا.

هذا وسيجد قارئ هذا العمل تكاملا في عرض وتحليل مجموعة من المفاهيم والنظريات، التي قدمها هؤلاء الباحثون المتميزون كل من زاوية تخصصه، تسعى إلى سبر أغوار هذا المشروع الخصب لتكشف جوانبه الظاهرة والمضمرة ولتسلط مزيدا من الضوء على جهود الباحث المتواصلة لخدمة أحد التخصصات الهامة في مجال البحث العلمي الرصين ألا وهي النظرية الحجاجية اللغوية التي شكلت صلب هذا المشروع، والتي بدأت آثارها الإيجابية تظهر جلية في مجالات وخطابات عديدة تواصلية سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية ولغوية، اجتهد الباحث أبوبكر في تقديم مؤلفات وأبحاث ومؤلفات قيمة في سبيل تطويرها.

ولا يسعنا إلا أن نشكر جميع الباحثين والأساتذة المشاركين في هذا الكتاب على مساهماتهم القيمة وأبحاثهم المفيدة التي لاشك أنها ستنير للقارئ جوانب عديدة من المشروع العلمي والحجاجي للدكتور أبوبكر العزاوي. كما نشكر القائمين على دار النشر الأردنية عالم الكتب الحديث على ما بذلوه من جهود محمودة لطبع هذا الكتاب وإخراجه في حلة جميلة.

نسأل الله عز وجل أن يلهم أستاذنا الجليل التوفيق والسداد، حتى يظل منارة يهتدي بها الباحثون وطلبة العلم وعموم القراء ومختلف الباحثين عن المعرفة في كل مكان، ليمدنا بأبحاث ومؤلفات جديدة، خاصة وأنه لا يهتم فقط بمجال الحجاج والمنطق الطبيعي، بل يشتغل أيضا في مجال علم الدلالة والتداوليات واللسانيات المعرفية.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

د. حسن مسكين
أستاذ المناهج وتحليل الخطاب
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة

اللغة والحجاج
(عمق النظرية ودقة الإنجاز)

د. حسن مسكين

كثيرة هي الأعمال التي تناولت اللغة قديما وحديثا، وعديدة هي المؤلفات التي قامت بتشريح عميق ودقيق لمختلف جوانبها، ومستوياتها، حتى يكاد يخيل للباحث المتخصص أن الكلام فيها قد نفذ وألا جديد في الأفق بشأن هذا الموضوع.

غير أن الإصدار الجديد الذي أنجزه الدكتور أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج[1] يفند هذا التصور، ويضعنا أمام رؤية أصيلة وحديثة، تكشف جوانب دقيقة وعميقة في اللغة عامة، واللغة العربية بخاصة، من خلال تحليل حجاجي مشبع بسند نظري خصب ومتنوع أفرز في النهاية مشروعا علميا متميزا، أضاف لبنة جديدة، هامة إلى الإنجازات العلمية ذات المستوى الرفيع نظرا وإنجازا (في دراسة وتحليل اللغة من منظور حجاجي دقيق، وعميق)، كانت اللغة العربية في حاجة ماسة إليه أملا في كشف المزيد من أسرارها، وفهم العديد من إمكاناتها الهائلة في شتى الإنجازات والأجناس الأدبية وغيرها من الخطابات الاخرى متنوعة المقاصد والاهداف.

وإذا نحن تأملنا جيدا جوهر القضايا التي أثبتها المؤلف، وحاول تقديم الحجج والدلائل النظرية والتطبيقية عليها من داخل التحليل نفسه، وبلغة واصفة دقيقة، وافية،

---

(1) صدر هذا الكتاب عن دار النشر الأحمدية بالمغرب في 160 صفحة من الحجم المتوسط في طبعته الأولى سنة 2006 وقد تضمن أربعة فصول: هي: الحجاج اللغوي والدلاليات الحجاجية - بعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية - الاستعارة والحجاج - قوة الكلمات أو اللغة بين الإنجاز والحجاج.

يمكن أن نشير هنا إلى دراستيه:

Quelques connecteurs pragmatiques: en arabe Littéraire: thèse de doctorat unique – paris: 1983

L'implication dans les langues naturelles et langues formels: in: langues et littérature: N° 9 – faculté de lettres , Rabat.

نجدها تكمن أساسا في الاستنتاج العام الآتي: "لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل". بهذه المعادلة القيمة، واللافتة للتفكير والتأمل، المغرية بالتوظيف في أكثر من مستوى، بنى المؤلف هذا الكتاب العلمي، الغني بالقراءة الآسرة بفضل ما تتضمنه من قضايا وعناصر جديرة بالتقدير والمتابعة المتأنية، حتى نكتشف مزاياها الهامة التي ستعمق وعينا باللغة العربية، من منظور ما تقترحه اللسانيات عامة، والنظرية الحجاجية بخاصة.

ونظرا لأن مزايا هذا الكتاب عديدة، ومتنوعة فإنني سأقف عند بعضها، تاركا البعض الآخر للمتلقي حتى يقف عليها عيانا، ويختبر إمكاناتها الهائلة.

1- بلاغة النصوص الموازية:

وتكمن في هذه النصوص الموازية التي صدر بها المؤلف كتابه، بدءا من الإهداء الذي لم يخل بدوره من حجاج وإقناع دال على اتحاد الذاتين وانسجامهما (المؤلف – الام) وامتداد هذا الاتصال الروحي القائم على عبارات حجاجية ملئها (الصدق) وعمادها (السلمية) و(التدرج) الذي يجد سنده القوي في هذا التضمين الموفق لآيات قرآنية، مشبعة هي الأخرى بطابعها الحجاجي. وهكذا فبعد أن خط المؤلف أول كلمة في الكتاب: "إلى منبع الحنان الدائم والعطف المتجدد"حتى يختمها بقوله: "أهدي هذا الكتاب سائلا المولى عز وجل أن ينفعني وإياها به، وسائر المسلمين أجمعين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"[1].

هكذا نكتشف حضورا مكثفا لخاصية الحجاج من أول صفحة، تمثل جانبا من النصوص الموازية، التي ستهيأ المتلقي منذ البداية لدخول عالم الإقناع والحجة وما يندرج تحتهما من أسرار وعناصر طبيعية قائمة في بنية هذه اللغة موضوع الاشتغال. فكيف الحال ونحن في رحاب خطاب قرآني كريم، يؤكد مآل ومنتهى هذه الذوات جميعا إلى الباري تعالى، بعد أن يتوارى المال والبنوب وتوابعهما، لتبقى الكلمة شاهدة على العلم والعمل، والتي منها ماهو قائم بين دفتي هذا الكتاب،وأخرى ثاوية خلف السؤال. تلك إذن كانت أولى مظاهر الحجاج، التي أبى المؤلف إلا أن تكون على هذا النحو مقدمة لتواصل أشمل وأعمق

---

[1] اللغة والحجاج: د. أبو بكر العزاوي: ص 5.

تنـجه اللغة عبر خطابات وأجناس عديدة ومتنوعة تبرز بما لا يدع مجـال للـشك أن الحجـاج حاضر في كل الخطابات بدءا من الخطاب الإلهي إلى غيره من الخطابات الأخرى التي ينـسجها الإنسان في أي مكان وعبر سائر الازمان.

غير أنه ينبغي التنبيه هنا إلى أن النصوص الموازية المتضمنة في الـصفحة الـسابعة مـن الكتاب، تكشف أيضا أن الحجاج الفعال والمنتج يستند إلى قوانين وضـوابط وعناصـر دقيقـة، حتـى لا يخـرج عـن أهدافـه المتمثلـة في تحقيـق التواصـل الفعـال وتـأثيرا وإقناعـا. والآيتـان الكريمتان المختارتان هنا تشيران بدقة إلى ذلك الخلل الذي أصاب عملية التواصل التي قامـت بين عمران وقومه الذين بنو حوارهم معه على غير علم ولا هدى، فلـم يتمكنـوا مـن إقنـاع عمران الذي أقام خطابه على حجج ودلائل مقنعة، يـستحيل إبطالها أو ردها.

2- خلفيات المنهج ومقاصد النظرية:

ذلك أننا نجد في الكتاب توضيحا دقيقا للمنهج المتبع، والخلفيـات النظريـة الـتي بنـى عليها مشروعه العلمي، حيث إنه رسـم في مقدمـة مركـزة معـالم العمـل الكـبرى، وخلفياتـه العميقة، وأهدافه العامة والخاصة، مـبرزا أن هـذا العمـل يهـدف إلى دراسـة بعـض الجوانـب الحجاجية في اللغة العربية، غير مدع الإحاطة التامة بكل ما يهم الموضوع؛ بل مؤكدا علـى أن العمل سيظل مفتوحا.

غير أننا نكتشف أيضا المنطلق الرئيس الذي اعتمده في هـذا المنحـى اللـساني القائـل بأننا نتكلم عامة قصد التأثير ومن جهة أخرى، وهذا هو الأساسـي والجديـد الـذي غيـب في العديد من الدراسات اللسانية، هو أن وظيفة التـأثير والإقنـاع قائمـة في اللغـة ذاتهـا، ولـيس خارجها: إذ اللغة" تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجيـة، أي أن هـذه الوظيفيـة مؤشـر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والـصرفية والمعجميـة والتركيبيـة والدلالية الخاضعة لها. وتنتمي دراسة الحجـاج إل البحـوث الـتي تـسعى إلى اكتـشاف منطـق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تـسلـسل الأقـوال وتتابعهـا بـشكل متنـام

وتدريجي، وبعبارة اخرى فإن الحجاج يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب[1].

وإذا كانت مقاصد المؤلف محددة في إبراز منطق اللغة، والبنيات التي تحكم الخطاب في العديد من الإنجازات اللامحدودة فإنها لم تخف أنها تود استثمار النتائج التي انتهى إليها العالم اللساني أزفالد ديكرو في العديد من أعماله المتميزة[2].

بل إن اختيار نظرية الحجاج إطارا نظريا، نابع من أسباب علمية موضوعية وتراكم خبرات وقراءات صبورة ومتأنية لنتاجات علمية، لسانية ومنطقية، متنوعة ومتكاملة، يمكن إجمالها في الآتي أولا: كون نظرية الحجاج نظرية دلالية حديثة، تقدم تصورا حديثا للمعنى، وتقدم تفسيرات جديدة وجريئة للعديد من الظواهر اللغوية.

ثانيا: نجاح النظرية الحجاجية في تجاوز العديد من العوائق المتصلة بتفسير المعنى، ولا سيما النظريات الوصفية والمنطقية المرتبطة بمفهوم الصدق.

ثالثا: كون النظرية الحجاجية تعود في منابعها إلى أصول لسانية حديثة، لا تعلي من شأن الوظيفة التواصلية- الإخبارية للغة، واعتبارها الوظيفة الأساسية والوحيدة، بل يرى المؤلف أن لها وظائف تتجاوز التواصل والإخبار إلى التأثير والإقناع، الشيء الذي يجعل من الوظيفة الإخبارية تتوارى قياسا بالوظائف الاخرى التي أكدت عليها النظرية الحجاجية.

ويبدو أن هذا التصور الجديد عدل من العديد من الفرضيات، والمنطلقات التي أقامت عليها النظريات الأخرى إنجازاتها وتطبيقاتها في مجال اللغة والخطاب، سواء لدى العرب أو الغرب وهذا ما سنلمسه بوضوح في تلك التطبيقات التي قام بها على ظواهر لغوية متنوعة، تهم اللغة العربية تحديدا، مقارنة بلغات أخرى كالفرنسية والإنجليزية وغيرهما.

وهنا بالذات تكمن جدة وجدية هذا العمل، أي في كونه ينطلق مما هو عام، كامن في

---

(1) اللغة والحجاج: ص 8.

(2) نحيل هنا إلى المؤلفات الآتية:

- Dire et ne pas dire: Ed: Hermann – paris 1972
- Analyses pragmatiques: in: commications: N: 32 – paris 1980.
- Argumentation et sémantique: Ed Seuil – paris: 1987.

عمق النظريات التي تحكم هذا المشروع، وتؤطر توجهه، ليصل إلى ما هو خاص يجسده هذا الاختبار الدقيق والعميق لهذه النظرية على اللغة العربية، لاسيما في ظل غياب دراسات وأعمال[1] تطبيقية عربية، مقارنة بما أنجزه الغرب، حيث شاعت هذه النظرية التي تتخذ من الحجاج واللغة والمنطق الطبيعي موضوعا لها، راكمت فيه إنجازات هامة نظرا وتطبيقا[2].

كما لم يفت المؤلف، وفي إطار هذا الحرص الشديد على ضبط المنهج، والتأطير لخلفياته وفلسفته، أن يوضح خصيصة العنوان وأهداف المباحث المتفرعة عنه، شملت فصلا تقريبيا لنظرية الحجاج في اللغة ومفاهيمها ومصطلحاتها، التي منها: الحجة – النتيجة – الروابط – العوامل الحجاجية – التوجيه – السلم الحجاجي وغيرها. وقد ركز فيها على ما أسماه (الطبيعة الحجاجية للمعنى) والعلاقة القائمة بين المحتوى الإخباري للقول وقيمته الحجاجية.

في حين تضمن الفصل الثاني دراسة دقيقة لنماذج من الروابط الحجاجية في اللغة العربية، منها: (بل – لكن – حتى) مبينا أن الهدف من هذا الاختيار يكمن في إبرا بعض جوانب الاستعمال الحجاجي لهذه الروابط، لأنها أكثر استعمالا وشيوعا. وهو توضيح منهجي يبرر هذا الاختيار، ويدفع كل تأويل خاطئ أو تفسير غير دقيق.

في حين كانت الاستعارة الموضوع الذي بين فيه المؤلف أوجه الحجاج عبر مفاهيم محددة، مثل (السلم الحجاجي) و(القوة الحجاجية) و(الإبطال).

ويبدو أن المؤلف قد أحسن صنعا، حين استعار مصطلح القوة (La Force) ليوظفه في حقل اللغة، حيث اجترح مصطلحات جديدة تغري بمزيد من البحث، مثل سلطة الكلام وسلطة الخطاب و قوة الكلمات، منتهيا من ذلك إلى استنتاجات خصبة، آن الأوان لتكون مشاريع أعمال مستقبلية، تساهم في إبراز الجانب الحجاجي للغة العربية، وكشف

---

(1) سبق للمؤلف ان انجز اطروحتين في هذا المجال: الأولى في موضوع: الروابط الحجاجية في اللغة العربية بإشراف العالم اللغوي أزفالد ديكرو. والأطروحة الثانية في موضوع: الحجاج في اللغة العربية بإشراف د. محمد مفتاح.

(2) الغالب على الدراسات الحجاجية للباحثين العرب أنها تنحو منحى نظريا، فباستثناء أعمال د. طه عبد الرحمان و د. محمد العمري، لا نكاد نعثر على دراسات تطبيقية أخرى، لا سيما تلك التي تتخذ من العربية موضوعا للتحليل.

منطقها الداخلي.

ولمزيدمن الإيضاح، سنحاول الوقوف عند أهـم العناصـر الـتي شـيدت صـرح هـذا المشروع، لنتبين ما تضمنته من تنظير وإيجاز في حقل الحجاج المتصل باللغة العربية تحديدا.

3- القراءة الصبورة والتلقي المنتج:

إن حرص المؤلف على تتبع النظريات الحجاجية في منابعها، وفهم أبعادها، سمح لـه بتمثل أعمق لأسرارها، واستيعاب أدق لتفاصيلها وجزئياتها. يبدو ذلك جليـا أولا في تحليلـه الدقيق للفروق القائمة بـين العوامـل الحجاجيـة والـروابط الحجاجيـة أو تميـزه بـين الحجـاج (Argumentation) والاستدلال (Démonstration)، بمـا يفيـد في إبعـاد أي التبـاس في مجال التطبيق، ويثبت أيضا الإضافات التي سيقدمها عند إنزال هذه المفاهيم على محـك اللغـة بشتى تلويناتها وتمظهراتها حسب الاجناس الأدبية والفنية ووظائفها التأثيرية والإقناعيـة الـتي تؤديها. ذلك أن المؤلف لم يبق أسير التصورات المتداولة أو المكررة، بل اجتهد في الإفـادة مـن أحدثها وأكثرها استجابة لخصوصية الظواهر اللغوية موضوع التحليل. ثم إنـه بعـد أن فـصل القول في تلك الفوارق والمحددات المتعلقة بكل مصطلح، انتهي إلى استنتاجات هامـة، تـساعد المتلقي على المزيد من الفهم ومتابعة التحليل، كما هـو الـشأن مـثلا في هـذا التحديـد لـنمط خاص من الـروابط الحجاجيـة (حـروف العطـف، الظـروف..) حيـث" الـربط بـين وحـدتين دلالتين أو أكثر في إطار استراتيجية واحدة، وهذا في إطار الصيغة الجديدة للنظريـة الحجاجيـة أما في التصور السابق، فقد كنا نقول إنه يربط بين قولين (أو أكثر)، وقد تم التخلـي عـن هـذا التصور لأن ظاهرة الربط معقدة، ولأن الربط بين الأقوال ليس إلا حالة خاصـة، فقـد يـربط الرابط بين قولين، وقد يربط بين عناصر غير متجانسة، كأن يربط مثلا بين قول وقولية (une énonciation) أو بين قول وسلوك غير كلامي، إلى غير ذلك من الحالات الممكنة"[1].

---

(1) اللغة والحجاج: ص 29.

4- التدرج من الجزئي إلى الكلي:

ذلك أننا ونحن نتابع التحليل، نلمس نوعا من المتابعة الدقيقة والمتأنية لمجموعة من الظواهر اللغوية بالتركيز على قوتها الحجاجية بدءا من أصغر وحدة فيها، وانطلاقا من الأمثلة الجزئية الدالة وصولا إلى تشييد تصور كلي، يؤكد المثال ويثبته من صلب اللغة إلى أن ينمو بالتحليل ليغدو قاعدة عامة تحكم بنية اللغة وتفسر عناصرها الحجاجية، كما هو الحال في الاستنتاج الذي خلص إليه، والذي ينم من جهة عن إدراك عميق بالأبعاد التي كان يرمي إليها المنظرون والعلماء الذين تبنوا هذه النظرية، ومن جهة أخرى على ما يمكن أن يبينه الباحث نفسه من تحليلات جديدة، تخصب تعريفا أدق أو استنتاجا أشمل، أو تصورا أعمق، يمكن الاعتماد عليه في تفسير أو تعليل ظاهرة لغوية أو تعديل تصور أو موقف سابق، بدا بالدليل والحجة، والمدعومين بالتحليل أنه غدا متجاوزا: كما نقرأ في هذا الاستنتاج الخاص (بالمبادئ الحجاجية) المستخرجة من المثالين الآتيين: (الاجتهاد يؤدي إلى النجاح) أو (تكون فرص نجاح الإنسان بقدر عمله واجتهاده) ذلك أن" المبادئ الحجاجية هي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح، وأن التعب يستدعي الراحة وأن الصدق والكرم والشجاعة من القيم النبيلة والمحببة لدى الجميع، والتي تجعل المتصف بها في أعلى المراتب الاجتماعية. وبعض هذه المبادئ يرتبط بمجال القيم والأخلاق وبعضها يرتبط بالطبيعة ومعرفة العالم"[1] بل إن هذا التخريج لا يقف عند مستوى عرض الإنتاج الخاص بالنموذجين السابقين، وإنما يتجاوزهما إلى تقديم حلول أخرى، تسهم في زيادة الوعي بأسرار والمنطق الحجاجي لهذه الجمل، من خلال التمييز الدقيق بينها، وما يمكن أن يستنبط من كل واحدة من قوة حجاجية واستدلالية، تجد تفسيرها في أصول تتجاوز اللغة إلى مبادئ حجاجية" ترتبط بالإيديولوجيات الجامعية، إذ يمكن أن ينطلق استدلالان من نفس المقدمات، وأن يعتمد نفس الروابط والعوامل، ومع ذلك يصلان إلى جانب هذه المبادئ

---

(1) اللغة والحجاج: ص 33.

المحلية (Topoi Locaux) المرتبطة بإديولوجيات الأفراد داخل المجموعة البشرية الواحدة، هناك مبادئ أخرى أعم، وهي مشتركة بين جميع أفراد المجموعة اللغوية، ومؤشر لها داخل اللغة[1].

5- سعة المدونة / تخصيب الدلالة:

لم يقتصر المؤلف في اختبار أدوات التحليل، وتطبيق النظرية الحجاجية على جنس خاص، وإنما جمع بين العديد من الأجناس مثل الشعر والرواية، وغيرهما واعتمد على العديد من الخطابات منها الإنساني، ومنها الإلهي، وكما شملت الفصيح والعامي الشيء الذي ضمن حجة إضافية إلى تطبيقاته، ومنحها بعدا آخر من الدلائل التي تغني هذه التخريجات مما أخصب نتائجها، وقوى تلك الظلال من المعاني المتضمنة فيها أو المصاحبة لها عند كل إنجاز، بخاصة وأنه يعمد إلى مقارنتها مما هو منجز في لغات أخرى فرنسية وإنجليزية، لتكون ذات تمثيلية واسعة علميا.

هكذا نجده يستحضر آيات من القرآن الكريم، ليوضح أن الأداتين (بل ولكن) قد استعملتا في العربية والفرنسية لغاية الحجاج والإبطال لكنه يضيف في تمييز دقيق وعميق إلى ظلال حجاجية أخرى لهاتين الأداتين في إنجازات قرآنية، تظهر خصوبة الدلالة في الخطاب الإلهي القائم في جزء كبير منه على الإقناع والتأثير والحجاج كما في الآية الكريمة ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[2] حيث وقعت بل (الرابط الحجاج) جملة أضفت على الآية طابع (الإبطال) في حين اتصفت بسمة (الانتقال من غرض إلى غرض) في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. غير أن توضيح هذه التنويعات لم

---

(1) نفسه.

منها قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس آية 55].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس آية 60].

(2) المؤمنون: آية 70.

(3) الأعلى: الآية 14.

يحل دون تنبيه المؤلف بأن الأهم في هذا التحليل هو الاستعمال الأخير أي" عندما يكون الإضراب على جهة الترك للانتقال من غرض إلى غرض آخر، من غير إبطال، ونمثل له بالأمثلة الآية: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾[2].

وقد قدم المؤلف لتصوره هذا بآراء ونظريات اللسانيين الغرب وبسطها بوضوح تام، ثم عرض تفسيرات النحاة العرب القدامى (المرادي والزمخشري)، لكنه لم يقف عند مستوى العرض وإنما ناقش هذه التصورات، وأضاف تصوره الخاص الذي استخرجه من قلب الآيات القرآنية التي حللها، منتهيا إلى تخريج ذكي جذير بالتأمل والمتابعة. ذلك أنه بعد أن عرض الآيات الكريمة وأثبت رأي النحاة العرب في الأداتين موضوع الاستشهاد، مذكرا بوصفهم (للإضراب الانتقالي)" بعبارات شتى من قبيل: (ترك شيء من الكلام وأخذ في غيره)، الانتقال من غرض إلى آخر)، التنبيه على انتهاء غرض واستئناف غيره)، (الإضراب على جهة الترك من غير إبطال)، (الإنتقال من جملة إلى أخرى أهم من الأولى)، وغيرها من العبارات المتناثرة في كتب النحو"[3] تابع يتابعهم إثبات الآراء السابقة، دون أن يقف عندها، بل أضاف إليها وصفا حجاجيا لطيفا جعلها الأقوى في التحليل والأجدر بالاعتبار لما تضمنته من حجج واضحة استقت مشروعيتها من الإيحاءات المعنوية، والظلال الرمزية الثاوية خلف هاتين الأداتين المستعملتين في هذا السياق، الذي دفع الزمخشري أن يشدد فيها على معنى (الإضراب) المتمثل في كون"أمرهم أعجب من أمر أولئك، لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم، ورأوا آثار هلاكهم فلم يعتبروا وكذبوا أشد من تكذيبهم"[4]. ويتجلى هذا الوصف أساسا في التوجيه الحجاجي الدقيق للأداة (بل)، حيث العلاقة الحجاجية قائمة على علاقتين فرعيتين" علاقة بين الحجة (اطلاعهم على أخبار فرعون وثمود

---

(1) البروج: آيات 17-19.

(2) المؤمنون: آية 63-62.

(3) اللغة والحجاج: ص 62.

(4) المصدر نفسه.

وغيرهم و(النتيجة) (سيعتبروا ويتعظوا)، وعلاقة حجاجية ثانية تسير في اتجاه النتيجة المضادة أي بين الحجة القوية التي تأتي بعد (بل) وهي (الذين كفروا في تكذيب)، والنتيجة المضادة للنتيجة السابقة: (لن يعتبروا ولن يتعظوا)، والنتيجتان المضمرتان"[1]. غير أن التخريج الأهم في التحليل هو التأكيد على أن الحجة التي ترد بعد الأداة (بل) تكون أقوى من الحجة التي ترد قبلها، وهذا ما هو واضح في النماذج السابقة، حيث إن الأقوام المذكورة مطبوعة ومجبولة على التكذيب، لهذا هي أشد بعدا عن الإيمان والاعتبار.

ثم إن هذه التخريجات التي كثيرا ما نصادفها في التحليل، لا تقف عند مستوى التركيب، بل تتجاوزه إلى مستوى التداول كما الشأن في تحليله للفروق الدقيقة بين الأداتين: (بل) و(لكن)، حيث تختص هذه الأخيرة باستعمال حجاجي واحد، تكون فيه مقابلة للأداة الفرنسية (Mais). في حين تختص بل باستعمالين حجاجين: واحد تكون فيه مرادفة ل (لكن) وتربط بين حجتين متعارضتين. واستعمال حجاجي ثاني ترادف فيه الأداة (حتى) وتربط بين حجتين متساويتين، تؤديان إلى نتيجة واحدة. إضافة إلى فرق آخر يتجسد في سلوكهما المتمايز إزاء الواو. وهنا لم يفت المؤلف أن يستحضر التفسيرات الهامة التي قدمها النحاة العرب، لكنه يقف أيضا عند بعض القصور الذي شابها، مضيفا إليها تحليلا حجاجيا دقيقا يسد ذلك النقص القائم لما قدمه النحاة، وهو تحليل يتجاوز مستوى التركيب الذي وقف عنده هؤلاء إلى مستوى التداول[*]، مستندا في ذلك إلى سؤال أساس يحدد ماهية وموضع العاطف النحوي والرابط التداولي؟ مجيبا أن "(الواو) تعطف، ولكنها أيضا تقوم بإنجاز الربط التداولي الحجاجي، حيث يحصل هناك نوع من التوزيع التكاملي، أما عندما تكون (لكن) مجردة من الواو، فإنها تقوم بالوظيفتين معا. وإذا قلنا إن العرب تؤثر تشديد (لكن) عندما تدخل عليها الواو فإن هذا على سبيل الجواز لا الوجوب، وإلا فهناك أمثلة

---

(1) اللغة والحجاج: ص 63.

(*) التداولية Pragmatique: فرع من البحث اللساني تقوم على استحضار الأبعاد السياقية والمقامية والتخاطبية والمقاصدية وأفعال اللغة بكافة أبعادها بما فيها التأثير والإقناع، وهو ما يصلها بالبعد الحجاجي الذي نحن بصدده هنا.

عديدة نجد فيها (لكن) الخفيفة مسبوقة بالواو"[1].

إن الطريقة التي دأب المؤلف عليها في عرض ومناقشة الآراء السابقة، وتحليل الظواهر اللغوية، تسمح للمتلقي بالمتابعة وتمنحه فوائد عديدة، أولها أنه يتعرف على تفسيرات النحاة، وتصورات العلماء واللسانيين في العديد من الظواهر اللغوية، وثانيها تمكينه من معرفة هذه الرؤى والنظريات في أصولها، وثالثها الوقوف على الجديد الذي قدمه المحلل من خلال هذه الأمثلة متنوعة المصادر واللغات.

وهكذا يتابع المؤلف تحليل هذه الأدوات الشائعة الاستعمال من خلال عقد مقارنات هامة، تفضي إلى تبيان الفروق العميقة ببعضها وتأثير ذلك في توجيه المعنى، وتثبيت الدلالة والتأثير والإقناع الذي تقصد إليه في الاستعمال، المتجاوز لوظيفتي الإخبار والتواصل، ويبدو أن هذا الحرص الدقيق على تتبع الجزئيات الكامنة في هذه الأدوات نابع من تمكين المؤلف من موضوعه، ومن النظرية التي يتبناها في التحليل، يظهر ذلك أيضا في تحليله ل (حتى) مبرزا قوتها الحجاجية المتنوعة في الاستعمالات المتداولة أولا، مضيفا، وموضحا استعمالات أخرى لها، مبرزا الخلاف الذي وقع بين النحاة في شأن تفسيرها، منتهيا إلى أنها تتجاوز (التعليل) و (الغاية) التي قال بهما النحاة، مثبتا بالدليل، والأمثلة المحللة أنها حجاجية حين" يكون الرابط فيها مقابلا للأدوات التالية (Jusqu'à ce que , avant que , afin que , pour ...) نذكر من هذه الاستعمالات دلالتها على التعليل.

---

(1) منها الآيات الكريمة:" ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون". البقرة – آية 12.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: آية 13].

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [النحل: آية 61].

وقول الشاعر:

فما غطفان لي بأب ... ولكن لؤي والدي قولا وصوابا

المفضليات: 315

ويمكن التمثيل لها بالعديد من النماذج[1]. فحتى (في الأمثلة أدناه) تدل على التعليل، أي أن ما قبلها علة لما بعدها، وهي مرادفة لكي التعليلية. فالمثال الأول معناه. (قاتلوهم كي لا تكون فتنة) والمثال الثاني معناه (يقاتلونكم كي يردوكم). والشيء نفسه ينطبق على الأمثلة الأخرى. وإذا كان ما قبل حتى علة لما بعدها، فإن الأمر مختلف في لام التعليل، فما بعدها علة لما قبلها كما في المثال: (وإنه لحب الخير لشديد). ويتعلق الأمر في الأمثلة السابقة بالاستعمال الحجاجي، لأن الأداة (حتى) استعملت لتحقيق غايات حجاجية[2] على أننا لا نقف عند هذا التخريج المؤشر عليه بالأمثلة المحللة فقط، وإنما نجد أيضا تقديما متواصلا لأسئلة عميقة، استخرجها من عمق هذا التباين القائم لدى النحاة، مؤكدا في النهاية أن الفيصل في ذلك هو الاحتكام إلى السياق في هاتين الأداتين الحجاجيتين (حتى التعليلية) و (حتى الغائية)، وهذا ما يتضح حين نقابل هذه الأخيرة بالأداة (jusqu'à ce que) وليس (jusqu'à) المقتصرة على دلالتي الزمان والمكان فقط.

وإذا كان المؤلف قد قدم تحليلا حجاجيا مستوفيا، حسم فيه الخلاف الذي قام بين النحاة حول هذه الجزئيات الدقيقة والعميقة لهذه الأدوات، فإنه كذلك قد ناقش تفسيرا لأحد اللسانيين الغربيين الذين خاضوا في هذا الموضوع، وانتهى إلى انتقاد تفسيره لحتى بكونها زمانية، مؤكدا مرة أخرى أن (حتى) الواردة في قوله تعالى: ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3] حجاجية وتفسيرية وتبريرية وإقناعية وليست زمنية كما ذهب أندري ميكال (A. Miquel)[4].

على أن ما أضفى على هذه التخريجات الخاصة بالروابط اللغوية سعة في النمذجة،

---

(1) منها ما ورد في الآيات الآتية:

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ البقرة: آية 193].

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة: آية 217].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة – آية 217].

(2) اللغة والحجاج: ص: 75.

(3) الرعد: آية 11.

(4) Le particule " Hatta " dans le Coran: Miquel.A. in B.E.A., 21 1968 p: 420.

وقوة في التمثيلية والإنجاز، كونها تأتي في الكتاب مشبعة بتفسيرات، ومقارنات، وتعديلات يثبتها المؤلف في مكانها المناسب، مستعينا في ذلك بنظريات أخرى داعمة لتصوره لكل ظاهرة لغوية، كما هو الشأن في استحضاره لنظرية الأصوات (La polyhonie) لتحديد فروق إضافية للأداتين (بل) و(حتى) مكنته من بناء تنويع صواتي منتج من داخلهما، خاصة وأن الفرضية التي تقول بها وتدافع عنها هذه النظرية تكمن في" إنتاج المعنى الذي تشارك فيه مجموعة من العناصر، وأن المعنى ذو طبيعة حوارية، ولهذا فهي ترفض أحادية الذات المتكلمة، وتميز بين مجموعة من الشخصيات التي تساهم في إنتاج القول وتحديد معناه، والتي منها: المتكلم باعتباره كائنا فيزيائيا فزيولوجيا (المنتج الفيزيائي للقول: Locuteur). والمتكلم باعتباره مسؤولا عن الكلام وعن التلفظ: (المتكلم باعتباره متكلما Locuteur). والقائلون Les énonciateurs (أو الأصوات Les voix) التي تتحدث داخل القول، أي داخل المعنى، وتعبر عن آرائها ومواقفها"[1]. وهكذا ومن خلال هذا الاستحضار الذكي لنظريات موازية، وتصورات داعمة، يستخرج المؤلف تحديدات لافتة، وينتهي إلى استنتاجات خاصة تؤكد وجاهة الاختيار، ودقة وعمق التوظيف، الذي غالبا ما ينتهي إلى تعديل مسار ما أو تصويب أخطاء ما أو نقد تصور ما، سواء كان صادرا عن نحاة قدماء أم عن لسانيين معاصرين، مما يضفي على هذا العمل صفة النقد والتحليل، غير المهادن أو المسلم بقواعد ثابتة تعلي من شأن النظرية، وتضحي بفائدة التطبيق الذي شكل الحيز الأكبر في هذا الكتاب.

وقد شكل موضوع الاستعارة بعدا آخر في هذا العمل، أجاد فيه المؤلف حين تجاوز التفسيرات التي قدمها كل من اللغويين والنحاة والأدباء والبلاغيين والأسلوبيين والمناطقة والإعلاميين وفلاسفة اللغة وعلماء النفس، ليشدد بالمقابل على قوتها الحجاجية، وطابعها التأثيري والإقناعي، مستفيدا

من الدراسات القيمة التي قدمها كل من (ميشال لوغرن)[2] وكذا (أزفالد

(1) اللغة والحجاج: ص 92.

(2) Métaphore et argumentation: Michel la guern: in: L'argumentation. presses universitaires de Lyon: 1981.

ديكرو)[1]، منتهيا بعد مصاحبة طويلا لإنجازات متنوعة، وظواهر لغوية عديدة شملت أبعادا استعارية خصبة إلى أن هذه الأخيرة التي سماها (الاستعارة الحجاجية) تحضر في كل الخطابات والأجناس، والكتابات السياسية والقانونية والأدبية والصحفية والعلمية، وغيرها، بحيث لا نكاد نعثر على أي خطاب إلا وحضرت فيه الاستعارة الحجاجية، لأنها مرتبطة بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، من أجل التوجيه والتأثير والإقناع. ولم يفته أن يشير في هذا السياق إلى تصور اللغويين والنقاد العرب القدامى للاستعارة وللتقسيمات التي أثبتوها لها، خاصة عند عبد القاهر الجرجاني، مما يؤكد أهميتها في توجيه الخطاب وتحقيق أهداف المتكلم في كل خطاب، وفي سائر الأجناس الأدبية وغير الأدبية، بل وفي الأحاديث اليومية لسائر المتكلمين.

ويمكن القول إن المتلقي وهو يتابع التحليل، يظفر كذلك بمعلومات وشروح هامة لمختلف النظريات والتصورات التي تهم الاستعارة عند القدماء والمحدثين، مما يوسع أفق المعرفة بدقائق، وأبعاد هذا الموضوع. هذا ما نلمسه أيضا في ذلك الفصل الذي اختار له عنوانا لافتا ألا وهو: (قوة الكلمات أو اللغة بين الإنجاز والحجاج)، حيث انتهى إلى استنباط ستة استنتاجات هامة، تبرز الجوانب الحجاجية للغة، وتوضح بالأمثلة قوة الكلمات، بل وسلطتها في الفعل والإنجاز بل، وتغيير العالم أيضا، وذلك لأنها تقوم على أفعال لغوية ذات سمات خاصة، منها:

- إنجاز أفعال ترمي إلى تغيير الواقع
- إنجاز أفعال لغوية تعمل على تغيير العلاقات القانونية والشرعية القائمة بين الأشخاص، مما ينتج عنه حقوق وواجبات[2].
- إنجاز أفعال ذات صلة وثيقة بالمؤسسات التي تحكمها بشروط وعهود والتزامات تنظم

---

(1) Les Echelles argumentatives: O. Ducrot – Ed: Minuit paris: 1980.

(2) من هذه الأقوال الإنجازية مثلا الأفعال الآتية:
"(أنت مطرود من عملك)- (أهنئك على نجاحك) – (أنت طالق) (أعلن افتتاح الجلسة). فهذه أقوال لها جنبان: جانب لغوي وجانب فعلي إنها أقوال وأفعال أو هي أقوال يمتزج فيها القول بالفعل، ومن هنا العنوان الدال والمعبر لكتاب أوستين: عندما نقول، فإننا نفعل" Quand dire – c'est faire اللغة والحجاج:ص 117.

علاقات مستعمليها

- إنجاز أفعال قصدية، مرتبطة بغايات وأهداف محددة، إضافة إلى أن هذه الأفعال اللغوية تتصل (بسياق) يحدد دلالتها. وأخيرا لكي تنجح هذه الأفعال اللغوية في تحقيق الغاية من إنجازها، لابد أن تستجيب لعدة شروط منها:

- "* الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفصل اللغوي
- مقاصد الأشخاص.
- نمط التأثير المرتبط بإنتاج الفصل اللغوي وقوليته"[1].

ومن النماذج المتميزة التي أبدع فيها المؤلف في إبراز القوة الحجاجية للغة، ذلك البيت الشعري لجرير الراعي حين هجا النميري وقبليته:

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

حيث يرى أن" الشطر الأول من البيت يشتمل على نتيجة هي: (غض الطرف)، وحجة تؤدي إليها وهي: (أنت من قبلية نمير)، فإذا كنت نميريا فغض الطرف، والحجة تستلزم النتيجة، وإذا قبلت العنصر الأول من عنصري العلاقة الحجاجية، فلا بد أن تقبل العنصر الثاني وتسلم بوجوده، وبعبارة أخرى، لا بد من الخضوع لمنطق اللغة ومنطق الخطاب. والرابط الحجاجي الوارد في البيت هو التجاور (La juxtaposition) الذي غالبا ما يفيد السببية، ولو اعتمدنا روابط حجاجية أخرى لتعددت الصياغات وتنوعت العلاقات. لقد كان لكلام جرير من القوة والسلطان، ما جعل أفراد قبيلة النميري يغضون الطرف فترة من الزمان، ولم يعد بإمكان النميري إلا أن يغض طرفه ويحني رأسه إذا التقى بشخص من قبيلة أخرى، تنفيذا للأمر الوارد في البيت الشعري وخضوعا لسلطة اللغة ومنطقها، فسلطان الكلام ليس فوقه سلطان، وقوة الحجاج ليس ينكرها أحد"[2]. هكذا يستنتج من هذه الكلمات البسيطة، القليلة عالما من الدلالات، المشبعة بقوة الحجاج،

---

(1) اللغة والحجاج: ص 118-120.

(2) نفسه: ص 129.

وسلطان اللغة ومنطقها في التأثير والإقناع، إلى درجة تحولت فيها العلاقات، فأصبح القوي ضعيفا، والضعيف قويا، ونتجت عنها تصرفات لم تكن من قبل عادية ولا مألوفة، وقد امتدت هذه التحولات من الأفراد لتشمل الجماعات، وهذا كله ناتج عن قوة وتأثير الكلمات في الناس، والعلاقات والعالم.

إن هذه النتيجة الأخيرة في ارتباطها بنتائج أخرى انتهى إليه المؤلف، دفعته إلى الإقرار باستنتاجات عديدة، نقر بأهميتها، لأنها أضاءت العديد من العتمات اللغوية، وكشفت مجموعة من الظواهر اللسانية التي تتجاوز مستواها التواصلي والإخباري إلى مستوى أعمق وأبعد، ألا وهو المستوى الحجاجي. ومن هذه الاستنتاجات التي ذهب إليها المؤلف في آخر فصل من فصول مؤلفه تلك التي شكلت الفرضية العمدة في نظرية الحجاج في اللغة، والقائلة بأن" طائفة كبيرة من ألفاظ اللغة وكلماتها وتراكيبها ليس له معنى وصفي واضح، أو ليس له محتوى إخباري بين، وإذا سلمنا بهذا، فإن وظيفتها ستكون إذا وظيفة حجاجية بالأساس. وحتى إذا اشتمل معنى بعض الكلمات أو العبارات على مكون وصفي إخباري، فإنه يكون تابعا للمكون الحجاجي، ويكون ثانويا بالقياس إليه، فالمعنى الحجاجي هو الذي يعتمد في تسلسل الخطاب وتناميه وهو الذي يحكم توالي الأقوال وتتابعها بصورة استنتاجية داخل الخطاب. وكيف لا يكون الأمر كذلك، وعدد كبير جدا من الكلمات والمفردات قد تصل إلى 80% أو يزيد لا نعرف معناها ولكن نعرف جيدا كيف نستعملها وكيف نوظفها في خطاباتنا وحواراتنا من أجل التأثير في الآخر"[1].

وإذا كنا نقر بوجاهة هذا الاستنتاج الذي يبرز الوجه الحجاجي لكثير من العبارات والكلمات التي نستعملها فيما بيننا، إلا أن النسبة التي قدمها المؤلف هنا تحتاج إلى نوع من الإيضاح من خلال الإنجازات اللغوية نفسها، حتى تكون هذه النسبة مقدمة أساسية لأعمال أخرى مستقبلية تنير جوانب أخرى متعلقة بطبيعة هذه التعبيرات والمفردات اللغوية التي عليها مدار الإخبار والتواصل والتأثير لإقناع كأبلغ وأعمق ما يرمي إليه المتكلمون والمتحاورون في شتى خطاباتهم.

---

(1) اللغة والحجاج: ص 132 -133.

6- هيكل الكتاب وبناؤه:

جاءت هيكلة الكتاب متوازنة، تنتظمها فصول أربعة، تكاد تتساوى من حيث مكوناتها، مما أضفى عليها انسجاما وتكاملا، تجسد على هذا النحو: مقدمة موجزة، أدت غرضها في إيضاح النظرية والمنهج والمفاهيم والمقاصد بدقة، تغني عن أي تفصيل. ثم فصل أول: الحجاج اللغوي والدلاليات الحجاجية، تضمن (مفهوم الحجاج، والسلم الحجاجي، والروابط والعوامل الحجاجية، والمبادئ الحجاجية، ونحو دلاليات حجاجية، والحجاج والنظرية الدلالية والمعنى). ففصل ثاني: سماه: بعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية وتضمن: العناصر الآتية: (بل ولكن، الوصف الحجاجي، مقارنات، حتى، الوصف الحجاجي، استعمالات حجاجية أخرى، حتى وعلاقات الحيز بين النفي والأسوار، حتى وبل: مشروع مقارنة، ثم فصل ثالث: خصه للاستعارة والحجاج، وحلل فيه ثلاثة قضايا: (الاستعارة ومفهوم القوة الحجاجية، الاستعارة والإبطال، الاستعارة الحجاجية والاستعارة البديعية). أما الفصل الأخير فقد حلل فيه: (قوة الكلمات أو اللغة بين الإنجاز والحجاج من خلال: اللغة والإخبار، الفصل اللغوي والقوة الإنجازية، الحجاج والقوة الحجاجية، قوة الكلام وقوة الكلمات)، ثم خاتمة تضمنت الأهداف التي تحققت، وتلك التي ستظل مطلبا مستقبليا، يدفع نحو المزيد من البحث والمعالجة التي تمكن من فهم أدق وأعمق لعالم اللغة ومنطقها ووظائفها.

7- غنى المصادر وتنوعها:

يمكن القول إن هذا الكتاب يعد مكتبة متخصصة في الحجاج واللغة، فبالإضافة إلى اعتماده على مصادر ومراجع ودراسات ومقالات في صلب التخصص، منها ما يعود إلى النظريات الحديثة في الحجاج، وفي منابعها الغربية، وأصولها، وامتداداتها، وتحولاتها، وتطوراتها، نجده قد استعان أيضا بمصادر عربية للغويين ونحاة وبلاغيين ونقاد متميزين. مما يدل على أن المؤلف قارئ مجيد، ومتلقي صبور، لا يستعجل النتائج، بقدر ما يحسن الإصغاء لهذه النظريات والتفسيرات، التي يستخرجها من بطون الكتب قديمها، وحديثها، وبلغات

عدة: عربية، فرنسية، وإنجليزية حيث إن المؤلف متمكن، ماكن من اللغات الثلاثة، الشيء الذي سمح له بعقد كثير من المقارنات الهامة جدا، التي أنتجت تحليلا متميزا وجديرا بأن يطور في أعمال أخرى مستقبلية، لاسيما في هذا الجانب الذي قلت فيه مثل هذه الدراسات التي توظف هذه النظريات، لا سيما في تحليلها لظواهر لغوية عربية.

ويكفي أن نلقي نظرة على قائمة ا لمصادر والمراجع المعتمدة في هذا العمل، لتبين مدى الجهد المقدم هنا، ومدى سعة المتون التي اشتغل عليها، مفسرا، ومؤولا، ومناقشا، ومقارنا، ومنتقدا، بل ومضيفا إليها أيضا.

وهكذا فقد اشتغل على 20 مصدر ومرجع عربي و 105 ما بين مصدر ومرجع ومقال بالعربية والفرنسية والإنجليزية، مما يجعل هذا الكتاب بالإضافة إلى خاصية التحليل والتطبيق التي تميزه، مرجعا هاما، مفيدا للباحث والطالب المشتغل بهذه النظرية.

أخيرا:

لابد من الإقرار بأن عمق ودقة هذا العمل، تعود في جزء كبير منها إلى هذه التجربة التي راكمها المؤلف في التعامل مع اللغات (العربية – الفرنسية – الإنجليزية)، وكذا لتكوينه العلمي الرصين، فهو الحافظ للقرآن الكريم المتلمذ على يد أساتذة علماء أمثال: المرحوم د. أمجد الطرابلسي ود. محمد خير الحلواني، وأزفالد ديكرو، وغريز وغوشي وريكاناتي وفوكوني، وغيرهم من أصحاب النظريات اللسانية الحجاجية، ممن أشرفوا على أطروحات قدمها المؤلف د. أبو بكر العزاوي، الذي يعد أحد مؤسسي النظرية الحجاجية في العالم العربي، بفضل تلك الأعمال المتميزة التي أنجزها، سواء في أعماله الأولى سنة 1983 أو في أطروحته عن الروابط الحجاجية في اللغة العربية سنة 1989 بإشراف العالم اللغوي ديكرو، حيث لم يكن في العالم العربي سوى باحثين قلائل في هذا التخصص أبرزهم الفيلسوف والمنطقي المتميز الدكتور طه عبد الرحمن. أو في أطروحته الثانية سنة 2003 عن الحجاج في اللغة العربية بإشراف الدكتور محمد مفتاح. أضف إلى ذلك هذا التنوع في المكونات العلمية واللغوية للمؤلف، فقد أنجز العديد من الدراسات العلمية في اللغة والحجاج والأمثال

والصورة الإشهارية، وطبق نظريات الحجاج على أجناس عديدة همت الشعر والقصة والرواية والصورة الإشهارية والقرآن الكريم والأمثال. وقد أفرز ذلك التعاون العلمي الذي أقامه المؤلف مع العديد من اللسانيين الغرب، في مقدمتهم أزفالد ديكرو نتائج مهمة، خاصة تلك التي همت بعض الحروف والأدوات والتعبيرات في اللغة العربية مقارنة باللغة الفرنسية، كما هو الحال بالأداة (حتى) في العربية و(peu و un peu) في الفرنسية، وغيرها من الأعمال ذات المنحى الحجاجي أساسا مثل الاستعارة والمعنى والأمثال والاقتضاء ونظرية تعدد الأصوات.

الأدب الشعبي موضوعا للبحث

د. مصطفى يعلى
كلية الآداب / القنيطرة

يعلم الجميع أن الأدب الشعبي كان متداولا بين شرائح المجتمعات الشعبية خاصة، وهي التي رعته وحافظت عليه باعتباره تأريخا لشخصيتها وتحصينا لثقافتها، فضلا عن كونه جسرا لنقل التجارب الثرية والقيم المفضلة إلى الأجيال المتوالية. وفي المقابل كان هذا الأدب مهمشا من طرف النخب المثقفة، في توافق مع النظرة الطبقية الدونية له ولأصحابه. ومن هنا هذا الإهمال الذي أصاب هذا الأدب على مستوى البحث والدراسة والتنظير، رغم ما يتميز به من أصالة وحيوية وغنى مكنته من المساهمة الفعالة في حفظ ثقافة الشعب وقيمه النبيلة وتجاربه الحضارية وخبراته التربوية وأحداثه التاريخية.

بيد أن الصورة ستشرع في الاختلاف مع حلول القرن العشرين. فبعد عملية الجمع والتدوين والتصنيف، التي مورست في هذا الحقل منذ القرن السابع عشر عندما نشر بيرو الفرنسي مجموعته القصصية الشعبية، ومرورا بمجموعة الأخوين جريم الألمانيين، ومجموعة أفانسييف الروسي في القرن التاسع عشر، وتصنيف أنتي آرن واستيت طومسون العالمي الشهير في بداية القرن العشرين؛ جاء دور الباحثين في قضايا وإشكالات هذا الأدب بوجهات نظر ومناهج مختلفة مورفولوجية وأنتروبولوجية ونفسية واجتماعية وسيميائية، نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر: فلاديمير بروب، وكلود ليفي شتراوس، وألان دندس، وغريماس، وكورتيس، وبريموند وغيرهم.

وفي العالم العربي، انطلق الاهتمام الفعلي على مستوى الدراسة والبحث بهذا الأدب، منذ العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، حيث كثرت الأسماء المهتمة به في مصر، ثم العراق ولبنان، وإلى حد ما في باقي الأقطار العربية الأخرى، مع بعض التفاوت طبعا. ومن أبرز تلك الأسماء د. أحمد رشدي صالح، لاسيما في كتابيه (فنون الأدب

الشعبي) و (الأدب الشعبي)، ود. عبد الحميد يونس في (الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي) و (الحكاية الشعبية) وغيرهما من الكتب والمقالات الضافية في الموضوع، وفاروق خورشيد في كتابه (عالم الأدب الشعبي العجيب) وغيره من الأبحاث المهمة المتفرقة في عدد من المنابر المختصة أو المهتمة بالأدب الشعبي، و دة. نبيلة إبراهيم التي حققت كثيرا من التراكم في الأبحاث والدراسات حول هذا الأدب، ومن أهمها (قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية) و(أشكال التعبير في الأدب الشعبي)، ونمر سرحان في (الحكاية الشعبية الفلسطينية)، ولطفي الخوري في دراسته المركزة (في علم التراث الشعبي).

وفي المغرب، بدأ الوعي بجدوى الأدب الشعبي لدى الباحثين المغاربة، منذ عشرينات القرن الماضي. وبالضبط حين نشر محمد الفاسي بالاشتراك مع إميل درمنجهيم مجموعتين قصصيتين شعبيتين، هما (حكايات فاسية) و (حكايات فاسية جديدة). ويتوالى هذا الاهتمام المحتشم خلال الثلاثينات والأربعينات، مجسدا في عدد من الأبحاث والمحاضرات والتآليف في الموضوع، منها: محاضرات لمحمد باحنيني حول (الملحون)، و(أمثال العجائز) و(معجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي) لأحمد بن محمد الصبيحي، و(قطائف اللطائف) عن نوادر وحكايات سوس، لمحمد المختار السوسي.

إضافة إلى ذلك، نشط الجدل بين المثقفين المغاربة خلال الخمسينات والستينات من القرن العشرين، الجدل حول جدوى ولا جدوى الأدب الشعبي، شاركت فيه أقلام كثير من الشخصيات الثقافية في شتى المنابر. ولعل السبب في هذا الاهتمام الجديد بالأدب الشعبي في المغرب، يعود إلى الاعتراف بتضحيات الجماهير الشعبية خلال زمن مقاومة الاستعمار، التي توجت بالحصول على الاستقلال، إلى جانب الإحساس العام بالذات الوطنية وبضرورة تدعيمها بكل المبررات المقنعة بما فيها المبررات التراثية رسمية وشعبية، مما يثبت أصالة الأمة وجدارتها.

وشرعت ملامح مرحلة جديدة من ذلك الاهتمام بالأدب الشعبي، تبرز بوعي أكثر وضوحا منذ الستينيات حصرا، حيث انخرطت شرائح من النخبة المثقفة من شتى المشارب تبحث أنواعه من زجل وأمثال وقصص وتكتب عنها. ويكفي أن نشير إلى أسماء من أمثال

عبد الله كنون ومحمد داود ومحمد الفاسي وعبد القادر زمامة وعباس الجراري ومحمد بن شريفة ومحمد شفيق وغيرهم، لندرك مدى التطور الذي حصل في الفترة بالنسبة لاتخاذ الأدب الشعبي في المغرب مادة صالحة للبحث والدراسة. بل إن الأمر قد انتقل من المباحث المحدودة والكتابات الحرة في الموضوع إلى التخصص الأكاديمي، كما لدى الدكتور عباس الجراري بالنسبة للمحلون في أطروحته (الزجل في المغرب: القصيدة)، والدكتور محمد بن شريفة بالنسبة للأمثال في أطروحته (أمثال العوام لأبي يحيى عبد الله الزجالي).

وقد مهدت هذه الإرهاصات لظهور ميل ملحوظ في السنوات القليلة الماضية لدى الباحثين في المغرب لدراسة الأدب الشعبي والتخصص في أحد أنواعه، والكتابة عنه سواء على المستوى الأكاديمي أم على مستوى الاختيار الحر بالمداخلات في اللقاءات والندوات الثقافية، والمقالات الدقيقة في الصحف والمجلات. ويحضرني من الأسماء الجادة التي أغنت حقل الأدب الشعبي برسائلها وأطاريحها وأبحاثها الأخرى، كل من المصطفى الشادلي، ومالكة العاصمي ومحمد فخر الدين وإدريس كرم.

وأكيد أن تأسيس مجموعات البحث والمختبرات ومسالك الماستر والدكتوراه، المتخصصة في الثقافة والأدب الشعبيين، التي اعتمدت في السنوات الأخيرة بكثير من الكليات بالجامعة المغربية، ستسرع وتغني التراكم كما وكيفا، في حقل الدراسة والأبحاث الأدبية المهتمة بالأدب الشعبي في المغرب.

وإذا كان المجال هنا لا يسمح بالاقتراب من كل المحاولات التي بذلت لدراسة وبحث أجناس وأنواع هذا الأدب المختلفة على الأقل في المغرب، فإنه يمكن الاستئناس بالوقوف عند نوع واحد منه هو الأمثال الشعبية، ومن خلال نموذج بحثي معين. خصوصا وأن الأستاذ المحتفى به الصديق الدكتور أبو بكر العزاوي، قد درسها بصورة جديدة وعميقة بواسطة التحليل الحجاجي، في كتابه الرصين (الخطاب والحجاج)[1].

إن أول ما يبدأ به الباحث يسلكه، على المستوى المنهجي، في إطار الأكاديمي المدقق، والمستقصي الشمولي. يتعلق الأمر بعدم الاقتصار على دراسة الأمثال الشعبية من منطلق

---

[1] الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ط. 1، 2007.

التحليل الحجاجي، بل يؤثر العودة كما هو مطلوب إلى المقاربات السابقة الأخرى لنفس هذا النوع الأدبي الشعبي. لذا يلاحظ أن البحث ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

قسم أول يتم فيه العرض النقدي للتحليل المنطقي الاستلزامي للأمثال الشعبية (ص ص. 65 79).

قسم ثان ورئيسي، ويتمركز حول موضوع البحث الجوهري المحدد في التحليل الحجاجي لهذا الجنس من الأدب الشعبي (ص ص.80 93).

إن الباحث يتوقف أولا عند العرض النقدي للتحليل المنطقي الاستلزامي للأمثال الشعبية، موظفا هذه المهمة من أجل هدف آخر يتجلى في تبرير تجريب مقاربة مختلفة وتقديم منجزه هو في الموضوع، وذلك باعتماد التحليل الحجاجي في هذه المقاربة. وهنا يتمكن من إعطاء الانطباع بأنه أعرف بمطبات وقصور التحليل المنطقي الاستلزامي في التعامل مع الأمثال الشعبية. لاسيما وأنه ملم بمفهومه وقضاياه ورواده وحدود تطبيقاته، في وعي تام بكل مناحيه؛ كما يتبين من هذا المقتطف:

((بعد أن بينا جوانب القصور في التحليل المنطقي الاستلزامي الذي يعتمد مفهوم الاستلزام المنطقي (Implication)، والذي لا يمكّننا إلا من تحليل عدد محدود جدا من الأمثال التي تقوم بنيتها الداخلية على علاقة استلزامية، فإننا سنقوم بتطبيق نموذج آخر، هذا النموذج يندرج فيما يدعى بمنطق اللغة الطبيعية، ثم إنه يسمح ويمكّن من وصف جل الأقوال المثلية، إن لم يكن كلها، يتعلق الأمر هنا بالنظرية الحجاجية))[1].

فالعلائق الحجاجية مفهوم عام وشامل ينسحب على مختلف العلائق شرطية واستلزامية وعلية وسببية واستنتاجية وتبريرية وتفسيرية إلخ.. ومن هنا كانت النتيجة في رأي الباحث محددة في كون التحليل الاستلزامي لا يمكن من تحليل أكبر عدد ممكن من الأمثال، بخلاف التحليل الحجاجي الذي يستوعب كل العلائق ويتعامل مع جل الأمثال. ومما ساعده على هذا، أن الأمثال تتضمن عادة مبادئ حجاجية عميقة، وهو ما يجعل الناس يعتمدونها في الخطاب والاستشهاد لغايات إقناعية استدلالية مختلفة، وتوظيفها بوصفها حججا وأدلة

---

(1) نفسه، ص 80.

تدعم نتائج مقصودة.

ومما يحسب للباحث هنا، كونه لا يبتعد عن حقله المخصوص. نقصد البقاء في حدود المادة المدروسة، يتعلق الأمر بالأمثال الشعبية حصرا، دون استطراد إلى التنظيرات والتفاصيل المفاهيمية المتشعبة والمعقدة، إلا في الحدود المطلوبة. بل إنه يحصر حديثه في قضايا مباشرة تمس مفتاحي الإشكالية: الأمثال / الحجاج. وبهذا يركز على أسئلة عينها فيما يخص الطرف الأول من الإشكالية، من مثل: كيف يشتغل المثل؟. وكيف يتم توظيفه في الحوار والخطاب؟.

وعندما ينبري الباحث للجواب، يعمد إلى استقصاء مختلف تقنيات توظيف المثل، من اعتماد الروابط والأدوات، واستعمال العبارات المستنسخة، والمجاورة، منتهيا إلى الربط بين اللغوي والسلوكي والحجج والنتائج، مما يضمن الربط بين الحجة والدليل والنتيجة.. ولا يفوته في هذا الصدد أن يشير إلى أن الأمثال ليست جميعها مبادئ حجاجية.

ولعل من أعمق ما يخوض فيه الباحث د. أحمد العزاوي بالنسبة لهذا الموضوع الشائك بحق، يتعلق ببحث البنية الداخلية للمثل، متسلحا بالتحليل الحجاجي، ومتوقفا من خلال التعامل مع بعض النصوص المثلية، عند مختلف العلائق الحجاجية الواردة في الأمثال الشعبية، ومستقصيا تجلياتها كالتالي:

1- علاقة استنتاجية احتمالية.
2- علاقة علية سببية شرطية أو استلزامية، إثباتية أو تبريرية أو تفسيرية.
3- علاقة شرطية استلزامية.
4- علاقة إثباتية

وينتهي الباحث كأي باحث أكاديمي عارف بموضوعه وأدواته وهدفه، إلى لملمة العناصر الرئيسية في بحثه من أجل بلورة نتيجة / نتائج البحث الجوهرية، ملخصا إياها في نقط محددة، على الصورة الموالية:

أ- توضيح المظاهر الحجاجية للمثل الشعبي، من خلال تحليل البنية الدلالية المنطقية، وإبراز سبل اشتغاله في الخطاب.

ب- الوعي بنوعية القضايا والإشكالات التي يثيرها موضوع الأمثال الشعبية.

ج- التمكن من اكتشاف ما في الأمثال الشعبية من تنوع في البنى وتعدد الوظائف.

وواضح أن كل ذلك الجهد يصب في محاولة إثبات نجاعة التحليل الحجاجي من جهة، وتوضيح الطبيعة الحجاجية للخطاب الطبيعي، وللغاية البشرية برمتها، من جهة ثانية. وبذلك يمكن تأطير فصل (الخطاب المثلي: من المنطق إلى الحجاج) بكتاب (الخطاب والحجاج) للأستاذ الدكتور أحمد العزاوي، ضمن ما يمكن نعته بكونه برمته هو محاولة تبريرية حجاجية لاعتماد التحليل الحجاجي للأمثال الشعبية.

والحقيقة أن كلا من طبيعة الموضوع، والصفة الأكاديمية للأستاذ الباحث، قد استدعتا أن يتميز هذا البحث بكثير من ممارسات الباحث الرصين. إذ فضلا عن الميل التبريري المدعوم بالحجج المنطقية المقنعة، بدا الباحث متسلحا بنزعة نقدية واضحة، إلى جانب القدرة على التعامل مع المفاهيم والمصطلحات والتدقيق فيها بكثير من الحرص والتركيز. ولعل ما ساعد على إبراز هذه الصفة العلمية، أن الباحث عالم بحقل بحثه حق العلم، وليس متطفلا عليه، لغايات جانبية تافهة مثل النجمية الموهومة والحذلقة المدعية الخاوية، والشللية المغرضة. وما يؤكد هذه الرصانة لديه، توجهه الملح نحو الاستقصاء والاستدلال ليصل إلى مرحلة الاستنتاج الضرورية، متوسلا في كل ذلك بآليات التحليل الحجاجي، ومستعينا أحيانا بالشواهد بما فيها الشاهد الشعري، ما دام الأمر يتعلق بحقل أدبي تخصيصا.

وفي السياق ذاته، لا يمكن أن ننسى في هذه العجالة المفروضة بسبب طبيعة المناسبة، أن ننهي هذه الكلمة، بالإشارة إلى أن من أهم ما يتوج صفة الباحث الحقيقي في شخصية الدكتور أبو بكر العزاوي، هو هذا التواضع الجم إن في ممارساته العلمية وإن في طبيعة شخصيته.

ومع كل الجهود المبذولة في المغرب على الأقل، من أجل تأسيس حركة علمية أكاديمية وغير أكاديمية، تتخذ الأدب الشعبي بكل أجناسه وأنواعه موضوعا للدرس والبحث

الجادين، فإن السبيل لتحقيق هذه الغاية العلمية الرفيعة كما يبدو لا يزال طويلا، وفي حاجة لمزيد من الجهد والتراكم. لكن يجب ألا ننظر إلى المسألة نظرة سلبية مثبطة للهمم، ففي الأفق تبدو كثير من البشائر التي تشير إلى أن كثيرا من شباب الباحثين في مختلف جامعاتنا، قد أخذوا يولون هذا الموضوع اهتماما خاصا، ويقبلون عليه بشكل ملحوظ..

مفهوم الخطاب من منظور حجاجي

د. محمد مشبال

يروم هذا المقال القصير مناقشة بعض الأفكار الواردة في كتاب صغير ومهم لأحد رواد نظرية الحجاج في العالم العربي وهو أبو بكر العزاوي؛ وحواري ينطلق من انشغالي بدور البلاغة ونظريات الحجاج بشكل عام في تحليل الخطابات؛ فإلى أي مدى كان العزاوي في كتابه" الحجاج في الخطاب"يستجيب لهذا الانشغال؟

عن الخطاب يرى أبو بكر العزاوي أن الخطاب بنية منطقية طبيعية تتحكم فيها مجموعة من العلاقات المنطقية (علاقات الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض). كما يرى أنه ليس بنية داخلية فقط ولكنه بنية خارجية أيضا، إذ يمكن الحديث عن" وظيفة حجاجية عامة للخطاب برمته، من خلال ربطه بالمتكلم والمخاطب وملابسات وظروف السياق التخاطبي والاجتماعي العام"(17). ويقول في موضع آخر عن الحجاج في المستوى الخارجي إنه يوجد في: "المقصدية ومقتضيات الحال والشروط التواصلية والتفاعلية والمقام التخاطبي العام" (59).

ينطلق الباحث في بناء تصوره من اللسانيات الحجاجية أو من نظرية: "الحجاج في اللغة"؛ أي من الحجاج اللغوي وليس البلاغي." فالحجاج هنا ظاهرة لغوية نجدها في كل قول وفي كل خطاب، سواء أكان الخطاب فلسفيا أم أدبيا أم دينيا أم اقتصاديا أم سياسيا... الحجاج بالنسبة [إلى منظور الباحث] نجده في الأسماء والأفعال والصفات والظروف والحروف، ونجده في التراكيب النحوية والصور البلاغية. نجده باختصار في كل ظواهر اللغة بشكل أو بآخر" (35-36).

ويرى العزاوي أن التقنيات الحجاجية البلاغية محدودة بالمقارنة" مع الإمكانات والوسائل الغنية والهائلة واللامتناهية التي تمدنا بها اللغات الطبيعية" (60).

عن التحليل الحجاجي للخطاب استراتيجية التحليل الحجاجي للخطاب عند

العزاوي

1- يقتصر التحليل الحجاجي عند العزاوي على إبراز الجوانب الاستدلالية للنص (15) (بصرف النظر عن شخصية وثقافة أطراف التواصل.

2- يعني التحليل الحجاجي للخطاب اكتشاف منطق الخطاب؛ أي" القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال والجمل وتتابعها بشكل متنام وتدريجي. فالحجاج، حسب هذا التصور، يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب" (11).

3- موضوع التحليل الحجاجي دراسة الانسجام الحجاجي والتداولي في الخطاب. وقد درس الانسجام من خلال الآليات الآتية:

4- الروابط الحجاجية سواء أكانت صريحة أم مضمرة (42-43).

5- التعارض الحجاجي(45).

6- العوامل الحجاجية (55).

7- تقوم استراتيجية التحليل الحجاجي للخطاب عند العزاوي على رغبة" في تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها، بعد أن كان محصورا في الروابط والأدوات الحجاجية"(33). فعلى الرغم من إعلان العزاوي انطلاقه في تحليل أنواع الخطاب من النظرية الحجاجية اللغوية، إلا أن عكوفه على النصوص –لحسن الحظ- قاده للخروج من دائرة نظرية الحجاج اللغوي إلى الحجاج البلاغي (وإن كان ذلك في نطاق محدود)، ولكن المهم في هذا التحليل المقترح هو أنه ليس مدرسيا، أي لم يحول الخطابات إلى مجرد شواهد على النظرية التي يروم توضيحها.

8- تقوم استراتيجية التحليل الحجاجي للخطاب عند الباحث على الانطلاق من معيارية السياق النصي؛ فهو يرى أن" مظاهر الحجاج وطبيعته تختلف من سورة لأخرى"في النص القرآني الكريم. فهناك سور مكية وسور مدنية. وبناء على ذلك، فالحجاج يختلف من نص إلى نص. ومع ذلك لا يحدثنا الباحث عن معيارية النوع على الرغم من انخراطه في تحليل الحجاج في أنواع مختلفة من الخطابات. لا نعرف ما الفرق بين

طبيعة الحجاج في النص القرآني والنص الشعري والنص المثلي وغير ذلك؟!

عن آليات التحليل الحجاجي

1- النتيجة العامة/ الهدف الحجاجي المقصود: -التحليل الحجاجي للخطاب عند العزاوي يقوم على تحديد الأطروحة أو الرسالة أو الغرض البلاغي الذي يعبر عنه بمصطلح "النتيجة"، وهو ما يفسر التزامه بالتحليل الحجاجي اللساني، ثم يعمد بعد ذلك إلى الكشف عن الحجج التي تخدم هذه النتيجة. وهذا ما قام به في تحليله لسورة" الأعلى"، كاشفا عن جملة من العلاقات الحجاجية التي تؤكد النتيجة الأساس أو الغرض البلاغي (أي إقناع المخاطب ودفعه إلى العمل بالتسبيح)؛

2- حجاجية النص: آلية السؤال في التأويل الحجاجي للنص. يكشف المحلل أن حجاجية السورة القرآنية خضعت لمجموعة من العلاقات الحجاجية (تعليل وتفسير واستنتاج وشرط وتبرير واستدلال...)، على نحو ما كشف أن النص هو إجابة عن أسئلة مضمرة يتولى المحلل إظهارها لتأويل النص وخلق انسجامه. هكذا فإن التحليل لا يقتصر على الروابط الحجاجية، ولكنه يشمل الكشف عن نسق الأسئلة المضمرة في النص؛ لأن النص من المنظور الحجاجي هو ملفوظ ينشأ في سياق تواصلي تفاعلي حواري:

"بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى [السؤال المضمر: لماذا نسبحه؟] الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى... [السؤال المضمر: كيف نسبحه؟] سنقرئك فلا تنسى..."

يقول فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه السورة مستخدما آلية السؤال: "أما قوله تعالى: الذي خلق فسوَّى... فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح فكأن سائلا قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال: "الذي خلق فسوَّى..."واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام". (نقلا عن العزاوي 24-25).

ومع أن الرازي كشف عن حجاجية النص عندما وقف على السؤال المضمر، إلا أنه لم يحصر تحليله في إيجاد الروابط وتأويل الانسجام، بل عمد إلى تحديد الحجة خارج المجال اللغوي (أي الحجاج المعتمد على الوقائع) (25).

3- استخدم المحلل مفهوم الاختيار في تأويل حجاجية الأشكال اللغوية؛ يقول: "وليكون الحجاج أقوى، والمشهد أكثر تأثيرا، والهول أبلغ في النفوس، فإن الشاعر كان يختار بعناية كلماته ومفرداته" (46). وعلى الرغم من إشارته إلى هذا المبدإ التحليلي الحجاجي، إلا أنه لم يستثمره في تناوله للأشكال اللغوية داخل النصوص. أو كان استثماره له يفتقد في أحيان كثيرة للكفاية التفسيرية. مثال ذلك تحليله للكناية الآتية (والباحث يصفها بالاستعارة انطلاقا من مبدإ الاستبدال والانتقال من المجرد إلى الحسي:

"أود أن أرفع رأسي عاليا"

وفي إجابته عن سؤال: لماذا كان التعبير المجازي أقوى حجاجيا من التعبير العادي أو الحقيقي؟ يقر الباحث أن التعبير المجازي يقدم دليلا ماديا محسوسا على معاناته، وهو تفسير صحيح ولكنه ناقص لأنه لا يشير إلى دور المتلقي في تأويل المجاز وتقوية حجاجيته. (ص:47). وفي تحليله لتقنية التكرار درس علاقتها بانسجام النص ولم يحلل وظيفتها الحجاجية: فتكرار"خشيت"و" الرقيب"لا يخلو من بُعد حجاجي ينبغي الكشف عنه. وما قلناه عن التكرار نقوله عن تقنية الحوار التي لم ينجح التحليل في إبراز حجاجيته إلا عندما خاض في فقرة مستقلة في تحليل حجاجية الأفعال اللغوية.

4- استخدم المحلل مفهوم المستوى الخارجي للحجاج وهو يقصد به عمليا ما قرره في قوله: "يشكل النص في كليته حجة، ويقدمه الشاعر باعتباره دليلا يخدم النتيجة التي يقصدها ويسعى إليها، وهي نتيجة قد تكون من نمط "يجب نبذ الظلم والاستبداد". فالنص في هذا المستوى، يشكل أحد أطراف العلاقة الحجاجية، في حين تشكل النتيجة المقصودة الطرف الآخر". (58) ما يقوله الباحث هنا يدعونا إلى التعامل مع النص بوصفه ينطوي على مقصدية، وأنه جزء من سياق تواصلي يمكن تحديده، كما أنه

يندرج في عالم من المعاني المشتركة. باختصار، ما يقوله الباحث هنا يجعل مقاربته ذات طبيعة بلاغية يتنكَّر لها نظريا عندما يعلن تقيده بالحجاج من منظور لساني.

5- يميز الباحث بين المثل بوصفه مبدأ حجاجيا والمثل بوصفه حجة جاهزة يدرجها ضمن حجج السلطة؛ أي هناك أمثال تعد مبادئ حجاجية وأمثال تعد حججا جاهزة. في حقيقة الأمر لم أتبيَّن هذا الفرق، وفي تقديري أن الأمر يؤول في النهاية إلى المنظور الذي يصدر عنه المحلل؛ إذ يمكنه أن يرى الأمثال مبادئ حجاجية أو حججا؛ أي له أن يصنفها في المواضع المشتركة والآراء العامة والمسلمات وكل ما يشكل جزءا من الاتفاق المسبق بين المتكلم والمتلقي، وله أيضا أن يصنفها ضمن التقنيات الحجاجية سواء ضمن حجج السلطة أو صنف آخر. فالأمر موكول -كما أشرت- إلى منظور المحلل و إلى معايير التصنيف. أما الأمثال في ذاتها فهي قابلة لأن تندرج في هذا الصنف أو ذاك.

الروابط الحجاجية والطاقات الاستدلالية

قراءة في "كتاب اللغة والحجاج" للدكتور: أبو بكر العزاوي

د. أحمد كروم

جامعة ابن زهر – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير

ينطلق هذا البحث من فكرة محورية في كتاب" اللغة والحجاج" للباحث الحجاجي أبو بكر العزاوي حينما ربط الوظيفة الحجاجية للغة بحضور الروابط والعوامل الحجاجية في التسلسلات الخطابية المحددة بواسطة بنية الأقوال اللغوية، وبواسطة العناصر والمواد التي تم تشغيلها[1].

وهي إشارة نظرية مهمة إلى أن الروابط الحجاجية لها دور كبير في بناء تسلسلات الخطاب وفي الاستنتاج المعرفي؛ وأن بناء هذه التسلسلات هو ضرب مما يمكن أن نطلق عليه بـ"الطاقات الاستدلالية"للنص.

ولا يخفى بأن الفهم الحجاجي يتوقف على اكتشاف الطاقات الاستدلالية والتداولية الكامنة في لغة النص؛ سواء في مستواها الإبداعي، أوفي نسق نصوصها المنتجة، أوفي ترابط أقوالها. ولايستند هذا الترابط أو التسلسل إلى قواعد الاستدلال المنطقي فقط، وإنما يتوقف على الرّبط الحجاجي المسجل في تراكيب اللغة، بوصفه نسقا من العلاقات التي توجه القول، وتفرض على كلامه ربطا معينا.

ومن هذا المنطلق، يمثل البحث في الروابط الحجاجية في علاقتها بالطاقات الاستدلالية في الكلام مكوناً أساسيًا لا ينفصل عن النسق العام لمفهوم الحجاج؛ بحيث يجعل المتكلم، في اللحظة التي يتكلم فيها، يوجه قوله وجهة حجاجية ما، وهو ما يسوغ البحث عن

(1) يرجع إلى أبو بكر العزاويك اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، 2006، ص26.

البنى اللغوية للأقوال لمعرفة طاقاتها الحجاجية الملائمة لكل سياق ومقام على حدة[1].

ولايمكن اكتشاف الطاقات الاستدلالية في التسلسل اللغوي إلا بمعرفة الآليات الحجاجية للروابط ودورها في استعمالات اللغة، باعتبارها عوامل موجهة لمقاصدها؛ خصوصا وأن "إمكانيات استعمال الرابط وضعت وكأنها مزيج من متغيرات مختلفة، فالروابط النحوية مثلا، تمتزج بالطبيعة الدلالية للمسميات المرتبطة بها، وبطبيعة شروط صدقها، وطبيعة تسلسلها الزمني، وكذا قوة الربط المحمولة بواسطة الرابط"[2].

1. الروابط الحجاجية والتسلسل اللغوي

ظهر التنظير في موضوع الروابط في اللغات الطبيعية انطلاقا من دورها في فهم الأبعاد الدلالية للتسلسل اللغوي، ثم من دورها باعتبارها قرائن في ترجيح المعاني وفهمها. فكان وجودها في التسلسل اللغوي وجودا وظيفيا يتمثل في تقسيم أطراف الكلام بين مقول منطوق، ومقتضى مسكوت عنه. كما تميز وجودها في الكلام، بإسهام منطقي في ترتيب الأغراض التي تقتضيها الجمل بحسب ما يقتضيه منطق القضايا.

وبذلك انطلقت الدراسة في موضوع الروابط في جانبها التداولي والحجاجي من مبدأ التسلسل في أغراض اللغة؛ فظهرت أعمال نظرية مفصلة عند أستين (AUSTIN)، وسورل (SEARLE) وغيرهما، ثم طورت معطياتها النظرية في أعمال لاحقة منها:

- الروابط التداولية لفان ديك77 (Van DIJK).
- الروابط الاستدلالية الحجاجية لديكرو80 (O.DUCROT.)
- عوامل حجاجية لديكرو83 (DUCROT).
- الروابط الوصفية لبلاك مور.(87) BLAKEMORE
- علامات الربط للوشير94 (LUSCHER).

---

(1) يرجع إلى محمد سالم الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008، ص192.

(2) Corinne Rossari, Cahiers de Linguistique Française 14, Lexique et pragmatique Université de Genève. 1993, (Introduction)

- عوامل وروابط منطقية وغير منطقية لموشلير (MOESCHLER .(94

وبعد ذلك وسع مجال الروابط الحجاجية في أعمال ديكرو من خلال الاهتمام ب(كلمات الخطاب)؛ حيث يرى هذا الأخير أن الروابط لا تنحصر في وظيفة أحادية فقط وهي الأغراض اللغوية، ولكنها أيضا تؤدي أغراضا استدلالية حجاجية إضافة إلى وظيفتها الرابطة في التسلسل اللغوي. فكان موضوع الروابط هو الذي دفع ديكرو وأسكومبر إلى رفض نموذج شارل موريس والدفاع عن فرضية التداوليات المندمجة (La pragmatique intégrée). لذلك اقترح ديكرو وصفا حجاجيا جديدا لهذه الروابط والأدوات باعتباره بديلا للوصف التقليدي[1].

وإذا كان هذا الأخير يصف الأداة بأنها تشير إلى أن" ب"يستلزم" أ"فقط، ويصف بأنها تشير إلى التعارض القائم بين القضايا التي تربط بينها، فإن الوصف الحجاجي لهذين الرابطين يعتمد كذلك على وصف التسلسل اللغوي الكامن في الاستلزام المندمج بواسطة الروابط الموجودة في الخطاب؛ ويمكن وصف هذا التسلسل المندمج في الخطاب مثلا كالآتي:عندما يسلم المخاطب بـ" ب"، وبالإحالة على استلزام" ب"لـ" أ"، فإن عليه أن يقبل" أ"، وبالنسبة إلى لكن" Mais" تميل إلى أن تستنتج من" أ" نتيجة ما، لاينبغي القيام بذلك، لأن "ب"، وهي صحيحة مثل "أ"، فتقترح النتيجة المضادة". أما بالنسبة إلى "حتى" Mêmeفليس دورها منحصرا في أن تضيف إلى المعلومة (جاء زيد) في القول (حتى زيد جاء) معلومة أخرى (مجيء زيد غير متوقع)، بل إن دور هذا الرابط يتمثل في إدراج حجة جديدة، أقوى من الحجة المذكورة قبله، والحجتان تخدمان نتيجة واحدة، لكن بدرجات متفاوتة من حيث القوة الحجاجية[2].

يمكن أن نشير في هذا المجال، إلى أن التسلسل اللغوي بواسطة الربط يتميز بتميز نوعية العلاقة التي يقيمها داخل الجمل؛ حيث يوجد في اللغة ثلاثة أنواع من الربط وهي : الربط النحوي التركيبي (grammatical linking)، والربط الدلالي (Sementic

(1) يرجع إلى اللغة والحجاج، ص26.

(2) اللغة والحجاج ص26-27.

linking)، والـربط التـداولي (Pragmatic linking)، فـالربط النحـوي يـتم فيـه ربـط موضـوعات مثـل الفاعـل والمفعـول إلى محمولاتهـا، وتـسمى في النحـو العلائقـي بالحـدود (Termes) ويدخل في مجال هذه الروابط النحويـة الإعـراب المعمـول فيـه، والتطـابق بـين المحمول والموضوع وكذلك الرتبة المحفوظة في البنية الشجرية في التحليـل اللساني. أمـا الـربط الدلالي: فهو الذي يتم فيه عادة ربط الموضوعات إلى الفعل بواسطة الحرف بموجـب دلالتـه الخاصة[1].

أما الربط التداولي: فيركز على العلاقة التي تربط الكل الدلالي التركيبي مـن جهـة، ومتداول اللغة من جهة ثانية. وهنا يظهر التميـز بين إطلاق الروابط الحجاجيـة الـتي تـؤدي دورا منطقيا في الجمل، والحروف التركيبية الرابطة نحويا بينها. فالحروف التي تـسمى بحـروف المباني لاتحمل أبعادا منطقية ولاترتبط وظائفها بأدوار دلالية. كما أن حروف العطف لا تمثل جميعها روابط حجاجية، وكذلك بالنسبة لأدوات الشرط وغيرها. بل الروابط الحجاجية هي التي تتضـمن قضايا ومعـاني كالإضـراب والاسـتدراك والتخـيير.. وتـؤثر بأدوارهـا في بنيـة الكلام. لذلك نجد تأثيرها واضحا في بنية الاقتضاء المبنية على أطـراف تحتـاج إلى الاسـتعانة بتدقيق النظر في فهم الرابط وضبط آلياته المستعملة في إنجاز الخطاب كتابة ونطقا.

أما في الجانـب المنطقـي؛ فموضـوع التـسلـسل اللغـوي عـن طريـق الـروابط يتميـز بمواضيع قضوية معينة حسب خصائص ونوعية الرابط المـستعمل،الـشيء الـذي يجعـل هـذا الموضوع يتصل بما يسمى بـ"نظرية منطق القضايا"[2]. وفي هذا الجانب؛ نجـد الـتراث المنطقـي العربي قد اهتم بموضوعها مفصلا الكلام في علاقتها بالمواضيع المتصلة بمادتهـا. وقـد أشـار الفارابي إلى الوظائف المنطقية التي تخص الروابط وذكر من أمثلتها: "إما" و"لما" و"إذا"، وغيرها، ثم أحصى منها أصنافا حسب طبيعة الوضع والوظيفة. ومنها: الحرف الذي يقرن بألفاظ كـثيرة فيدل على أن معاني تلك الألفاظ قد حكم على كل واحد منها بشيء يخصه، ومنها ما يقرن بالشيء الذي لم يوثق بوجوده، فيدل على أن شيئا ما تاليا لـه يلزمـه، ومنهـا مـا يقـرن أبـدا

(1) المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، للفاسي الفهري، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1982ص.48 .

(2) دروس في المنطق الاستدلالي الرمزي، لمحمد مرسلي دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص.17 .

بالشيء الذي قد وثق بوجوده أو بصحته فيدل على أن تالي ما لازم له، ومنها الحرف الذي يقرن بألفاظ فيدل على أن كل واحد منها قد تضمن مباعدة الآخر)، ومنها ما إذا قرن بالشيء دل على أنه خارج عن حكم سابق في شيء قدم في القول، فظن أنه يلحق هذا الثاني، ومنها، ما إذا قرن بالشيء دل على أنه غاية لشيء سبقه، ومنها ما إذا قرن بالشيء دل على أنه سبب لشيء سبقه في اللفظ أو لشيء يتلوه، ومنها ما إذا قرن بالشيء دل على أن ذلك الشيء لازم عن شيء آخر موثوق به قد سبقه[1].

فيكون موضوع الروابط حسب ما قدمه الفارابي له علاقة بالتسلسل اللغوي عن طريق التلازم، والسببية، والاقتران، وكلها إطلاقات تسعى في مضمونها إلى الربط بين طرفين أحدهما يقتضي الآخر ويستوجب من اقتضائهما حكما خاصا؛ كالتراخي، أو التباعد، أوالغاية، أوالتقديم، وغيرها من المواضيع القائمة على إشكالات عدة في تحديد أو جه الاستعمال في اللغة.

وفي التركيز على دور الطاقات الاستدلالية في التسلسل اللغوي أشار كتاب" اللغة والحجاج"إلى التميز بين صنفين من المؤشرات الحجاجية: وهي الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية؛ فالروابط تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر)، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات الآتية: بل، لكن، حتى، لا سيما، إذن، لأن، بما أن، إذ....

أما العوامل الحجاجية فهي لاتربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما...إلا، وجل أدوات القصر[2].

وبذلك يظهر بأن دور الروابط الحجاجية في بناء طاقات الاستدلال؛ يتحقق من كونها علامات ضرورية لإعادة الصياغة في الكلام ضمن النواظم التركيبية المعجمية، التي

(1) ينظر نفسه، ص.56-44 .

(2) أبوبكر العزاوي: اللغة والحجاج ص27.

تنبني عليها طاقات النص ويعوّل عليها باعتبارها متغيرات في تحديد المعنى والزمان والمكان داخل السياق.

2. الروابط الحجاجية و الطاقات الاستدلالية

عالج الفكر اللغوي العربي القديم، وكذا الفكر اللساني الحديث موضوع الروابط الحجاجية وطاقاتها الاستدلالية المستعملة في الخطاب أو النص، وذلك بالاعتماد على مواضع المادة الاستدلالية التي يقع فيها معنى الرابط. سيما لأن الطاقات الاستدلالية تتعلق بدرجات الإقناع التي تأتي من الحجة، أو البينة، أو البرهان الذي يحمله الشاهد. وقد تعامل اللغويون والأصوليون مع الطاقات الاستدلالية لمعنى الحرف أو الرابط بناء على كونها توصل إلى الفهم الصحيح والتمييز الدقيق الذي يفهم منه المعنى المقصود في الخطاب، مع ربطهم في ذلك لظروف الخطاب بين المستعمل للدليل والطالب له والمجادل في حجته.

يقول الشيرازي في كتابه (شرح اللمع) عن حروف المعاني:'أعلم أن الكلام في هذا الباب كلام في باب من أبواب النحو غير أنه يكثر احتياج الفقهاء إليه، فإن الفقيه لايستغني عن طرف صالح من النحو يعرف به مقاصد كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم'[1].

فالأصولي في إدراكه لأهمية معاني الحروف، ينطلق من حرصه على فهم النص الشرعي والسعي إلى إتقان الآلة الاستدلالية وتحصيل طاقاتها التي ترسم منهجا لاستنباط الأحكام، ويدخل في هذا الإتقان معرفته للأغراض اللغوية التي تستفاد من النص، ثم معرفته مراد الشارع.

وقد اخترنا لبيان الأنموذج الأول المتصل بالفكر اللغوي العربي، ما عالجه |الزمخشري من مقابلات استدلالية في مواضع وردت فيها الروابط باعتبارها قرائن عملية لإنجاح الحجاج.

---

(1) شرح اللمع، 2/ 535.

وقد اعتمد الزمخشري في وصفه لهذه المقابلات الاستدلالية على استقرائه" لبنية المعنى"في تحديده لمعاني الحروف العربية وضبط معانيها الخاصة والنوعية؛ وهذا النوع من الاستقراء لايبتعد عن الأنموذج الثاني في الفكر اللساني الحديث الذي وصفه موشلير MOESCHLER بالقيمة الدلالية لبنية الرابط (Valeur Sémantique de base) [(1)] حيث إن البنية الدلالية لمعنى الحرف لايسهل ضبطها وتخريجها، بل تحتاج إلى دراسة تعتمد الشاهد باعتباره طاقة استدلالية أساس في تعقب الظواهر المعنوية للحرف ومقابلتها بما شاركها في الحقل المعنوي لاستخلاص الإطلاق المعنوي المناسب تحقيقا لشروط الاستعمال.

وقد أشار مشلير لهذه الظاهرة بقوله:" إن شروط الاستعمال بالنسبة للروابط هي شروط تقنع في إطلاقها على عملية الربط، وأن شروط التأويل تحدد المرجعيات المستلزمة من الرابط المدروس"[(2)]، ولذلك، فإنه يصف مبدئيا البنية الدلالية للروابط في اللغات الطبيعية بأنها ملتبسة[(3)] (Ambiguës)تحتاج إلى تخصيص في مستوياتها الاستدلالية.

فعندما نتأمل المثالين اللذين حللهما لتحصيل معنى الرابط؛ (أو) (ou)، نجده اعتمد في تحليله على الطاقات الاستدلالية للشاهد ثم دراسة وضعه البنيوي في التسلسل اللغوي. فمثلا في الجملتين:

أ- في هذا المساء سأذهب إلى المنتزه أو سأتجول أو هما معا.

ب- في مصعد ثلاثة أفراد أو مائتين وأربعين كيلو غراما.

حاول مشلير من خلال المثالين (أ -ب) أن يدرس أطراف الجمل المربوطة ب(أو) ليصل في النهاية إلى أن قيمة هذا الرابط في اللغات الطبيعية لها دور إخراجي أو إلغائي لأحد أطراف الكلام المخير. وليس الغرض منها هو التساوي بإدخال الطرفين معا في الكلام، وهو ما يوقع اللبس عادة عند السامع لمعنى الرابط حيث يتوهم دخول أحدهما وخروج الآخر

(1) MOESCHLER & A. REBOULE, *Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique*, p 185.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

أوتساويهما معا. وهذا التعبير الذي توحي به القيمة الاستدلالية للرابط يلتقي بما ذهب إليه الزمخشري في وصفه لمعنى التخيير بـ (أو)، ولهذا يقول: "(أو) في أصلها لتساوي شيئين فصاعدا في الشك ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك"[1].

وقد حاول ابن هشام في مغني اللبيب أن يستثمر هذا الموضوع ليجعل دلالة بنية الرابط في معنى الحرف من الأمور الملتبسة التي اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها، كقولهم: (بل) حرف إضراب، قال: "والصواب حرف استدراك وإضراب فإنها بعد النفي والنهي بمنزلة لكن سواء"[2].

كما أشار الزمخشري أيضا إلى خفاء الدلالة في بنية الربط بمعنى الحرف؛ كما في قوله في معنى الحرف (بل) "هي للإضراب عن الأول منفيا، أو موجبا كقولك: "جاءني زيد بل عمرو، وما جاءني بكر بل خالد"[3]. لقد ضبط الزمخشري الطاقات الاستدلالية لمعنى الحرف، مقارنة مع ما أشار إليه مشلير[4] عن طريق" شروط الاستعمال" عند دراسة هذا الأخير لمعنى الحرف (لكن):

أ- يمطرالجو لكن سأخرج

Il pleut, mais je sors.

ب- يمطرالجو لكن أحتاج إلى التزود من الهواء.

Il pleut, mais j'ai envie de prendre l'air.

ففي هاتين الجملتين يحدد مشلير الطاقات الاستدلالية في الرابط الحجاجي" لكن"عن طريق شروط الاستعمال التي تتميز بالانفصال المنطقي الذي يقع بالنفي أو الإيجاب قبل الرابط وبعده، وهو الذي أشار إليه الزمخشري ب(الإضراب عن الأول منفيا أوموجبا)؛ فجاء هذا الانفصال كالآتي:

---

(1) الكشاف: 1/ 213.

(2) مغني اللبيب: 2/ 653.

(3) المفصل ص.303 .

(4) *Modélisation du dialogue, Représentation de l'inférence Argumentative*, p 94

1- يمطر /النفي / سأخرج

2- يمطر /النفي / أحتاج إلى التزود من الهواء (سأخرج)

فالمثال الأول يعتبر استعمالا مباشرا، والثاني يعتبر استعمالا غير مباشر. فكان فهم دلالة المعنى للرابط عند الزمخشري كما عند موشلير انطلاقا من ربط المنفذ بالهدف في تسلسل الكلام.

الرابط Connecteur

الهدف	المنفذ
Cible	Déclencheur

فضبط العلاقة بين المنفذ والهدف من العلاقات المنطقية التي تحدد طبيعة الطاقات الاستدلالية في استعمال معاني الحروف؛ حيث ربط معنى الحرف بالنتيجة التي يصل إليها مقصد الخطاب، وفي ربط الخطاب بنتيجته نحصل على المعاني المصطلحية للروابط أو معاني الحروف المستعملة لتلك الغاية. وقد حاول الزمخشري أن يرصد هذا الدور من خلال تحليل الطاقات الاستدلالية لمعاني الحروف متنقلا من الخفاء إلى المقصد الحجاجي الواضح كما في الأمثلة الآتية:

المثال(1):

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾[1]

يقول محددا البعد المعنوي لابتداء الغاية: "وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من قبل خفي، أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي (ينظرون من قبل خفي) أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة؛ كما ترى المصبور ينظر إلى السيف"[2].

(1) سورة الشورى: الآية5

(2) الكشاف 3/ 474.

(من) لابتداء الغاية

المرحلة الأولى للنظر . ...النظر

-التحريك الخفيف للأجفان

-المسارقة

المثال (2):

قول الداعي للمعرس: (بالرفاء والبنين)

يقول معلقا على معنى الرابط: معناه أعرست ملتبسا بالرفاء والبنين"[1]، فهو يعني الالتباس في المصاحبة والمعية، قوله عن هذا الاصطلاح: "وهذا الوجه أعرب وأحسن"[2] .كما أعطى لهذا الاصطلاح قصد تدقيقه أبعادا منها:

وقوعه موقع الحال: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[3]

يقول: (بحمدك) في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك"[4].

وقول الشاعر: تدوس بنا الجماجم والثريا :أي" تدوس ونحن راكبوها"[5].

وقوعه موافقا للصفة بعده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾[6] أي تلاوة ملتبسة بالحق والصحة، أو اتله نبأ متلبسا بالصدق موافقا لما في كتب الأولين، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد"[7]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾[8].

يقول الزمخشري أيضا معلقا على وضع معنى الحرف في إطار علاقته الرابطة "قوله:

---

(1) الكشاف.1/32

(2) الكشاف.1/32

(3) البقرة: الآية30

(4) الكشاف، 1/271

(5) الكشاف 1/ 280.

(6) المائدة: الآية.27

(7) الكشاف 1/ 280. وما بعدها.

(8) المائدة: الآية 61.

(بالكفر) و(به) حالان أي دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، وتقديره: متلبسين بالكفر[1].

(الباء) التلبس

(الأوصاف) ....الحسد

-موضح الحال

-التوافق في الصفة

-المصاحبة والمعية

وهذا يدل على أن نظرية الربط في تسلسل الكلام بين الظاهر والمضمر، وتعلقها بذهن السامع لها دور كبير في قصدية الكلام، وأنها تحتاج في توجيه أغراض الكلام إلى الوقوف على الطاقات الاستدلالية من أجل وصف المعاني وترجيحها.

3- الروابط الحجاجية بين التسلسل والاستنتاج

إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها[2].

حينما ننظر إلى معاني الحروف باعتبارها روابط حجاجية في اللغة العربية؛ نجد بأن أهميتها بارزة في التسلسل اللغوي (إيصال معانى الأفعال إلى الأسماء) ثم لها دور في استنتاج المعنى (الحرف + المعنى).

وقد حاول ابن فارس أن يشير إلى أهمية التسلسل والاستنتاج المتضمن في حروف المعاني؛ فحددها في ثلاثة مستويات، تدور كلها في فلك الاستدلال، وتنطلق من المحدد إلى المطلق. وتتحدد بحسب رأيه في مستويات ثلاثة: المعنى والتفسير والتأويل.

---

(1) الكشاف.1/626

(2) أبوبكر العزاوي: اللغة والحجاج: ص16.

فهو يرى بأن الخطاب أو الكلام عبارة عن تآلف حروف وأصوات تؤدي إلى مستوى ثان، هو مستوى المعنى الذي تحصل وظيفته الرئيسة في الإفهام. لذلك عقد بابا خاصا في هذا الشأن سماه: "باب معاني الكلام" معتبرا أن هذه المعاني الاستدلالية هي عند أهل العلم عشرة: خبر واستخبار وأمر ونهي ودعاء وطلب وعرض وتحضيض وتمن وتعجب. وهي مواضيع ترتبط جميعها بالدلالات الاسمية والفعلية والحرفية"[1].

وإذا كانت حروف المعاني تؤدي وظيفة حجاجية في تسلسل الكلام؛ لكونها توصل المعاني بين طرفي الأفعال والأسماء، وتحمل دلالة خاصة للمعاني النحوية. فإن جميع روابطها جاءت عوضا عن جمل وتفيد معناها بأوجز لفظ:

- فحروف العطف جيء بها عوضاعن (أعطف).
- وحروف الاستفهام جيء بها عوضا عن (استفهم).
- وحروف النفي جيء بها عوضا عن (أجحد أو أنفي).
- وكذلك حروف الاستثناء جيء بها عوضا عن (أستثني).
- وحروف الجر جاءت لتنوب عن الأفعال التي بمعناها، فعوض أن أقول: " محمد أشبهه بالبدر"، أقول بواسطة حرف المعنى: " محمد كالبدر" وعوض أن أقول: " أكتب وأستعين القلم" أقول: " أكتب بالقلم". وهكذا في سائر الحروف.

كما أن هذه الروابط لها دور في الاستنتاج من خلال تغيير فائدة الكلام الذي يتصل بمواقع المعنى في سياق الكلام، كما تنبئ بتعلق بعض معاني الكلام ببعض. كما جاء في الأشباه والنظائر: "وقال الشلوبين: النحويون يقولون: إن حروف المعاني إنما هي مختصر الأفعال فهي نائبة مناب الأفعال تعطي من المعنى ما تعطيه الأفعال. إلا أن الأفعال اختصرت بالحروف، فإن الأفعال تقتضي أزمنة وأمكنة وأحداثا"[2].

فمواقع المعنى اللغوي لمعاني الحروف يختلف بحسب وجودها في تسلسل الكلام

---

(1) الصاحبي، ص. 180-198.

(2) الأشباه والنظائر للسيوطي، 1/ 396.

وهو ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ) بمصطلح (النظم)؛ بحيث نجد للرابط أكثر من معنى ويتحدد معناه المقصود من خلال احتماله في نظم الكلام. يقول: "اعلم أن هاهنا أصلا أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب، وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن بأن تضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف"[1].

فهو يؤكد بأن: "من شأن المعاني أن تختلف بها الصور"[2]. أي أن لكل صورة استنتاجا تركيبا يعطي معنى خاصا وكل تغيير في تسلسل الترتيب يؤدي إلى تغيير في المعنى، أي أن معاني الكلمات حسب رأيه تختلف باختلاف الصور، وقد سمى طه عبد الرحمن هذا المنظور بـ"الادعاء"[3]، موافقا ما ذهب إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز حين قال: "فقد تبين من غير وجه، أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشئ، لا نقل الاسم عن الشيء"[4] وقد حاول طه عبد الرحمن أن يستثمر مقتضيات هذا الادعاء في مبادئ منها:

- مبدأ ترجيح المطابقة: أي أن الاستعارة (للمعاني) ليست في المشابهة بقدر ما هي في المطابقة. أي تحقيق معنى الإعارة الكاملة حسب الجرجاني[5]، حتى يقع اسم المستعار منه (الذي أخذ منه المعنى)، على المسمى المستعار له (الذي وظف فيه المعنى) وقوعه على مسماه[6].
- مبدأ ترجيح المعنى: مقتضاه أن الاستعارة ليست في اللفظ بقدر ما هي في المعنى.
- مبدأ ترجيح النظم: مقتضاه أن الاستعارة ليست في الكلمة بقدر ماهي في التركيب، "ليس كلامنا فيما يفهم للفظتين من مفهومين، نحو قعد وجلس، ولكن فيما يفهم من

(1) نفسه، ص. 495.
(2) نفسه، ص.399.
(3) اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص. 304-306.
(4) دلائل الإعجاز، ص335.
(5) ينظر أسرار البلاغة، 350.
(6) ينظر نفسه، ص. 22.

مجموع كلام ومجموع كلام آخر"[1]. ففهمنا مثلا لمعنى حرف معين من حروف المعاني في السياق الوارد قد يصل إليه المستمع عن طريق الترجيح في المبادئ السابقة: إما عن طريق ترجيح المطابقة، أو ترجيح في المعنى، أو ترجيح النظم. ومقتضيات هذه المبادئ الثلاثة يتحقق بما أشار إليه الجرجاني[2] في المعطيات الآتية:

أ- المقتضى التطابقي: وهو مثلا، استعارتنا الحرف للدلالة على معنى معين يحتمل تخريجه على المعنى الظاهر فضلا عن احتماله الدلالة على المعنى المجازي.

ب- المقتضى المعنوي: يترتب على مبدأ ترجيح المعنى، أن التغيير الذي يحدثه الحرف في اللفظ لاتعلق له بتأليف حروفه، وصور مخارجها، وإنما تعلقه أساسا بالمعنى. أما اللفظ فمرتب على المعنى بوصفه وعاء له، "فمدار فهم الاستعارة ليس على المعنى المأخوذ مباشرة من اللفظ، وإنما على معنى ثان يتولد في النفس بطريق هذا المعنى المباشر من الأصل ويصل إليه المستمع إما بنزول قريب عن المعنى الظاهر أو بلزوم بعيد يقتضي وسائط دلالية أخرى تزيد وتنقص"[3].

ج- المقتضى النظمي: ينبني على مبدأ ترجيح النظم، أن الكلام وضمنه معاني الحروف متعلق بعضه ببعض ومرتب بعضه على بعض بوجه مخصوص. هذا التعلق لايستقيم إحكامه وضبطه إلا بأمرين[4]:

- مقتضيات العقل: فليس النظم مجرد توالي الألفاظ في عملية النطق وإنما هو تناسق دلالتها فيما بينها تناسقا يستوفي شرائط التعليل العقلي[5].
- قوانين النحو: فليس النحو هنا مجرد النظر في الصور الإعرابية للجملة لمعرفة سلامة تركيبها، بقدر ماهو الوصول إلى التفاضل في التعبير.

---

(1) دلائل الإعجاز، ص. 271.

(2) ينظر هذه الاستعمالات في: اللسان والميزان، ص. 305-306.

(3) دلائل الإعجاز، ص. 262-263.

(4) اللسان والميزان، ص. 306.

(5) دلائل الإعجاز، ص. 262.-263.

وهنا نصل إلى نقطة مهمة قد تستفاد من النظم، أشار إليها ضمنيا طه عبد الرحمن، وهي البنية الاستدلالية التي يمكن أن نستخلصها من نظرية النظم عند الجرجاني وذلك أن مقتضى المعنى يستند إليها، ثم الوقوف على مرتبة التداول التي تتوخى مقتضيات مقام الكلام، وهو النقل الذي وصل إليه الجرجاني من الدلالة المجردة[1].

وحينما نحاول استنتاج معاني الروابط فإننا نحاول الوقوف على طاقتها الاستدلالية، في ربطها بمستوى الاستنتاج في الخطاب، باعتباره يتضمن غالبا مقدمتين ونتيجة، وفي ربط النتيجة بمقدمتيها نجد حضورا للربط الحجاجي بواسطة هذه الحروف التي تحمل علاقات قضوية منطقية يمكن تمثيلها في معطى المتوالية الاستدلالية الآتية، مثلا:

1- إن كان العالم حادثا فله صانع

2- لكنه حادث

النتيجة:

3- إذن له صانع

فتسمى (1) و(2) بمجموعة المقدمات، وهي في المثال مكونة من قضيتين، وتسمى (3) بالنتيجة، ومجموع المتوالية المكونة من (1) و(2) و(3) تسمى استدلالا. والوحدات البسيطة التي تكون هذه المتوالية هي:

أ- العالم حادث.

ب- العالم له صانع.

ثم دخلت (ا) و(ب) في علاقات دلالية بواسطة الربط الاستدلالي الحاصل في معاني الحروف (إن ← ف...)،

(لكن... إذن...).

ويمكن اختزال المتوالية السابقة حسب الشكل الآتي:

1- إن (ا) ف (ب)

2- لكن (ب)

---

[1] ينظر تفصيل هذه القضايا في: اللسان والميزان، ص. 304-307.

النتيجة:

3- إذن (ب)

فمعاني هذه الحروف، تعمل على طي العلاقات الصورية القضوية الاستدلالية وذلك باعتبار طبيعتها في اللغة، حيث ترتبط مكونات جملها بعلاقات معنوية ودلالية، وذلك في أغراض لغوية كالشرط والنفي والعطف، وغيرها.

وقد أسهمت فكرة الربط وأهميتها الاستدلالية والحجاجية في إدخال فكرتي "الوصل والنفي" وعلاقتها بالصدق في الكلام كما هو الشأن عند فريجه FREGE (1880) الذي أعطى فكرة "المعنى المنطقي"[1] كل قوته التي مهدت لفكرة السلامة المنطقية في التسلسل اللغوي، وهي فكرة استثمرت لحساب البديهيات في الكلام. كما أسهم أنموذج رايشنباخ REICHENBACH القائم على الاحتمالات المنطقية حيث استبدال فكرة تتابع القضايا، أو تسلسلها بفكرة القضية. وقد أدى تحقيق هذا التعميم، إلى استبدال فكرة الاحتمال بفكرة الصدق التي تبناها المنطق التقليدي للوصول إلى نتائج منطقية في تسلسل القضايا.

خاتمة:

يستفاد من موضوع الروابط الحجاجية في علاقتها بطاقات الاستدلال أمور عديدة نذكر منها؛ دورها في التسلسل اللغوي الذي تبنى عليه التخريجات النحوية حيث تعين الروابط على توجيه النظر والاستدلال في ضبط نتيجة الإضمار الحاصل في مقتضى النص. وقد وردت شواهد كثيرة تتخذ هذا الأسلوب في إفادة الأحكام الشرعية، ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): "لانكاح إلا بولي وشاهدي عدل"[2]، وقوله: "إنما الأعمال بالنيات"[3].

فهذا الأسلوب اللغوي الواضح بعبارته من هذه الأحاديث لن يستقيم معناه إذا أخذ على ظاهره، لأن النفي منصب على ذات الفعل، وتصحيحه يقتضي إضافة معنى زائد

(1) ا. بيسون، وأوكونر: مقدمة في المنطق الرمزي، ترجمة: عبد الفتاح الديدي، ص 9.

(2) أبو داود في النكاح (2085)، والترمذي في النكاح (1101)، والدارمي في النكاح (2/ 137) وكلهم عن أبي موسى

(3) البخاري في بدء الوحي (1)، وفي الإيمان (54)، ومسلم في الإمارة (1907/ 155)، وأبو داود في الطلاق (2201)...

يستلزمه المعنى المنطوق. فيكون التقدير في الأحاديث السابقة: (لاصحة نكاح إلا بولي)، (لاصحة صلاة إلا بطهور)، (لاصحة صيام، ولا عمل إلا بنية). وتقدير المضمر يقتضي الفهم العام لبنية الجملة من حيث طاقاتها الاستدلالية الحجاجية الواضحة في الشرط أو السبب أو الاستثناء أو النفي... المتضمن في منطوق الكلام الذي توجهه معاني الحروف. لذلك نجد الأصوليين قد اعتبروا كل مقتضي بمثابة المنطوق، لأن القاعدة عندهم أن: "الملحوظ كالملفوظ" سواء بسواء ومن تم تجري عليه أحكام الألفاظ جميعا[1]، فطاقات الاستدلال هي فلسفة تقوم في أساسها على ضرورة التوفيق بين مؤدى عبارة النص، وما يقتضيه منطق الواقع أو منطق العقل، ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفة شروط استعمالها وإدراك الروابط الحجاجية التي توجهها في الخطاب.

---

(1) المناهج الأصولية ص. 365.

المصادر والمراجع:

- الجرجاني عبد القاهر أبو بكر: دلائل الإعجاز، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط1، مكتبة القاهرة، 1389هـ-1969م.
- الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: محمد رشيد رضا، بيروت، 1969م.
- الدريني مصطفى: المناهج الأصولية، في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، سوريا، 1405هـ-1985م.
- الزمخشري جار الله: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان، مصورة عن طبعة البابي الحلبي القاهرة، 1387هـ-1968م.
- الزمخشري جار الله: أساس البلاغة، دار مطابع الشعب، القاهرة، 1960م.
- السيوطي جلال الدين:الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط1، 1405هـ-1984م.
- طه عبد الرحمان: اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1998م.
- العزاوي أبو بكر: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، 2006
- الطلبة محمد سالم الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008.
- الفاسي الفهري عبد القادر: المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1982.
- ابن فارس أحمد بن زكريا: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: أحمد صقر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1977م.
- مرسلي محمد: دروس في المنطق الاستدلالي الرمزي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1989.

- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، بتحقيق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1407هـ-1987م.
- ا. بيسون، و أوكونر: مقدمة في المنطق الرمزي، ترجمة: عبد الفتاح الديدي.
- -المناهج الأصولية

- Rossari, Cahiers de Linguistique Française 14, Lexique et pragmatique Université de Genève. (1993).
- J. MOESCHLER & A. ` REBOULE, Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique, Paris, Seuil. Moles A. (1972)
- J. MOESCHLER & A. REBOULE Modélisation du dialogue, Représentation de l'inférence Argumentative, Hermès, Paris, 1989.

المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي

د.عبد اللطيف عادل

كلية اللغة العربية –مراكش

تحية ثقافية للحضور الكريم،أعتبر هذا اليوم الدراسي المخصص للترجمة والحجاج المنظم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، فرصة علمية للتطارح والتداول حول موضوع راهن وحي، وله آثاره الكبرى اليوم في مجالات عدة تتجاوز الحيز الأكاديمي.

تتابع هذه الورقة(*) المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي، وذلك من خلال ثلاثة إسهامات بحثية هي:

- اللغة والحجاج، الصادر في طبعته الثانية سنة 2009، بعد صدوره سنة 2006.
- الخطاب والحجاج، الصادر سنة 2007.
- حوار حول الحجاج، الصادر سنة 2010 .

وهي إسهامات محكومة فيما بينها بالتكامل والترابط، وليست منفصلة أو متباعدة الانشغال، الأمر الذي يسمها بروح المشروع، الواعي بشكل جيد لمنطلقاته وغاياته، مشروع يتوخى التراكم والتطوير. ومعلوم أن القيمة العلمية لأي مشروع تقتضي النسقية والتكامل.

إن موضوع هذا المشروع هو الحجاج في اللغة، والأستاذ العزاوي واضح في هذا الاختيار، ولا يفتأ على امتداد أعماله يؤكد على هذا التميز، فمدخله للدراسات الحجاجية ليس المنظور المنطقي والفلسفي أو المنظور البلاغي (القديم مع أرسطو، والحديث مع

(*) ألقيت هذة المداخلة خلال اليوم الدراسي الذي نظمته كلية العلوم الإنسانية – مراكش، في موضوع "الترجمة والحجاج"، احتفاء بالدكتور أبو بكر العزاوي، بتاريخ 25/ 04/ 2013.

بيرلمان)، بل "نظرية الحجاج في اللغة" التي اقترحها وطورها أزفالد ديكرو". وبذلك يختلف الدكتور العزاوي عن العديد من الدراسات الحجاجية السائدة في العالم

العربي، والتي بقيت بعيدة عن هذه النظرية. وهذه أول سمة مميزة لمشروع الأستاذ العزاوي، لذلك سينشغل في إسهاماته الثلاثة، بعرض هذه النظرية عرضا تبسيطيا، بعيدا عن الاستغلاق، عرضا يشي بالتمكن ويعتمد الوضوح، وهذه ثاني سمة مميزة لمشروعه، حيث عرض الأستاذ مرجعية هذه النظرية (التداولية وتطور نظرية أفعال الكلام) وبين أسسها وآليات اشتغالها. هكذا بين في مؤلفاته، بأنها نظرية لسانية تدرس الحجاج في اللغة، أي باعتباره ظاهرة لغوية. فالحجاج فعل لغوي ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، مادامت اللغة تنجز تسلسلات داخل الخطاب من نمط استنتاجي. وبعبارة أخرى، فإن الحجاج "يتمثل في تحقيق متواليات من الجمل والأقوال، البعض منها بمثابة الحجج والبعض الآخر بمثابة النتائج، لتكون التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع (Les faits) المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها" (ص 21-22 اللغة والحجاج). وفي توضيحه لهذه النظرية، بسط أكثر تعريف الحجاج ليجعله " تقديما لمجموعة من الأدلة والحجج التي تؤدي إلى نتيجة معينة، والتي يكون القصد منها التأثير في الآخر وإقناعه بفكرة أو تغيير آرائه ومواقفه بخصوص موضوع ما" (ص 28-29 اللغة والحجاج).

وفي إطار تمكنه من هذه النظرية، شرح بشكل بيداغوجي وعلمي عناوينها وآليات اشتغالها، فتوقف عند السلم الحجاجي بوصفه علاقة ترتيبية بين الحجج وقوانينه (النفي/ الإبطال/ الخفض/ القلب)، وما يرتبط به من اتجاه حجاجي يقوم على الروابط أو الألفاظ أو السياق التداولي والخطابي العام، وبين كيف تشتغل الروابط في تنظيم وإدراج الحجج، وكيف تكون هذه الحجج نسبية وسياقية وقابلة للإبطال، إذ ليست لها صلاحية مطلقة أو نهائية، بل تتبدل وظيفتها حسب المقامات وتتفاوت قوة وضعفا، لأنها مرنة وتدرجية وليست حتمية. ولقد ميز الأستاذ بشكل سلس ومضبوط بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية (Connecteurs/Opérateurs) ، فالروابط تربط بين قولين، وتسند لكل قول دورا محددا

في الاستراتيجية العامة (لكن، لاسيما، بل ...). أما العوامل فتقوم بحصر وتقييد الإمكانيات التي تكون لقول ما (كاد، ربما، تقريبا...)، كما شرح الأستاذ المبادئ الحجاجية، بوصفها معتقدات مشتركة وإيديولوجيات جماعية عامة ونسبية.

ثالث سمة مميزة لمشروع الدكتور أبي بكر العزاوي هو التنزيل الدقيق لنظرية الحجاج في اللغة، فسيرا على نهج أستاذه أوزفالد ديكرو، واستحضارا لروح بحثية شاقة استلهمها من النحوي العربي القديم "الفراء" في علاقته بـ"حتى"، اشتغل الدكتور أبو بكر العزاوي على بعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية، فتابع "بل" و"لكن" و"حتى". ومن خلال أمثلة قرآنية، وجمل مستقاة من الحوارات اليومية العادية، ومن خلال أمثلة شعرية (ابن الرومي وأبو نواس)، ونصوص نثرية تراثية (ابن خلدون)، ومقاطع من أعمال إبداعية روائية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ، وبالاستناد إلى الدرس اللغوي العربي القديم (المرادي، الزمخشري...) وبالاستعانة كذلك برسوم توضيحية (سيبويه، ابن هشام...)، استنتج المظاهر الحجاجية لهذه الروابط واستعمالها الحجاجي وعلاقاتها بالمعنى الضمني والمضمر، وما تؤمنه من علاقات حجاجية مختلفة (النفي/ التعارض/ الإيجاب...)، كما وقف عند دورها في تقوية الحجاج حسب موقعها ومكانها في التسلسل الكلامي، وفي مصاحبتها أو تجردها/ انفصالها عن بعض الحروف الأخرى في اللغة العربية. بتركيزه على الروابط، يكون الأستاذ قد اختار تحليلا حجاجيا مجهريا دقيقا، لا يضيع في التعميم، وإنما يقدم فحصا لصيقا. كما أن تحليل هذه الروابط يكشف أهميتها، الأمر الذي يثبت فعالية هذا التحليل، ويؤشر على القيمة الحجاجية لهذه الروابط.

رابع سمة مميزة لهذا المشروع هي التوسيع، فقد تابع الأستاذ الاستعارة، كاشفا بعدها الحجاجي، ولم ينظر إليها فقط كنوع من أنواع الزخرف اللفظي والبياني بل اعتبرها ذات قوة حجاجية أعلى من القوة الحجاجية للتعبير العادي (ص 106 اللغة والحجاج)، فهي أكثر تأثيرا. هكذا تكون الاستعارة الحجاجية استعارة مفيدة (والتصنيف لعبد القاهر الجرجاني)، أي استعارة منذورة للتأثير، مختلفة عن الاستعارة البديعية التي تكون أقل فائدة (ص 110، اللغة والحجاج). إن الاستعارة الحجاجية لا تكون مقصودة لذاتها، بل ترتبط بالمتكلمين

وأهدافهم الإقناعية، هي تلك الاستعارة، التي "شغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، وهي الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، فنحن نجدها في اللغة اليومية، وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية (ص 110، اللغة والحجاج).

إن سمة التوسيع في مشروع أبي بكر العزاوي تظهر في انتقاله من تحليل الجمل إلى الاشتغال على الخطاب، حيث تابع الخطاب القرآني من خلال سورة الأعلى، مركزا على الانسجام الحجاجي فيها، وعلى بنيتها الاستدلالية، وعلى برنامجها الإقناعي العام، ليخلص إلى أن هذه السورة بالقياس إلى السور المدنية "منذورة للوعظ والتوجيه والجدال والحجاج" (ص 120، اللغة والحجاج). وفي اشتغاله على الخطاب الشعري، تابع قصيدة العلة للشاعر أحمد مطر، معتبرا بأن "الشعر الحجاجي هو المنذور للإقناع والتوجيه وليس شعر البراعة والبديع" (ص 36، اللغة والحجاج)، ولكشف حجاجية هذا النص الشعري، توقف الأستاذ عند دلالة الأفعال اللغوية في القصيدة (الأمر – السؤال – النهي)، وتوقف عند رابط "لكن" وعلاقته بردود فعل الشاعر المختلفة، وتوقف عند التعارض الحجاجي بين الطبيب والرقيب في القصيدة، كما تابع الاستعارة وتأثيرها، والتكرار (تكرار الروابط والألفاظ والصيغ التركيبية ومقاطع النص ومواقف الشاعر)، وأسلوب الحوار الصريح والمباشر.

ويظهر التوسيع عند أبي بكر العزاوي، في متابعته للخطاب المثلي، إذ اعتبر، وعلى خلاف اللغوي الفرنسي مارتان ريجالM.Riégel بأن الأمثال لا تقوم فقط على علاقة الاستلزام (Implication)، بل تنبني على علاقات أخرى. فضلا على أن الاستلزام فيها ليس منطقيا بل تداوليا وطبيعيا. سيتابع الأستاذ خمسة وثلاثين مثلا مغربيا منها ما يبدأ بأداة استلزامية، ومنها ما يبدأ باسم الموصول. ليستنتج بأن المثل مبدأ حجاجي (يعكس الأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة بشرية معينة)، وبأنه حجة جاهزة قوية مثل الشواهد وأقوال العلماء والحكماء، ولذلك لابد من اعتباره ضمن حجج السلطة (Arguments d'autorité).

لقد ظهر التوسيع أيضا في الاشتغال على الخطاب الإشهاري، حيث ركز أبو بكر العزاوي على البعد الحجاجي للمكون الأيقوني، محللا العناصر الأيقونية بنفس الطريقة التي تحلل بها الوحدات اللغوية معتبرا أن البنية التصورية التي تجمعهما، هي المستوى الوحيد للتمثيل الذهني الذي تعالج فيه، وبشكل متماثل ومتلائم كافة المعلومات اللسانية والحركية والحواسية، "فنحن نعبر بحواسنا عن دخل كلامي، ونعبر بكلامنا عن دخل حواسي، ونعبر أيضا حركيا عن دخل حواسي أو كلامي" (ص 116-117، الخطاب والحجاج).

مع هذا التوسيع، أفاض الأستاذ أبو بكر الغزاوي في التطبيق، معتمدا مقاربة لغوية ملتصقة بالنصوص، محصيا العناصر ومنتبها للأساليب، تقسيما وتجزيئا، فلم تبق آليات نظرية الحجاج في اللغة مجرد مفاهيم، بل تم تطبيقها. لم يغرق التحليل في التضخيم النظري، بل كانت الآليات تجرب نصيا، وتتحرك فاعلة في المتن المدروس غير جامدة في أطرها النظرية، وهذه خاصية أخرى لمشروعه.

ما ميز كذلك مشروع الأستاذ العزاوي، هو التطوير، فإذا كان ديكرو قد اشتغل على الروابط في الجمل، فإن الأستاذ اشتغل على خطابات متنوعة. وإذا كان أصحاب نظرية أفعال الكلام قد ركزوا على الوظيفة الإنجازية، فإن الأستاذ تابع الوظيفة الحجاجية لأفعال اللغة. وإذا كان المشتغلون بالمنطق الطبيعي قد ربطوا الأمثال أكثر بالاستلزام، فهو وجد في الأمثال علاقات أخرى، كما وجد فيها ازدواجا حجاجيا (مستوى خارجيا ومستوى داخليا)، كما تجاوز آراء تولمين حول الشعر، ليركز في القصائد على البعد الحجاجي. وفي متابعته للحجاج الأيقوني تجاوز مقاربة غريماس وبارت وكريسيان ميتز، أي تجاوز الإطار المرجعي الخاص باللسانيات البنيوية أو السيميولوجية أو البلاغية.

خاصية أخرى ميزت مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي، وهي اعتباره للإسهامات التراثية، والقدرة على توظيفها لخدمة اشتغاله الحجاجي، حيث استحضر حازم القرطاجني وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه وابن هشام والرازي، واستحضر علم المعاني (الأساليب الإنشائية)، وذلك لإضاءة تحليله الحجاجي.

أخيرا إن ما يسم هذا المشروع الحجاجي هو ربطه الحجاج بالحياة العامة، وحاجتنا الضرورية اليوم للحوار وتدبير الاختلاف والتعايش والإقناع والاقتناع، من أجل تجاوز العنف ولبناء وعي مدني ومواطن، حيث ركز الأستاذ العزاوي على حرية التعبير، واعتبر بأن "التربية على حقوق الإنسان تتمثل في التربية على الحوار والتشاور والحجاج والجدل المحمود" (ص57، حوار حول الحجاج). هكذا يكون الحجاج ضمانة للحوار المنفتح، لا الحوار الجامد المتصلب، وهو "الحوار الهادئ الرصين، لا الحوار المتشنج الانفعالي" (ص69، حوار حول الحجاج). إن الحوار المستند إلى الحجاج الذي يحكمه التهذيب والتأدب واحترام الآخر وليس التبليغ فقط، هو ما تحتاجه حياتنا العامة وما يقتضيه حوار الحضارات.

بانتباهه المبكر لنظرية الحجاج في اللغة، وبتبسيطه وتوسيعه وتطويره لهذه النظرية، وبربطه للحجاج بحياتنا العامة، يكون الدكتور أبو بكر العزاوي قد ساهم وبشكل قوي في إشاعة هذا المكتسب المعرفي الذي تبلور في الغرب، مع تطويره بما يلائم خطاباتنا ومتوننا في الشعر والأمثال والصورة والقرآن الكريم.

الحجاج الأيقوني وخطاب الإشهار، من خلال كتاب الخطاب والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي

د. خالد شاوش

جامعة السلطان مولاي سليمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يَستخدِم الحجاجُ الأيقوني (الحجاجُ البصري) الصورَ لإشراك المشاهدين وإقناعهم بقبول فكرة أو وجهة نظر معينة. كما يَستخدم الإشهارُ الصورَ لجعل المنتوج أكثر جاذبية أو لربطه بنمط معين من الحياة أو بهوية معينة. ومع ذلك فإن الإشهار لا يشكل إلا نوعا واحدا من الحجاج الأيقوني/ البصري. إذ أن هذا الأخير أصبح الآن يُستعمل تقريبا في كل أنواع الخطاب. فكان لا بد للدكتور أبو بكر العزاوي أن يتطرق إليه في سياق تناوله للحجاج في شتى أنواع الخطاب. وهذا ما تم بالفعل في كتابه المعنون ب: الخطاب والحجاج[1]، والذي هو امتداد و تطوير للكتاب السابق (اللغة والحجاج) لنفس المؤلف.

وفي إطار الحديث عن الوظيفة الحجاجية للغة، بوصفها متأصلةً في بنية اللغة: في الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية والتداولية، يسعى المؤلف – من خلال فصول هذا الكتاب – إلى دراسة الحجاج في مستوى الخطاب، ما دام الحجاج موجودا في كل أنواع الخطاب. ولعل الهم الذي يسكن المؤلف أكثر من غيره في هذا الصدد هو الوظيفة التواصلية للحجاج، من جهة، والوظيفة الحجاجية للتواصل، من جهة أخرى. فنراه قد انطلق من مقولة الأستاذ طه عبد الرحمن" لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان"ثم عَدَّلها ووسَّع مجالها – وهو محق في ذلك – قائلا:" لا تواصل من غير

---

(1) أبو بكر العزاوي، **الخطاب والحِجاج**. مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت – لبنان، 2010.

حجاج، ولا حجاج بغير تواصل[1]، لأن للحجاج آفاقا رحبة في أشكال التواصل، فلم يعد هناك مجال لحصره في التواصل باللسان.

ولهذا جاءت الفصول ال 4 لهذا الكتاب الأربعة لتتناول تمظهرات الحجاج من خلال أربعة أنواع من الخطاب، وهي على التوالي:

1- الحجاج في الخطاب القرآني (سورة الأعلى)
2- الخطاب الشعري (قصيدة العلة لأحمد مطر)
3- الخطاب المَثلي (بعض الأمثال العامية المغربية)
4- الخطاب الإشهاري (صور إشهارية)

والذي استوقفني في هذا الكتاب القيم للدكتور أبو بكر العزاوي هو تناوله – في الفصل الرابع – لنوع من الحجاج يكاد يختلف اختلافا جذريا عن كل أنواع الحجاج التي أتي على ذكرها: ألا وهو الحجاج الأيقوني، وهو الحجاج الكامن في الخطابات البصرية والصور الإشهارية، ما دامت هذه الخطابات شكلا آخر من أشكال التواصل غير اللغوي. إلا أن المؤلف ركز – في هذا الإطار – على الحجاج الأيقوني من خلال الصورة الإشهارية، وقدراتها الحجاجية الإقناعية.

أما عن المنهج الذي اتبعه المؤلف في تحليل الخطاب الأيقوني، فإنه يعلن منذ البداية عن اعتماده لمصطلحات ومفاهيم جديدة غير التي كانت سائدة، أي التي ارتبطت بشكل أو بآخر باللسانيات البنيوية والسيميولوجيا أو بالبلاغة التقليدية أو الحديثة. فبعد إعطاء فكرة عن الطبيعة الحجاجية للغة الطبيعية الكامنة في بعض الصور الإشهارية، يتناول المؤلف بالتحليل المكونات الأيقونية للصورة الاشهارية. ولعل الدافع الأساسي لهذا الاتجاه هو التنامي المطرد للسلطة الإقناعية للصورة في هذا العصر الذي أصبح، بتعبير المؤلف،" يتجه نحو الاستغناء عن الكتابة (...) و يفضل عليها أشكالا تعبيرية أخرى قادرةً على خلق استجابة

---

[1] نفسه، صص. 12، 106.

أكثر سرعة ومشغلة لميكانيزمات اللاوعي بشكل عميق"[1]. وفي رصده لمستويات الخطاب – أي خطاب – يميز المؤلف بين ثلاثة مستويات:

1- المستوى المعرفي الذهني (cognitif)
2- المستوى الأداتي
3- المستوى الاجتماعي-الثقافي (السوسيو الثقافي)

ولكن عند النظر إلى هذه المستويات التي يطرحها المؤلف يبدو أنها لا تستوعب كل الخصائص التي تنفرد بها الحجاجيةالأيقونية. وانطلاقا من التسليم بوجود بنية تصورية (structure conceptuelle) تنطوي على البنية الدلالية، يتناول المؤلف بالتحليل العناصرَ التصوريةَ لهذه البنية سواء في أشكالها اللغوية أو الأيقونية، ما دامت كل هذه الأنماط من التواصل (اللغوية وغير اللغوية) تتفاعل مع بعضها البعض من أجل تحقيق نفس الأهداف المتوخاة من العملية التواصلية الكبرى.

وانطلاقا من تحليل بعض الصور الإشهارية، يستخرج المؤلف أنماط الحُجج المستعملة، ومن بينها الحجج الأيقونية، وهي التي تهمنا في هذا الصدد أكثر من غيرها. ويمكن حصرها على الشكل التالي:

النمط الأول من الصور الإشهارية، وهو الذي يُكتفى فيه بالصورة، أي من غير لغة – باستثناء اسم المنتوج (انظر الصورة 01):



الصورة رقم 01

[1] نفسه، ص. 104-105.

ففي هذه الصورة الأولى (رقم 01)، يميز المؤلف بين القيم والدلالات والايحاءات الإيجابية من جهة، وبين القيم والدلالات والايحاءات السلبية من جهة أخرى. فتم توظيف الايحاءات الإيجابية من أجل إقناع المشاهد بأفضلية المنتوج وأهميته وما إلى ذلك. وعند إمعان النظر في هذه العناصر الأيقونية، نجدها في حقيقة الأمر عناصر تصورية توظف الإيحاءات والتداعيات وما تستدعيه في مخيلة وذاكرة المشاهد/ المتلقي، أي في خلفيته المعرفية.

وبالرجوع إلى نظرية الإطار (Frame Theory) وبعد الاعتماد عليها، يخلص المؤلف إلى أن في صورة إشهارية كهذه، تقدم إطارا دلاليا معرفيا إحاليا مُعَينا (أمريكا الدولة العظمى، رعاة البقر، الطبيعة، القوة والمغامرة، الفروسية إلخ) [1]. إن هذا النوع من الصور الإشهارية يشكل النمط الأول، أي الذي لا يشتمل إلا على مكونات أيقونية، مما يدل على أن الحُجج والأدلة يجب أن نبحث عنها في الأيقونات وعن القيم الإيجابية لمكوناتها والتي يسعى صاحب الصورة الإيحاء بها، طالما أن القيم الإيجابية للمكونات الإيقونية ليست ثابتة ومستقرة، بل لا تكسب طابعها الحجاجي الاستدلالي إلا بتوظيفها في السياق التصوري المعرفي.



الصورة رقم 02

أما النمط الثاني من الصور الإشهارية (انظر الصورة 02)، فهو الذي تتم فيه المزاوجة بين المكونات اللغوية والمكونات الأيقونية، مما يطرح التساؤل عن طبيعة العلاقة بين

---

(1) العزاوي، **الخطاب والحجاج**. ص. 109.

المكونات اللغوية والمكونات الأيقونية. والجواب الذي يرتضيه الدكتور العزاوي هو: أن هناك تكاملا وتفاعلا بين هذين النوعين من الحجاج، مع غلبة النص اللغوي لسببين اثنين:

أولا: لأن النص اللغوي يحدد الوجهة الحجاجية للخطاب (وللصورة ككل)؛

ثانيا: لأن النص اللغوي يقيد ويحصر الإمكانات التأويلية الدلالية الحجاجية للخطاب.

وبعد دراسة وتحليل المكونات الحجاجية لخمس صور إشهارية، يحاول المؤلف الإجابة عن إشكال جوهري، عبر عنه بقوله:" كيف تتم معالجة العناصر الأيقونية في البنية التصورية؟ هل تتم ترجمتها إلى عناصر دلالية؟"[1] ولاقتراح إجابات شافية عن هذا التساؤل، يعرض المؤلف ثلاثة مواقف:

1- الموقف الأول: موقف الباحثة الفرنسية Odile Le Guern: وهو أن العناصر الأيقونية يتم تحويلها وتأويلها من طرف المتلقي، لأن الصورة تمثل بشكل تركيبي مجموعة من الأشياء والمحمولات، ولا بد من القيام بنشاط تأويلي تفكيكي من طرف المتلقي، للتمييز بين الموضوعات ومحمولاتها وصفاتها. ولئن كانت الباحثة أوديل لوكيرن تركز على وظيفة المتلقي في هذه العملية التأويلية، فلأنها ترى أنه لا يمكن الاعتقاد بوجود وحدات مقابلة لكلمات اللغة في الصورة. وعلى هذا الأساس فإن المتلقي هو الذي يُنشئ البنيات القضوية، بينما ينحصر الدور الحجاجي للمرسل في وضع قيود لتوجيه التأويل القضوي للمتلقي، وذلك من خلال الوسائل الثلاث الآتية:

1- البنية الداخلية للصورة
2- استعمال الإيديولوجيا
3- المزاوجة بين الرسالة البصرية والنص اللغوي[2].

---

(1) نفسه، ص. 115.

(2) نفسه، ص. 116.

2- الموقف الثاني للإجابة عن التساؤل الذي طرحه المؤلف (كيف تتم معالجة العناصر الأيقونية في البنية التصورية؟ هل تتم ترجمتها إلى عناصر دلالية؟)، وهذا الموقف هو الذي يتبناه الدكتور البوعزاوي، يتلخص في أن العناصر تُعالج بنفس الطريقة التي تعالج بها الوحدات اللغوية في البنية التصورية، بحيث لا يوجد حسب المؤلف – وخلافا للموقف السابق – لا يوجد فرق بين الحجاج الأيقوني والحجاج اللغوي.

3-أماالموقف الثالث: فهو إمكانية معالجة العناصر الأيقونية والحجاج الأيقوني ككل، انطلاقا من النظريات الذهنية والمعرفية الحديثة كنظرية الإطار، ونظرية النماذج الذهنية، ونظرية الخطاطة وغيرها.

وأُراني شخصيا أكثر ميلا لتبني الموقف الأول، والذي رفض المؤلف أن يتبناه بحجة أنه أكثر تعقيدا، لأسباب سيأتي ذكرها. إذ يمكن مقاربة الحجاج الأيقوني/ البصري مقاربة أكثر شمولا، خاصة إذا خرجنا من نطاق الخطاب الإشهاري. وفي هذا الصدد، وحسب دراسة للكاتبين جون ميشال آدمJean Michel Adam وميشال بونوم Michel Bonhomme[1]، فإن الحجاج الأيقوني يرتكز على مبدأ إقناع المشاهد عن طريق وسائل عقلية و وسائل وجدانية، من خلال ما سمياه: "حسابات تأويلية"، وهي على التوالي:

1- الحسابات المرجعية؛
2- الحسابات الحجاجية topiques عن طريق تحليل الحمولة الاجتماعية والثقافية التي توحي بها الصورة؛
3- الحسابات القيمية،والتي يتم من خلالها تثمين المنتوج أو عرضه بشكل إيجابي، وذلك عن طريق إثارة الأحاسيس والتأويلات الإيجابية أو السلبية لدى المشاهد... فالتأويلات الإيجابية هي التي تقنع المشاهد باقتناء، أو تقبل، أو أخذ موقف إيجابي من منتوج معين أو شخص أو رمز ما. بينمايتم في حالة التأويلات السلبية، إقناعُ المُشاهد بأخذ مواقف سلبية من حادثة معينة عن طريق حجاج أيقوني/ بصري.

---

(1) Jean-Michel ADAM et Marc BONHOMME. *L'argumentation publicitaire. Rhétorique de l'éloge et de la persuasion.* Paris, Nathan, 1997.

4- الحسابات التساؤلية: وهي التي تدفع بالمشاهد إلى التساؤل عن السبب أو المغزى في وجود شيء ما أمام منتوج معين أو أمام شخص معين في أيقونة/ صورة واحدة.

آراء نقدية

لقد كُتب الشيء الكثير عن الحجاج الايقوني/ البصري- أو في معناه -من طرف الكتاب الغربيين في مجال تحليل الصورة، سواء كانت هذه الصورة جامدة أومتحركة. إلا أن هذه الكتابات، والتي تُرجم بعضها، ترتبط ارتباطا وثيقا وترتهن إلى فلسفة/ فلسفات معينة و إلى أنماط من التصور أفرزتها حقب من التطور الفكري الأوروبي على امتداد عدة قرون. ولا شك ان استنباتها في منظومة ثقافية ولغوية أخرى لا يمكن أن يكون سليما إذا اكتفى باحثونا بترجمتها ترجمة لغوية و اصطلاحية دون الأخذ بعين الاعتبار الحمولات الأخرى للفظ في بيئته الأصلية. و لعل هذا ما نبه عليه سعيد بنگراد فيما يتعلق بترجمة مناهج تحليل السيميائيات السردية، بقوله:

لسنا في حاجة إلى التأكيد أننا لا يمكن أن نضيف أي شيء إلى ما تنتجه الحضارات الأخرى دون أن نناقش الأسس الفلسفية التي انبنت عليها النظريات التي يتم تداولُها عندنا، وفي كل الفضاء الناطق باللغة العربية. فالوقوف عند حدود المقترحات التحليلية التطبيقية، رغم أهمية هذه الجوانب وجدواها، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى إنتاج نماذج ممسوخة لا ترقى إلى الأصل المؤسس، ولا يمكن أن تنتج معرفة تخصنا وتخص نمط حياتنا. ذلك أن الاستنبات يقتضي مد جذور النموذج في اللغة التي تحتضنه وتمنحه حياة جديدة[1].

فمصطلح 'الأيقونة'، على سبيلا المثال، في التداول الغربي للكلمة، والذي هو الأصل ما دامت الكلمة من أصل إغريقي ثم لاتيني[2]، قد اكتسب مجموعة من الحمولات التي يصعب الفكاك منها حتى بعد استعمالها في وسط أو سياق غير غربي.

(1) سعيد بنگراد، **السيميائيات السردية. مدخل نظري**. ط 3. الرباط: منشورات الزمن. سلسلة الجيب. العدد 29. ط 2. 2015. ص. 8.

(2) David B. GURALNIK (ed.) *Webster's New World Dictionary*(New College Edition 1993). New York: Simon and Schuster, 1984, p. 695.

فلهذه اللفظة حمولةٌ لاهوتيـة لا محيـدعنها، سـواء في الفكـر الـديني الأوروبـي الـذي امتاح من العقيدة المسيحية أو في الفكر الفلـفي الوسيط الذي نشأ مع هذا الفكر الديني.

ولهذا المصطلح حمولةٌ دينية لم يسلم منها أثناء تداوله في الفكر الأوروبي الحديث، بـل وحتى في الفلـفة الأوروبية الحديثة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، عنـدما يُـصنَف الفيلــوفُ فريدريك نيتـشه Friedrich Nietzsche علـى أنـه مُحطـم الايقونـات (أو محطـم الـصور والأصنام) Iconoclaste فهذا فيه إحالة على هذه الحمولة الدينية بالأساس.

ولهذا المصطلح حمولةٌ فنية، خاصة تلك التي ترتبط بفـن الرسـم في القـرون الوسـطى الأوروبية. ولعل خذا الاستعمال هو الذي مهد للأشكال الجديدة لتـداول هـذا المـصطلح في الوقت الحالي. وهو ما يشير إليه برنـارد ديـك في معـرض حديثـه عـن "الأيقونـة" في التـداول الفيلمي والسينمائي:

"في الفن القروسطى، تشكل "الأيقونة" تمثيلا تصويريا لموضـوع ديـني ذي هالـة روحيـة تجعله جديرا بالتبجيل... لذا فإن للأيقونة طبيعة مزدوجة: فهي لا تصور مجرد شخص، وإنمـا تصور شخصا خارج العادة، كما يتبين من الهالة، أو النيمبوس، أو الخلفية المذهبة الـتي تحيط به/ بها"[1].

ثم أصبح في الوقت الراهن لهذا المـصطلح حمولـةٌ أخـرى، هـي الحمولـة الإعلاميـة، وهي التي تقترن بصورة إنسان على أنه رمز أو معلمة بارزة لعـالم معـين أو اتجـاه معـين أو في صنف من الفن والإبداع.

وللمصطلح كذلك حمولة معلوماتية-أو أنترنيتية-ناتجة عن استعمال الكلمة في عـوالم المعلوميات والبرمجيات. وهذا الاستعمال الوظيفي لهذا المصطلح يكاد يكـون هـو الغالـب في الوقت الراهن، بالنظر إلى رحابة الفضاء الرقمي وانتشاره في كل المجالات. وهو ما يتضح مـن هذا النموذج لتعريف معاصر للفظة "الايقونة":

(1) Bernard F. DICK, *Anatomy of Film*. New York: Saint Martin Press, 1998, p. 139.

ماهي الأيقونة؟

إذا تركنا جانبا الدلالات الدينية للمصطلح، فإن كلمة "أيقونة" اليوم تغطي مجموعة واسعة من أنواع الصور، من أزرار "إلعب/ قف" الأحادية اللون، إلى الرموز المفصلة للغاية بالألوان الكاملة، المستخدمة لتحديد تطبيقات معينة. يمكن أن تكون بسيطة مثل مثلث، أو معقدة مثل تصوير واقعي لورقة الشجر مع الأوردة وقطرات من الماء. لكن الجميع يندرج تحت المظلة الواسعة للأيقونات[1].

ونظرا لهذه الحمولات المختلفة والتي قد تذهب بخيال القارئ والمتلقي كل مذهب، فإننا نقترح استعمال كلمة "بصري"، ما دام هذا المصطلح الأخير يفي بالغرض دون احتمال السقوط في الدلالات الأصلية لكلمة "أيقوني" مع ما تحمله من حمولات خاصة. كما أن كلمة "بصري" ستحيل على الصورة – دون غيرها من المعاني – ما دامت تُستعمل في سياق الحجاج المرئي والتصويري والإشهاري...

ومن جهة أخرى، فإن الدكتور أبوبكر العزاوي إذ يعلن أنه لا يدعي الإحاطة بكل المظاهر الحجاجية لمكونات الصورة الإشهارية، ينبه في الآن ذاته (وفي خاتمة الفصل الرابع من هذا الكتاب) إلى أن "الجوانب المعرفية والإيديولوجية والنفسية ولاجتماعية واللغوية والفنية والسيميائية وغيرها لم تكن تشكل موضوع هذا البحث ولا تدخل في نطاق هدفه المحدد وإن وردت في ثنايا العرض بعض الإشارات الطفيفة والسريعة إلى هذه الجوانب"[2]. لكن يبدو أن هذه الجوانب لا تنفك عن الحجاج الايقوني/ البصري، إذ يصعب التفريق بينهما نظرا لارتكاز هذا الأخير على كل هذه الجوانب وتوظيفها من أجل لإقناع المُشاهد. فكان لا بد من إعطائها مزيدا من الحيز في التحليل. خاصة وأن الحجاج الإيقوني/ البصري أصبح الآن سلاحا ذا حدّين، بل أصبح يُستعمل في مواجهة الخطاب الإشهاري ذاته. فكما أن الخطاب الإشهاري يُتوسل به من أجل إقناع الزبناء والمشاهدين، فإن أنواعا أخرى من الخطاب (الخطاب الإعلامي، الحقوقي، البيئي، الطبي) أصبحت هي الأخري تُستعمل الحجاج

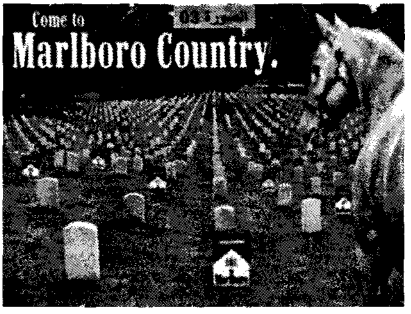
---

(1) *John HICKS, The Icon Handbook. London: Five Simple Steps, 2011, p. xiv.*

(2) العزاوي، **الخطاب والحِجاج**. ص. 119.

الأيقوني/ البصري في مواجهة الخطاب الإشهاري بالذات، ولكن لأغراض حجاجية مناقضة لأغراض الخطاب الإشهاري تماما.

وكمثال على هذا، نورد أسفله (الصورة رقم 03) نموذجا لهذا النوع من الحجاج الايقوني/ البصري الذي يستمد قوته في بعض الأحيان من اعتماده على التأويلات السلبية من أجل إعمال حسابات قيمية مخالفة للحسابات "الإيجابية" التي يتوسل بها الخطاب الإشهاري.



الصورة رقم 03

فعوض تثمين المنتوج أو عرضه بشكل إيجابي، يتم عرضه بشكل سلبي، عن طريق إثارة الأحاسيس والتأويلات السلبية لدى المشاهد؛ بل في بعض الأحيان قد تُستعمل نفس الصور التي اعتمدها الخطاب الإشهاري بالذات، ولكن لأغراض حجاجية مناقضة له تماما (كما في الصورة رقم 03)، حيث تأكد أن الذي بقي على قيد الحياة هو الفرس لأنه لم يتناول المنتوج المروج له من طرف الخطاب الإشهاري.

ومن الآراء النقدية التي يمكن للدكتور أبو بكر العزاوي استقصاءها، هو القوة المتنامية للحجاج الايقوني/ البصري الذي بلغ مدى بعيدا، بحيث يمكن الحديث – في بعض الأحيان – عن هيمنة هذا الحجاج على الحجاج اللغوي.وهكذا فإن الحجاج اللغوي على قوته وبلاغتهفي الصورة رقم 03، أصبح تأويلُه في هذه الحالة منوطا ورهينا بالحجاج الأيقوني/ البصري.

وحتى لو غُيبت اللغة تماما وحُذف التعليق على الصورة، سواء كان إيجابيا أم سلبيا،

كما هو الشأن في الصورة رقم 04:



الصورة رقم 04

تمكن الحجاجُ الأيقوني/ البصري – وتماشيا مع نظرية الإطار–مندفع المشاهد دفعا إلى إعطاء معنى للصورة رغم الغياب التام للحجاج اللغوي.

خلاصة

الآن وقد تمرس الدكتور أبو بكر العزاوي على جل أنواع الخطاب الحجاجي، أتمنى أن يُفرد للحجاج الأيقوني/ البصري مؤلفا خاصا به، يَجمع فيه ما جاء مفرقا على كتبه. فلن نبالغ إذاقلنا أن الدكتور العزاوي أصبح" أيقونة" الحجاج الايقوني نظرا للقيمة المضافة التي جاءت بها كتاباته في هذا المجال، سواء من حيث الكم أو من حيث العمقُ والجودةُ.

لائحة المراجع:

- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحِجاج. مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت – لبنان، 2010.
- سعيد بنگراد، السيميائيات السردية. مدخل نظري. ط 3. الرباط: منشورات الزمن. سلسلة الجيب. العدد 29. 2015.
- ADAM,Jean-Michel et Marc BONHOMME, *L'argumentation publicitaire. Rhétorique de l'éloge et de la persuasion*. Paris, Nathan, 1997.
- DICK,Bernard F.,*Anatomy of Film.* New York: Saint Martin Press, 1998.
- GURALNIK,David B. (ed.),*Webster's New World Dictionary* (New College Edition 1993). New York: Simon and Schuster, 1984.
- HICKS,John, *The Icon Handbook*. London: Five Simple Steps, 2011.

الحجاج ومنطق الخطاب

بصدد "الخطاب والحجاج" للدكتور أبو بكر العزاوي

د. عبد الله بريمي

"لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل"

أبوبكر العزاوي

يكن هاجس مقاربتي لكتاب اللساني الدكتور أبو بكر العزاوي "الخطاب والحجاج" محكوما بخلفية الإحاطة الكلية بمحتويات فصوله، وإنما هي ككلّ مقاربة نقدية أو نقد نقدية تسعى إلى بناء استراتيجيتها القرائية التي تعتمد الانتقاء بتشديدها على مواطن محددة داخل الكتاب، سنحاول من خلالها، تبيان، الكيفية التي يتمّ بها تشغيل المفهوم الحجاجي وطريقة تداوله داخل أيّ واقعة أو نسق ثقافي ما.

إن هذا التداول للمفهوم الحجاجي في بعده اللغوي من جهة، والأيقوني من جهة أخرى، هو الذي سيجعلنا نتحدث عن النظرية الحجاجية باعتبارها إبدالا Paradigme معرفيا لإنتاج وتفسير الأنساق الثقافية. والإبدال المعرفي الذي يقدمه الكتاب ويسعى المؤلّف إلى تأسيسه ومحاولة استنباته في حقل الثقافة العربية، إبدال بالغ الأهمية والتفرّد من حيث أصوله وامتداداته ومن حيث مردوديته وأساليبه التحليلية، فهو إبدال يستمدّ أصوله وآلياته من مجموعة من الحقول المعرفية الفلسفية مثل: اللسانيات والمنطق والبلاغة... وبموجب هذا الإبدال ستتغير قواعد القراءة والتحليل، وتتم إعادة النظر في آليات التعاطي مع كل الوقائع اللسانية منها وغير اللسانية، بما فيها مفهوم النص ومكوناته وبنياته الداخلية وطريقته في إنتاج معانيه وحججه.

وبخصوص هذا الشأن، فإن مقاربتنا لكتاب "الخطاب والحجاج" تتوسّل بأفقين قرائيين: أفق خارجي غايته فتح العمل على بعض سياقاته المجاورة، ويحاول إرجاعه إلى أسسه

الفلـفية وخلفياته المعرفية،وأفق داخلي يـروم استقـصاء بعـض نواظمـه ويبحـث في الـرؤى والتصورات التي انتهى إليها هذا العمل.

تحددت علاقة اللسانيات بالتداولية بظهور أوستين وسورل وديكـرو وبرونـدونر...، فقد قدموا للغة مفهوما جديدا مرتبطا بالممارسة والاسـتعمال، ويـستدعي الأمـر في معالجتهـا أدوات إجرائية تدخل ضمن التحليـل التـداولي؛ هـذا الأخـير، لم يعـد ينظـر للغـة بوصـفها موضوعا مستقلا عن الممارسة؛ وبعبارة أخرى يكون اسـتعمال اللغـة من،المنظـور التـداولي، غائيا. فالتلفظ يتم لتحقيق غاية وقصد معين أو إشباع حاجة محددة، أو الحصول علـى فائـدة. علـى هـذا المنـوال تـستعمل اللغـة للأغـراض والمقاصـد ذاتهـا بـصفة فعليـة في سـياقات مختلفة.ويضفي المتحاورون على نحو مباشر وغير مباشـرعلى دلالات الملفوظـات والـسياقات دلالات أخرى. ولعلّ الغاية من ذلك تتبدّى في اكتشاف منطق اللغة ومنطق الخطاب وهو مـا تقوم به الوظيفة الحجاجية للغة؛ هذه الوظيفة مؤشـرلها في بنيـة الأقـوال والممارسـات؛ وهـي وظيفة "تـسعى كذلك إلى اكتشاف القواعد الداخليـة للخطـاب، وتـتحكم في تـسلـسل الأقـوال والجمل وتتابعها بشكل متنـام وتـدريجي. فالحجـاج، حـسب هـذا التـصور، يتمثـل في إنجـاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[1] فالحجاج، من هذه الزاوية، آلية لسانية تداولية نـدركها في كل قول وفي كل خطاب، كما نعثر عليه في الأسماء والأفعال والظروف والحـروف، نجـده باختصار في كل مظاهر اللغة وتجلياتها.

إن هذا التصور يمتح أفكاره من النظرية التي وضع أسسها اللساني الفرنـسي أوزفالـد ديكرو O.Ducrot "هذه النظرية تريد أن تبّين أن اللغة تحمل بـصفة ذاتيـة وجوهريـة وظيفـة حجاجية، وبعبارة أخرى، هناك مؤشـرات عديـدة لهـذه الوظيفـة في بنيـة الأقـوال نفـسها"[2]. وتتبدّى منطلقات هذه النظرية في المبادئ التالية:

- إن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.
- إن المكون الحجاجي في المعنى يكون أساسيا، يليه بعد ذلك المكون الإخباري.

---

(1) الدكتور أبوبكر (العزاوي): الخطاب والحجاج، الناشر: الأحمدية للنشر الطبعة الأولى 2007، ص: 11.

(2) الدكتور أبوبكر (العزاوي): اللغة والحجاج، الناشر: الأحمدية للنشر الطبعة الأولى 2006، ص:16.

- عدم الفصل بين الدلالة والتداول.

بالنظر إلى هذه المبادئ يمكن مقاربة الظاهرة الحجاجية من زاويتين:

أ- زاوية خارجية، حيث يتم النظر إلى النص في كليته باعتباره حجة.

ب- زاوية داخلية، وضمنها تكون للحجاج كافة تحققاته ويكون ذلك تحديدا في: المعجم والروابط الحجاجية والاستعارات والأفعال اللغوية...

وفي هذا المستوى من العمق نفهم أن المرسل عامة لا يهدف إلى إخبار المتلقي، ولا يقصد تقديم المعلومات، بل يسعى إلى التأثير في المتلقي ودفعه إلى اتخاذ موقف ما من القضية التي تشكل موضوع التفكير، وعندما نستعمل لفظة التأثير، فإننا نستعملها من المنظور الحديث الذي يعتبر اللغة فعلا وحجاجا وليست نقلا للمعلومات وإخبارا عنها.

ينطلق هذا التصور من فكرة أساسية مفادها أن النص خطاب حجاجي بالدرجة الأولى،وهذا يفترض متكلما ومستمعا تتوافر فيه قصدية التأثير بوجه من الوجوه، مما يدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة لعل أهمها: كيف يبني النص شكله الحجاجي؟ وكيف يمكن أن يكون حجاجيا بدرجة أولى ؟،وقبل مقاربة النص يمكن القول إن النص الحجاجي يقوم على عملية فرض لجملة من المعطيات والنتائج الموجهة حواريا بصفة حتمية، لا تترك للمتلقي أي خيار في اختيارات أخرى، بل هو مطالب بالاقتناع بصحة ما توصل إليه بفعل القراءة أو السماع من نتائج منطقية دلالية، تعكس المفهوم الناتج عن الوضعية السياقية للكلام ككل[1]، كما أن هذه النتيجة المضمنة في الملفوظ أكثر أثرا في المتلقي منها إذا كانت مباشرة لشعوره العميق بأن استنباطها من طرفه يعني أنها من بنات فكره، فهو إذن مطالب بقبولها بدافع نفسي.

وتوظف هذه النظرية مجموعة من المفاهيم من قبيل: الحجة والنتيجة والتوجيه

---

(1) Roger (Bautier), recherches expérimentales americanes sur la communication persuasive ,in l'argumentation,p203-218.

والسلَّم الحجاجي باعتباره مجموعة غير فارغة من الأقوال متضمّنة لعلاقة تساهم على نحو خاص في ترتيب الحجج، ولهذا السلم قواعده وأليات اشتغاله، مثل: قانون النفي، قانون القلب قانون الخفض، وإلى جانب السلّم الحجاجي، والمفاهيم السالفة، وظّفت كذلك مفاهيم أخرى، مثل: "الروابط الحجاجية والمبادئ الحجاجية والبرنامج الحجاجي والاستراتيجية الخطابية وتعالق الروابط الحجاجية التداولية والحجاج الأيقوني والانسجام الحجاجي التداولي..."[1].

هذه المفاهيم، وغيرها، تشكل في جوهرها تصورا معينا لمقاربة وتحليل كافة الوقائع اللغوية منها وغير اللغوية، نقصد بهذه الأخيرة الوقائع الأيقونية. وهذا التصور هو الذي نهجه الدكتور أبوبكر العزاوي في مقاربته لبعض الأنساق الثقافية الدينية (الخطاب القرآني من خلال سورة الأعلى) والشعرية (من خلال قصيدة العلّة ل أحمد مطر) والبصرية (من خلال تحليله لعينة من الصور الإشهارية) والمثلية (من خلال رصده لمجموعة من الأمثال العامية المغربية)؛ "إن الكثير من النصوص تشتمل على برنامج حجاجي كامل،وأن الأمثال الفصيحة والعامية،في مجملها،مبادئ حجاجية بالأساس،وأن الخطابات البصرية والصور الإشهارية التي لا تتضمن أي مكون لغوي حجاجية وهي تشتمل على ما دعوناه بالحجاج الأيقوني. فحيث يكون التواصل يكون الحجاج، والعكس صحيح...فلا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل"[2].

ينحو بنا هذا المبدأ الأخير، إلى إبراز أن مهمّة التوقف عند حجاجية النص ليس فقط كشف معناه الباطن، بل محاولة اكتشاف كلّ ما فيه من ثراء وسموّ التجربة الإنسانية؛ أي اكتشاف العالم الذي يحيلنا إليه، بعد أن نكون قد كشفنا عن كلّ القوى الخفية التي كانت تختفي وراءه. فالتحليل الحجاجي للنص، لا يقتصر على الأفعال المباشرة فقط، بل يشمل جميع الأفعال الإرادية والانفعالية، أي جميع ما يدور في النفس من أفعال مستلزمة. فالظاهر، ليس إلا المستوى السطحي للمعنى الذي يختلج في الداخل، والذي يمثّل بطريقة ما حالة

---

(1) لمزيد من التوضيح والتفصيل يمكن العودة إلى كتاب اللغة والحجاج، مرجع مذكور.

(2) الدكتور أبوبكر (العزاوي): الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص: 10.

تشويه وكبت للطاقة والفاعلية وقوة الدفع داخل كل واحد فينا. لذلك لا بدّ من اكتشاف مجالات ما وراء هذا الظاهر في النص، والتعرف على بنياته الرمزية، التي تخاطب اللاّشعور بلغة تقف تراكيبها ودلالاتها خلف مستوى الخطاب المباشر، للوصول في نهاية الأمر إلى تحديد بنياته الداخلية والكشف عن انسجامها وتماسكها.

هذا التماسك هو الملمح الجوهري الذي كان يوجه كل عمل الناقد الحجاجي في قصيدة" العلة"حيث انطلق من فضاءات استراتيجية في البنية النصية كالعنوان والمواضع الداخلية العميقة منطلقا من معطيات جزئية في وصف المعطيات الكلية،والتي يسمح إدراكها بالإحاطة بعالم النص في صفته الكلية، ثم تأكيد ترابطه من خلال وصف العلاقات بين الأجزاء وتحديد نوعها في مستويي السطح والعمق،مما يؤكد ضرورة الانتقال بالوصف النحوي من مجال الجملة الضيق إلى مجال أرحب يمثله الخطاب في صورته النصية والتي هي قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل،ويرتكز بناء النص وانسجامه على جملة من العناصر النصية، تحقق تكامله وتلاحم أبنيته الجزئية منها التركيبية والدلالية والتداولية والإيقاعية، بالإضافة إلى تضافر جملة من القرائن الحالية من طبيعة ثقافية واجتماعية متعددة الأبعاد تسهم بدورها في تحقيق الانسجام، وتُحدث حوارية نصية بين بنية الخطاب وعالمه. فإذا انتقلنا إلى عناصر الربط البانية لاتساق النصوص فمنها البسيط ومنها المركب؛ فمن الأولى حروف العطف،ومن الثانية أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، والضمائر الإحالية، والمركبات الحرفية والظرفية،وقد بات من المعلوم أهمية هذه الروابط الحجاجية في تحقيق تداولية البنى النصية في السياقات المحيلة إليها؛ إذ إنّ دراسة الرّبط في البنية النصية مهم لأن تأكيده يثبت صفة النصية ووحدة البناء، وسيكون الطريق مفتوحا بالنسبة إلى الناقد لكي يحاور نصه،و يؤوله انطلاقا من معرفته المسبقة ورؤيته للعالم.

إن هذا التصور يبني خطة لعمل الحجاج من حيث هو تلازم بين قول الحجة ونتيجتها، لكن قول الحجة والنتيجة في تلازمها تعكس تعددا للحجة في مقابل النتيجة الواحدة على أن هناك تفاوتا من حيث القوة فيما يخص بناء هذه الحجج. فالحجج تكون إذن متفاوتة في قوتها الحجاجية. فالأقوال الاستعارية مثلا تبدو أعلى حجاجيا من الأقوال

العادية وتقوم الاستعارة بدور مماثل لدور بعض الروابط الحجاجية المشار إليها مثل:لكن، بل، حتى. فالحجة التي ترد عادة بعد هذه الروابط تكون أقوى حجاجيا.

إن مفهوم السلم الحجاجي في الخطاب الشعري من حيث تركيزه على مبدأ التدرج في توجيه الحجج يبين أن المحاجة اللغوية لا ترتبط بالمحتوى وإحالة هذا المحتوى على مرجع محدد، بل هي رهينة القوة والضعف الذي ينفي عنها الخضوع لمنطق الصدق والكذب.

إن التحليل الحجاجي الذي قدمه مؤلف الكتاب يقيم حوارية حميمية مع النص الشعري من خلال تفحص مستوياته المشكّلة لنسقه العام، مستكشفا المهيمنات النصية المتحكمة في أغراض دلالاته، بواسطة القراءة الناقدة الباحثة عن معايير الانسجام بين الذات الممثلة بالنص وعالمها المشكل بفضائه.

إن الانسجام والكشف عن المظاهر الحجاجية هو المسعى الحقيقي للمؤلف من خلال تحليله ومقاربته لبعض الأمثال المغربية انطلاقا من تصور يخالف في العمق الرؤية المنطقية الاستلزامية والصورية. هذا التصور حسب المؤلف "لا يمكننا إلاّ من تحليل عدد محدود جدا من الأمثال التي تقوم بنيتها الداخلية على علاقة استلزامية"[1]. ويعود الاهتمام بالأمثال في، اعتقادنا، إلى كونها بناء ثقافيا أدلّ على حياة الشعب لأنها منبثقة منه. وهي حكمتها وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت في حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح فيجتمع في المثل مالايجتمع في غيره من إصابة المعنى وإيجاز اللفظ وحسن التشبيه. زد على ذلك أنّ الأمثال مبطّنة عن قيم معنوية؛ فهي تعكس عقليّة الشعوب كونها مرآه لحياتها من جوانب كثيرة. إنها نتاج فكر وأحداث وتجارب للحياة اليومية. وإصابة معناها لا يمكن أن يكون ممكنا إلاّ عبر مقاربة حجاجية تجعلنا "ندرج المثل في نفس الخانة التي ندرج فيها الشواهد، أي باعتباره حجة جاهزة صناعية أو حجة قالبية،وأن نضعه ضمن" حجة السلطة"، ولن نعتبره أبدا حجة خاصة وعادية"[2].

ولم يكن اختيار المؤلف لسورة" الأعلى"في القرآن الكريم إلاّ لقصد إبرازبعض

---

(1) الدكتور أبوبكر (العزاوي): الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص: 92.

(2) الدكتور أبوبكر (العزاوي): الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص: 10.

الجوانب الحجاجية والاستدلالية للخطاب الإلهي، وهذه المقاربة جعلتنا نستنتج أن غاية القرآن الكريم الإبانة والتبليغ والتمكين للحقائق، وهذه الظواهر الحجاجية وسيلة من وسائل التمكين للحقائق التشريعية والحقائق الغيبية في نفس المخاطب، ومن ثم يكون المنطلق في البحث عن إسهام الظواهر الحجاجية في التمكين لهذه الحقائق، وليس فقط لإبلاغها وللإخبار عنها.

أما الفصل الأخير من الكتاب فقدم فيه المؤلف تحليلا حجاجيا لنماذج من الصور، وتحديدا الصور الإشهارية، وتندرج هذه المقاربة التي، قدّمها المؤلّف، في سياق الكشف عن خصائص البنية الحجاجية للخطاب الإشهاري بوصفه آلية إقناعية تقصد التأثير على الآخر واستمالته، وتدجين عواطفه وفكره تمهيدا لتعديل سلوكه ومواقفه العامة من الأشياء المادية والفكرية المشكلة لرؤية العالم عنده،مع تبيان أنواع الحجج، وكيفية بنائها وترتيبها في الخطاب الإشهاري تحقيقا للترابط والانسجام النصي. وتنبني هذه المقاربة على محورين أساسين أولهما يمهد بالتعريف والتحديد الاصطلاحي للحجاج بوصفه عملية إقناعية واستراتيجية خطابية متميزة من ناحية، وبكونه نصا قادرا على إنتاج وتوليد مقاصد محددة في سياقات مختلفة أما المحور الثاني فيُدقّق ويمعن النظر في مبادئ الخطاب الإشهاري، ومكوناته اللسانية والأيقونية، والأغراض الأساسية التي يحققها المشهر باختياره تقنيات ومبادئ إشهارية معينة تستهدف الزبون (السلعة المادية والمعنوية) فتثير عواطفه،و تستهوي فكره للإقبال على اقتناء المعروض برغبة جموحة، وفي هذا السياق يمكن تحديد كفاءة الخطاب الإشهاري وقوته الإنجازية من حيث هو فعل لغوي كلي ومقامي. كما تهدف هذه المقاربة كذلك، إلى إبراز الفروق بين الحجاج السليم والمغالط في العملية الإشهارية في ضوء مقاربات تطبيقية لبعض الخطابات الإشهارية المتداولة (صور لسجائر أمريكية).

وعموما، فإن آليات التمثيل الرمزي التي يشتغل بها الخطاب الإشهاري بوصفه خطابا إقناعيا،والفلسفة المهيمنة على سنن محتواه الثقافي،تهدف إلى تسييج المواطن المستهلك، وإحاطته بفضاء وجداني محدد سلفا، بغية حمله على استيعاب صورة حية لمفهوم الحياة والواقع المستقبلي المراد التعامل معه ؛ بحيث تأخذ الصورة / الرمز على عاتقها مسؤولية

الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الأفراد في محيطهم الطبيعي وتلبية رغباتهم. والجمهور عامة غير مؤهل بالقدر الكافي لإدراك واستيعاب المواصفات الإيديولوجية لرمز/ منتوج معين، لذلك تجده يثق بالكلمة والصورة لأنه يعتبرهما معا واقعا ممكنا؛ "فعند عامة الناس يمكن للأفكار الأكثر تناقضا أن تتصالح وتتصل فيما بينها... دون أدنى تناقض منطقي"[1].

فالخطاب الإشهاري الدعائي، ينطلق من هذا المبدأ العام، ليمارس الغواية وهي إقناع في نظره بتهيىء المستهلك واستمالته واستدراجه بحيث يتوجه إليه ساعيا إلى التماهي والتصالح معه بدعوى أنه حريص على خدمته وإرضاء رغباته، فيكرّس بذلك أسطورة الصديق الحميم الذي لا يجوز خذلانه أو الافتراء عليه.

لقد أراد المشهِّر من خلال منتوجه ونقصد رمزه الإشهاري تغيير وتعديل إدراكنا وأحكامنا على الأشياء. وإن الإنسان يتواجد في عالم يتلقى فيه كمّا هائلا من الرموز والإيحاءات المتحيزة، ويستجيب لها؛ ومن خلال التفاعل التلقائي سواء كان سلبيا أو إيجابيا ستصبح هذه الرموز جزءا لا يتجزأ من حياته اليومية. وبعبارة أخرى، إن بعض هذه الرموز التي يعتمدها الخطاب الإشهاري مثلا قصد التأثير على أفكار وسلوك أناس آخرين وتوجهاتهم فيما يتعلق بالقيم والمعتقدات التي يروّج لها هذا الخطاب، حاول الناقد فضح زيفها ومغالطاتها، وفكّ سنن محتواها الثقافي والإيديولوجي،بعد أن كشف الآليات الإقناعية التي تعتمدها وتتوسل بها.

إن فضح المؤلف لهذا الزيف يعدّ في نظرنا رسما أوليا لمعالم خارطة طريق ذات منحى حجاجي وتأويلي في الوقت نفسه تتحكم فيها فرضيات قرائية تعتمد الإقناع؛أي إنها تُسقط انطلاقا من معطيات هذه الرموز،مسيرات تأويلية تطمئن إليها الذات المتلقية. فالحجاج في ظل المقاربة التداولية المعتمدة يعدّ سيرورة تساهم في تحويل العالم من حالته العديمة الشكل إلى ما يحدد الأشكال المختلفة للإدراك، انطلاقا من التمفصلات الدلالية والتداولية الممكنة. إنه يحوّل العالم إلى أشكال وموضوعات ثقافية تلعب دور البرنامج، وتشتغل باعتبارها تعليمات وآليات تهدف إلى خلق وضعيات جديدة يستطيع من خلالها

1) Freud(S):Essais de psychanalyse;trad.;Bourguigno et; A.Cherki; P.B.P .1982.P:135.

الفرد بناء عالمه بصورة تجعله قادرا على فهم تجربته وتعميمها وتأويلها وتنظيمها في أشكال وصيغ قابلة للتحقق؛ أي إنه ينتقل من إنتاج الخطاب إلى تفسيره وتأويله. إننا بمعنى آخر نصوغ من خلال هذا السلوك الحجاجي الجديد الواقع الذي نعيش فيه والعالم الذي نرغب أن نحياه.

فعبر فصول الكتاب،حاول الناقد واللساني أبو بكر العزاوي أن يسند للنظرية الحجاجية بعدها النقدي في كشف مغالطات وأوهام وخدع بعض الخطابات التي تتقمص مظهر البراءة الطبيعية والواقعية، مثل الخطاب الإشهاري.

إن الأسئلة التي يطرحها المؤلف على النص وكذا المسيرات التي يحاول رسمها ليلج من خلالها عالم النص تحقيقا لانسجامه النهائي لا تنطلق من فراغ، بل تستند إلى افتراضات وأحكام مسبقة في القراءة. إنها نتاج زاوية نظر معينة تعتبر "أن العناصر الأيقونية تعالج بنفس الطريقة التي تعالج بها الوحدات اللغوية في البنية التصورية، فهذه البنية تعتبر المستوى الوحيد للتمثيل الذهني الذي تعالج فيه وبشكل متماثل ومتلائم كافة المعلومات اللسانية والحركية والحواسية"[1].

إن تأويل الأنساق الثقافية في كتاب "الخطاب والحجاج" لا يُدرك إلاّ باعتباره مشاركة وحوارا بين آفاق تأويلية متباينة. من خلال هذا التصور ستبدو اللغة، انطلاقا من خصائصها التداولية، ممارسة إنسانية كونية يشكل التاريخ، باعتباره زمنية إنسانية، أفق تحيينها. فجوهر اللغة لا يكمن في الكشف عن كون مرجعي أو ذهني معطى بصورة نهائية، فاللغة ليست مستودعا ولكنها إنتاج، والإنتاج معناه الخروج من الدائرة الضيقة للتعيين المرجعي إلى أكوان دلالية وتداولية تحيل على الثقافي والرمزي، كما أن المعنى لا يوجد خارج مدار ما ترسمه اللغة.

إن قراءتي لهذا الكتاب قادتني إلى الاستنتاجات الآتية:

1- إن مجال الحجاج الفعلي ليس هو القول أو الجملة، بل الخطاب في بعده الاستعمالي.
2- امتداد الخطاب الحجاجي إلى كل معرفة؛ فكل معرفة هي معرفة حجاجية.

---

(1) الدكتور أبوبكر (العزاوي): الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص: 116.

3- قدرة الخطاب الحجاجي على نقل كل المشاريع والمكتسبات العلمية إلى اللغة؛ ومن هنا فإنه يقيم علاقة ملموسة بين المعرفة والعالم المعيش.

4- إن التطبيقات الحجاجية تسهم في إثبات نصية الخطابات الشعرية المنجزة وهي لا تفسر كيفية بنائها ونموها الموضوعاتي وأدوات اتساقها فحسب، بل تفسر نوعيه العلاقة التواصلية القائمة بين المتكلم (المبدع) والمتلقي عبر النص الإبداعي المنتج، وكذا نوع الأفعال اللغوية المنجزة في مقامات التواصل المختلفة.

5- إن التحليل الحجاجي يعتمد على تقديم عدد كبير من الحجج مختارة اختيارا حسنا ومرتبة ترتيبا محكما لتترك أثرها في المتلقي، وهذه الخاصية تجعله يتميز عن البرهنة.

6- إن الحجاج يتعلق بالخطاب الطبيعي من جهتي الاستعمال والمضمون، فهو ذو فعالية تداولية جدلية.

يسعى الحجاج في دلالته الفلسفية إلى الوصف والإظهار والكشف عن المنطق الداخلي للخطاب لمعرفة مدى تماسك وانسجام عناصره، ومدى صحة حججه وأدلته، وهي النتيجة التي ينتهي إليها الدكتور أبوبكر العزاوي في تحليله ودراسته لطبيعة الحجاج في القرآن والشعر والمثل والإشهار.إن معالجة الناقد لهذه الأنساق قادته إلى تأويل/ حجاجي ذي طبيعة شمولية؛ والشمولية لا تلغي التاريخي والثقافي، بل الشمولية تتبدى في امتلاك الناقد لخطاب معرفي قادر على الاستيعاب والتفاعل والحوار المعرفي ضمن تصور نظري جديد هو حصيلة ونتاج لمثاقفة منتجة.

ولعلّ من نقط قوة الكتاب هو اعتماده وتوظيفه لآليات حجاجية تداولية لتحديد مختلف الظوابط والقواعد التواصلية وتبيان طرق الإقناع وتفصيل القول فيها من خلال القرآن والشعر والمثل والإشهار، وليؤكد على غرار هابرماس أن بناء النظريات وتطورها لا يمكن أن يتم إلاّ ضمن شروط الحجاج

في الختام لا يسعني أن أقول إلاّ ما قاله بول ريكور، إن الكتابة تسجيل لقصدية القول. هل سجلت هذه الكتابة نية ما أرادت أن تقوله كتابة؟ إن شيئا هاما يحدث حينما تحل

الكتابة محل الكلام، إنها تستدعي قارئا، ليصير المعنى الذي تحمله من إنتاج الكاتب والقارئ معا. إن الكتابة تقبل الانفصال عن قصد مؤلفها، فأن نقرأ معناه أن نسير في الاتجاه الفكري الذي تفتحه الكتابة أمامنا. فالكتابة انفتاح، إنها تفتح المجال أمام ذات القارئ لتفعل فعلها، فعل تملّك المكتوب. إن القراءة هي ذلك الفعل الملموس الذي تكتمل فيه وجهة النص[1].

---

(1) Paul (Ricoeur): Du Texte à L'action; Essais d'herméneutique II.Ed ;Seuil;1986 . Page:159.

حجاجية الصورة الإشهارية

عبد القادر ملوك

باحث بجامعة عبد المالك السعدي تطوان

"إن الهواء الذي نستنشقه مكون من الأوكسجين والنيتروجين والإشهار".

(روبير كيران)

مقدمة:

أصبح وضع الإنسان اليوم مختلفا عما كان عليه بالأمس القريب، فقد وجد نفسه يعيش في عالم تتعدد فيه الخطابات وتتنوع، تمارس عليه تأثيرها بكيفيات متفاوتة، وتتحكم في نمط سلوكه وتصرفه بحسب قدرتها على النفاذ إلى قوالبه الذهنية وملامسة جوانبه الانفعالية، إذ المرء ليس عقلا خالصا ولا انفعالات خالصة، بل هو مزيج بين الإثنين، بنسب تتفاوت بحسب طبيعة كل فرد فرد[1].

ولئن اختلفت هذه الخطابات وتنوعت أشكالها ومضامينها سواء كانت سياسية، أو دينية، أو إشهارية، أو إعلامية...الخ، فإنها تتوحد جميعا في كونها ملفوظات موجهة إلى الغير بغرض إفهامه قصدا معينا[2]، يحق له أن يقبله أو يدفعه بناء على القوة الاستدلالية (الحجاجية) لمنتج الخطاب.

---

[1] من الباحثين من يرد هذا التصور الذي يرى الإنسان مركبا من ملكات بعضها منفصل عن بعض انفصالا تاما [العقل من ناحية والهوى من ناحية أخرى] إلى أفلاطون في تصوره لقوى النفس.

(ينظر عبد الله صولة، **الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة" لبيرلمان وتتيكا**، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، د.ت، ص 303).

[2] عبد الهادي بن ظافر الشهري، **استراتيجيات الخطاب**، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 2004، ص 37.

ولَمّا كان اهتمامنا منصبا في هذا المقام على الخطاب الإشهاري عامة والصورة الإشهارية تحديدا، فإننا سنحاول أن نرصد حجاجية هذا الصنف من الخطاب من منطلق يتخذ كأرضية له المقاربة التي قامها بها الدكتور أبو بكر العزاوي في فصل من كتابه الموسوم بـ "الخطاب والحجاج" يحمل عنوان "الخطاب الإشهاري: الصورة الإشهارية والحجاج الأيقوني". على أننا سنرجع ذلك ريثما نعرض للتعريف بالمصطلحات المتضمنة في عنوان البحث، حتى يتسنى لنا إنزالها بكل حمولاتها المفاهيمية في إطار الإشكالية المزمع معالجتها ضمن هذا البحث، وهذا الإطار يُلزمنا النظر في مصطلحين اثنين هما: الحجاج، والصورة الإشهارية، ومن ثم تبيان العلاقات القائمة بينها انطلاقا من التساؤلات التالية:

- ما المقصود بالصورة الإشهارية؟ وما هي الأدوار التي تؤديها داخل الخطاب الإشهاري؟
- ما الحجاج؟ وكيف يمكن أن يكون شيء منه في الخطاب الإشهاري عامة، والصورة الإشهارية خاصة؟

1- مفهوم الصورة الإشهارية:

يعرف الإشهار عادة بأنه :"تقنية في التواصل غايتها تسهيل انتشار بعض الأفكار أو العلاقات ذات الطبيعة الاقتصادية بين أشخاص يمتلكون سلعة أو خدمات يقترحونها على آخرين مضطرين لاستعمالها"[1]، وبأنه "تواصل مؤدى عنه، يعتمد خطاطة تواصلية وحيدة الاتجاه تتحقق من خلال وسائط وأسناد متنوعة، وذلك من أجل الترويج لمنتج أو ماركة أو شركة أو قضية أو مرشح يمكن التعرف عليه من خلال الإرسالية"[2].

وما يستشف إجمالا من هذين التعريفين هو أن الإشهار نشاط تواصلي من طبيعة خاصة، يختلف عن باقي الأشكال التواصلية الأخرى من حيث كونه طريقة في الإقناع وليس

(1) تعريف C.R.Hass ورد ضمن مؤلف سعيد بنكراد، الصورة الاشهارية آليات الإقناع والدلالة، المركز الثقافي العربي، 2009، ص 45.

(2) تعريف Armand Dayan ضمن المرجع نفسه، نفس الصفحة.

مجرد ناقل "لخبر غفل يصف بضاعة أو وضعا أو خدمة أو أفكارا"[1]. ونعثر لدى الباحثين على تصورين عامين للإشهار؛ الأول يطلق عليه "الإشهار الخشن" وهو خطاب مباشر عار من أية صور استعارية، كونه يدعو الناس بلغة صريحة ومباشرة إلى اقتناء منتوج ما، لذلك ينعت في الغالب بـ"الإشهار التقريري" لأنه لا يأخذ في الاعتبار سوى الخصائص الخارجية للمنتوج وثمنه، وهي الجوانب التي تهم المستهلك بالدرجة الأولى، ومن بين صيغه "تخفيضات هامة"، "المؤسسة الفلانية تكسر الأثمنة"، "نسبة الفائدة صفر"...الخ. أما النوع الثاني من الإشهار فيسمى بـ"الإشهار الإيحائي" أو "الإشهار الرقيق"، وهو إشهار لا يستهدف المادة المراد إشهارها بصورة مباشرة، بقدر ما يتوجه نحو الرغبات الدفينة التي لا تصلها اللغة المجردة، ويستدعي وضعا تتجسد من خلاله الاستيهامات، فهو يجعل من المنتوج قيمة حياتية، وليس مجرد مادة للاستهلاك[2].

يعتمد البناء الإشهاري على استراتيجيات عديدة مفكر فيها ومخطط لها يعتمد في بلورتها على معرفته بطبيعة الثقافة التي يشتغل داخل فضائها، وعلى دراسة دقيقة لسيكولوجية المستهلك ولحجم السوق ومحدداته... الخ. فالإشهار ليس عملية تتم بطريقة اعتباطية أو كيفما اتفق، بل له ضوابطه التي ازداد الاهتمام بها مؤخرا لسببين اثنين؛ يتعلق أولهما بالمعدل القصير لحياة المنتجات بفعل المنافسة القوية والإيقاع السريع للحضارة المعاصرة، في حين يرتبط ثانيهما بالتفكير في الكيفية التي يمكن بموجبها تكييف انفعالات المستهلكين على اختلافها وربطها بمنتج بعينه، ولعل هذا ما يفسر حجم الاستثمارات التي بات يشهدها عالم الإشهار والذي يقدر بملايير الدولارات بهدف شراء زمان وفضاء خاصين[3].

وقد عرف التاريخ الحديث للإشهار جملة من أدوات التواصل، كانت جميعها تهدف إلى بلورة تقنيات إقناعية بغاية إيجاد أيسر السبل وأكثرها فعالية للوصول إلى وجدان

---

(1) سعيد بنكراد، الصورة الاشهارية، مرجع سابق، ص 54.

(2) نفسه، ص 52.

(3) نفسه، ص 53.

المستهلك وتحفيزه على الشراء. وتعتبر الصورة من أكثر هذه التقنيات نجاعة وتأثيرا، إذ منذ اختراعها كوسيلة للتعبير، أصبحنا أمام "لغة من نوع جديد وخطاب حديث له صفة المفاجأة والمباغتة والتلقائية مع السرعة الشديدة ومع قوة المؤثرات المصاحبة وحدية الإرسال وقربه الشديد حتى لكأنك في الحدث المصور من دون حواجز"[1].

كما أصبحنا في زمن ثقافي وسمه دي سيرتو في تعبير جميل بزمن "ملحمة العين"، طغت فيه ثقافة الصورة بوصفها متغيرا جذريا في فعل الاستقبال والتأويل، يكشف التمعن فيه عن السرعة الكبيرة التي بات يتم بها الإنتقال من مفعول الصورة كخطاب ادعاء يخلق قبولا أوليا إلى خلق رضى تراجعي وموقف مضاد بفعل قيام الصورة النقيض. هذه المراوحة بين الصورة والصورة النقيض في تتابع هستيري للصور أربك المستهلك وأخضعه، بحسب تعبير ج.بودريار J.Baudrillard، إلى نوع من التنميط الثقافي والاجتماعي جعل الإشهار التلفزيوني هو الخطاب الأهم في صناعة الذوق وتمذجة الحياة عبر دعوى التميز والتفرد. فالإشهار يقول للمتلقي إنك لكي تتميز كن مثل غيرك واستعمل منتجنا، وهذا لا يقضي على الخصوصية الاجتماعية فحسب بل إنه يقضي، أيضا، على القيم الثقافية والذهنية في الإختيار والتذوق والتميز[2].

لقد أصبحت الصورة الاشهارية قطب الرحى في التواصل الفعال[3] بالنظر إلى مساهمتها بكل دوالها ومدلولاتها الإيحائية في استلاب الإنسان المتلقي، وتحويله إلى آلة استهلاكية مستقبلة ليس إلا، "لأن طابعها الأصيل يمنحها قوة تواصلية لا مثيل لها"[4]. إن ما يمنح الصورة كل هذه المكانة داخل ميدان الاشهار كقوة تواصلية بامتياز هو كونها تتضمن بل تستحوذ على حقيقة المنتوج المراد تسويقه في شكل انفعالات هي ما يتسرب إلى وجدان

---

(1) عبد الله الغدامي، الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 2004، ص 24.

(2) J.Baudrillard : Selected writings 6-7 ed.By M.Poster. Stanford. University Press California 1988.

(3) يميز سعيد بنكراد بين الخبر والتواصل والتواصل الفعال (الميدان الاشهاري يدخل ضمن النوع الثالث) فالأول "طاقة مضمونية محايدة والتواصل تبادل متكافئ بين قطبين، أما التواصل الفعال فهو تضمين الإرسالية قوة إقناعية غير مرئية، هي الأساس في كل تماس بين طرفين". سعيد بنكراد، مرجع سابق، ص 111.

(4) Régis Debray, Vie et mort de l'image, op. cit, 1992, p 60.

المستهلك، فما يتلقاه المشاهد في حقيقة الأمر هو سلسلة من المثيرات البصرية التي تتحول "من خلال التسنينات الثقافية المتنوعة، إلى مواقف أو انفعالات أو ردود أفعال لاواعية تجاه ما يجسده المنتج"[1].

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن القيمة الإقناعية للصورة في الخطاب الإشهاري لا تتحقق نجاعتها إلا في ضوء النسق اللغوي؛ فأنماط الحركة واللباس والموسيقى المؤثثة لفضاء الصورة لا تكتسب صفة البنية الدالة إلا إذا مرت عبر محطة اللغة. على النقيض من هذا الموقف يمكن أن نرى في الصورة نسقا دلاليا قائما بذاته، لها وظيفة أساسية في التواصل، وهي تحتوي على مؤثرات بلاغية قوية، إذ ليست البلاغة حكرا على النص اللغوي المكتوب أو المنطوق بل إن الصورة أيضا تتضمن أحداثا بلاغية، لذلك كان يمكن القول بلا جدوى وجود خطاب لغوي مرافق لمضمون الصورة، لولا أن ترك الصورة بمفردها كلغة وحيدة داخل الخطاب الاشهاري يمكن أن يترتب عنه جموح الخيال الفني بالمتلقي فتكثر التأويلات، مما قد يولد الابتعاد عن القصد من الصورة الاشهارية. لذلك ينبغي النظر إلى العلامة اللغوية في الخطاب الإشهاري من زاوية وظيفية بحتة تكمن في تحديد دلالة الصورة وضمان تحقق المقاصد الاشهارية المرجوة.

2- مفهوم الحجاج[2]:

من المؤكد أن المرء لا يتوسل بالحجاج ولا يعتمده إلا بغرض تحقيق الإقناع، فليس هناك حجاج مجاني بلا غاية وقصد؛ فحين ننهض للدفاع عن قضية أو أطروحة ما، أو نسعى إلى تقويض ودحض أخرى، فإن محاولتنا هذه تترافق مع رغبة التأثير في المتلقي، بحمله على قبول ما نرتضيه، أو صرفه عن قبول ما نرفضه ونتبرأ منه. وهذا الطرح يتقاطع مع تعريف الحجاج باعتباره "طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي

---

(1) سعيد بنكراد، مرجع سابق، ص 153.

(2) لا نريد ههنا القيام بجرد للتعاريف التي تناولت مصطلح الحجاج، وندخل في سرد إيتيمولوجي له يكشف عن جذوره اللغوية والاصطلاحية، فقد ألفت في العشرية الأخيرة، كتب ومقالات عديدة تتناول الحجاج بالدرس النظري، وتقارب بعض جوانبه في وضعيات تطبيقية مخصوصة.

تعرض عليهم أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة"[1] بمعنى أن إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج"[2]

لقد تبلور الحجاج منذ بداياته الأولى -وفق ما ذهب إليه ميشيل ماير (Michel Meyer)- في كنف العقل، وظل ملازما له، مهتديا بهديه، قبل أن تستفرد به الفلسفة ثم العلم من بعدها، إذ تحجبه الأولى بتحويله إلى استدلال صوري، بينما يطمس الثاني معالمه بإلباسه ثوبا رياضيا صارما[3]. وقد لزمنا أن ننتظر القرن العشرين لنشهد استقلالية مبحث الحجاج واستفراده بموضوع خاص به، اختزل بموجبه في كونه ظاهرة لغوية صرفة تتطلب الوقوف عند الخطاب واستكناه بنيته التركيبية والدلالية، ليس لذاتهما، بل لغاية تتجاوزهما نحو الوقوف على الكيفية التي يساهم بها اختيار معين للألفاظ في توجيه الخطاب والتحكم فيه. وتبعا لذلك فإن كل خطاب هو في المقام الأول خطاب تذاوتي *(intersubjectif)* يحضر فيه الباث والمتلقي في إطار تفاعلي (واقعيا كان أو افتراضيا)، مادام كل خطاب قد أنتِج إما تعضيدا وتدعيما لأطروحة ما أو تفنيدا ودحضا لأطروحة مناقضة[4].

ولقد ارتبطت هاتان العمليتان، الإثبات والدحض، منذ عهد الفلاسفة اليونان الأوائل، بسلطة الخطاب ذاته وبآلياته الداخلية في تحقيق الإقتناع *(Conviction)*، ولم ترتبط

---

(1) حافظ اسماعيلي علوي، **الحجاج مفهومه ومجالاته**، الجزءالأول، إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحدبث، الأردن، 2010، ص: 4.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، **استراتيجيات الخطاب**، مرجع مذكور، ص 456.

(3) *Michel Meyer, **Qu'est ce que l'argumentation**, Librairie philosophique J.Vrin, Paris, 2008, p: 11.*

(4) وفق ما نص عليه (ميخاييل باختين)، حيث قال: "كل تلفظ حقيقي، مهما كانت صيغته، يتضمن دائما، بصورة أقل أو أكثر وضوحا، إعلاما عن اتفاق مع شيء ما أو رفضا لهذا الشيء."

*Bakhtine Mikhail, **Le Marxisme et la philosophie du Langage**, Paris, Minuit, 1977, p : 116.*

إن هذا البعد التذاوتي في العلاقة الحجاجية هو الذي يبرر اقتران مفهوم اللوغوس بشيء أقرب إلى الحساب "كحساب يوم الدين، وحساب اللوغاريتم، وحساب معسكر يعد قوته ضد معسكر آخر. الحساب مجملا هو العقل. وهو العقل إلى درجة أن لينيتس Leibniz قد عمم مفهوم العقل ووضحه بكلمة التبرير بمعنى « rendre raison » وهو إعطاء الحساب وإظهاره بالنسبة لمن يطالب بالحساب، أي بوجه من الوجوه تقديم الحجج العقلية الدامغة الكفيلة برفع الشك عن الطرف المطَالب بالحساب حتى يثاب أو يعاقب."

(انظر مقدمة علال سيناصر لكتاب "**الكتابة والاختلاف**" لجاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، منشورات دار توبقال، الطبعة الثانية 2000، ص 9).

بأشياء أخرى من شأنها أن تمارس الحمل على الإقناع (*Persuasion*) الذي نظر إليه عادة على أنه عنف وتسلط بالكلام.

3- قراءة في فصل "الصورة الإشهارية والحجاج الأيقوني" من كتاب الخطاب والحجاج:

أ- تقديم الكتاب:

على امتداد الصفحات المائة وثلاثة وأربعين المؤلّفة لمتن كتاب الخطاب والحجاج، قام الدكتور العزاوي بتطبيق الحجاج بالمفهوم الذي تتبناه نظرية الحجاج في اللغة، والذي يتعلق بمعالجة لسانية للحجاج، على مواضيع مختلفة ومتنوعة من همت على سبيل المثال (الخطاب القرآني ممثلا بسورة الأعلى، الخطاب الشعري مجسدا في قصيدة بعنوان "العلة" للشاعر المعروف أحمد مطر، الخطاب المثلي مجسدا في بعض الأمثال الشعبية المتداولة داخل الثقافة المغربية، ثم الخطاب الإشهاري ممثلا في الصورة الإشهارية والحجاج الأيقوني). ومقتضى هذه المقاربة الحجاجية أن الحجاج ليس شيئا تاليا مضافا للغة بقدر ما هو منسوج في بنية اللغة ذاتها، فنحن نتكلم عامة، حتى لو كان كلامنا مجرد تبليغ لأخبار، بقصد التأثير[1] وحين نتكلم نوجه، وبهذا المعنى يصير متعذرا إيجاد كلام خال من شحنة حجاجية، مادامت "اللغة مشبعة بالقيم الحجاجية التي تحضر جنبا إلى جنب في دلالة الجملة مع القيم الخبرية"[2]. فهذه المقاربة تقر بأن الحجاج هو "ظاهرة لغوية نجدها في كل قول وفي كل خطاب، سواء كان الخطاب فلسفيا، أدبيا، دينيا، اقتصاديا أو سياسيا...فنحن نعثر عليه في الأسماء والأفعال والصفات والظروف والحروف، ونجده في التراكيب النحوية والصور البلاغية. نجده باختصار في كل ظواهر اللغة بشكل أو بآخر[3]. ويمكن أن نقول في تعبير جامع إن الحجاج وفق المقاربة التي يتبناها الدكتور العزاوي هو المنطق الطبيعي الذي نجده في

---

(1) أبو بكر العزاوي، **اللغة والحجاج**، دار الأحمدية، الدار البيضاء، 2006، ص 8.

(2) رشيد الراضي، **الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية**، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الثاني، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص 87.

(3) أبو بكر العزاوي، **الخطاب والحجاج**، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2010، ص 37.

كل اللغات البشرية، ونجده في كل النصوص والخطابات التي تنجز باللغة الطبيعية بمختلف أنواعها وأنماطها[1].

ب- ملخص الفصل:

اشتمل الفصل موضوع قراءتنا على عشرين صفحة في الجمل قاربت مجموعة من القضايا أبرزها: مفهوم الحجاج – البنية الداخلية للصورة – الخلفية المعرفية (الايديولوجية) للصورة – للمزاوجة بين المكونات اللغوية والمكونات الأيقونية الخ. كما ربط بين الجوانب المعرفية التصورية للصورة وجوانبها الحجاجية الاقناعية، متوسلا بما قدمه جاكندوف (Jackendoff) بخصوص البنية التصورية في مقاربة الجانب الأول، وبنظرية الحجاج في اللغة في التصدي للجانب الثاني. وهو طرح حاول من خلاله الكاتب تجاوز الإطار المرجعي الذي تبنته اللسانيات البنيوية أو السيميولوجيا أو البلاغة التقليدية أو الحديثة، والبحث في موضوعات جديدة كما هو الحال مع ما بات يعرف بالحجاج الأيقوني القائم على دراسة الصورة الخالية من أي وسم لغوي باستثناء حضور إسم المنتج أحيانا في حالة الصورة الإشهارية.

ولقد رسم الكاتب لهذا الفصل من الكتاب أهدافا خاصة تكشف عن سبق وريادة في هذا المضمار تعبر عنها الأسئلة التالية:

- هل تنطوي الصورة الإشهارية على حجاج؟ وما هي طبيعته وأهم مظاهره إن وجد؟
- هل المكونات الأيقونية لها طبيعة حجاجية؟
- ثم أي منهج ندرس به الخطاب البصري، هل هو المنهج ذاته الذي ندرس به الخطاب اللغوي، أم ننتهج مسلكا مغايرا يتماشى وماهية الخطاب البصري وطبيعته؟

لقد تم تكريس منظور للصورة يحددها باعتبارها مكملا وسندا للخطاب اللغوي في تحقيقه للإقناع، أو باعتبارها في أحسن الأحوال شاهدا محايدا على الواقع، وهاهنا تكمن

(1) أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 9.

جدة وطرافة ما قام به الدكتور العزاوي، فقد نظر في المد الجارف للصورة في وقتنا الراهن ومظاهر تأثيرها القوي على الجمهور المتلقي، فتبين له أن للصورة مداخلها ومخارجها، ورأى أنها حمالة لدلالات رمزية قد تقول عن موضوعها ما لا تستطيع نصوص بأكملها قوله، فهي وإن كانت -بلغة أوستين- ملفوظ تقريري ضعيف، إلا أنها بالمقابل ملفوظ إنجازي قوي، فكل صورة توضع للتداول هي موجهة، في حضارتنا، للإقناع أو لحصول صاحبها على المال والشهرة أو خلافه[1].

وعلاوة على ذلك، تبين للكاتب أن نظرية الحجاج في اللغة قابلة للتطوير والتوسيع لتشمل مختلف النصوص والخطابات بما فيها الخطاب الإشهاري الذي يهمنا أمره هنا، نظرا لتوفره على المستويات الثلاثة التي نلفيها حاضرة داخل كل خطاب؛ يتعلق الأمر بالمستوى المعرفي الذهني والمستوى الذاتي والمستوى السوسيوثقافي. وهذا التوسيع اقتضى من الباحث توسيع مفهوم الحجة حيث لم يعد يقتصر على جانبه اللغوي الصرف بل انفتح على باقي المكونات الأخرى غير اللغوية ليغدو بذلك الحجاج مرتبطا بكافة أشكال التواصل، ماحذا بالباحث إلى اعتماد نظرية الدلالة التصورية كما نجدها لدى جاكندوف لكونها تدافع عن طرح يجعل البنية الدلالية مجرد جزء من البنية التصورية التي تسمح بمعالجة كافة أشكال التواصل اللغوي والأيقوني بطريقة موحدة وأدوات متماثلة. فأصبحت العناصر الأيقونية (الأشياء والألوان...) بموجب ذلك تشكل حجاج ونتائج العملية الحجاجية كما مثلت في الوقت نفسه عناصر تصورية على مستوى البنية التصورية. هذا التصور مثل له الكاتب بأمثلة عديدة في متنه جسد من خلالها التمفصل القائم بين المكونات الأيقونية التي من طبيعة تصورية في تحقيق حجاجية المنتوج؛ فالذي يوظف باعتباره حجاجا لصالح النتيجة المستهدفة هو القيم الإيجابية للعناصر الأيقونية الموظفة في الصورة، وهي تنتمي إلى سجلين متكاملين؛

(1) غي غو تيي، الصورة: المكونات والتأويل، ترجمة وتقديم سعيد بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012 ص 292.

إنها من جهة عناصر أيقونية في مستوى الصورة وعناصر تصورية في مستوى البنية التصورية من جهة أخرى بحكم ارتباطها بالادراك والتصور[1].

عندما تشتمل الصورة على مكونات أيقونية فقط (وربما مع اسم المنتج) فهنا توظف الأيقونات باعتبارها حججا، ونتحدث بالتالي عن الحجاج الأيقوني[2].

أما إذا اشتملت الصورة فضلا عن المكونات الأيقونية على مكونات لغوية (جمل وأقوال) فإن الاثنين معا، حسب العزاوي، يوظفان حجاجيا وأن التكامل بينهما يهم الجوانب الإخبارية الإعلامية كما يهم الجوانب الإقناعية الاستدلالية. إلا ان النص اللغوي يؤدي وظيفة أساسية تتمثل في تحديد الوجهة الحجاجية للخطاب، وتتمثل كذلك في تقييد وحصر الإمكانات التأويلية الدلالية والحجاجية. أما الربط بين الحجة والنتيجة داخل العلاقة الحجاجية فتوكل إلى ضامن (المبادئ الحجاجية بتعبير ديكرو) نعثر عليه ضمن البنية الداخلية للصورة لإشهارية له صلة في الغالب بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التخاطبية والتواصلية[3].

ولقد ختم الدكتور العزاوي فصله هذا بسؤال مهم هو كالتالي:

كيف تتم معالجة العناصر الأيقونية في البنية التصورية؟ هل تتم ترجمتها إلى عناصر دلالية؟

عرض الكاتب في سياق إجابته عن هذا السؤال المركب لموقفين متباينين؛ الأول تتبناه الباحثة الفرنسية (Odile Le Guern) وتدافع فيه عن موقف مفاده أن العناصر الحجاجية يتم تحويلها من قبل المتلقي إلى مجموعة من البنيات القضوية، من منطلق أن الصورة تمثل مركبا لابد من تحليل عناصره والفصل فيها بين الموضوعات ومحمولاتها وصفاتها. ما يفيد بأن العمل الحجاجي يرتبط في المقام الأول بالمتلقي الذي ينشئ البنيات القضوية، أما مرسل الرسالة البصرية فيتحدد دوره الحجاجي في تقييد التوجيه التأويلي

---

(1) العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 108.

(2) نفس المرجع، ص 109.

(3) نفس المرجع، ص 111.

للصورة للمتلقي الذي يستند أساسا على البنية الداخلية للصورة واستعمال الايديولوجيا، بالإضافة إلى المزاوجة بين الرسالة البصرية والنص اللغوي[1].

لا يتبنى الدكتور العزاوي هذا الموقف بفعل غموضه وعدم تأكيد نجاعته وفعاليته في أنماط تواصلية أخرى، ويتبنى في المقابل الموقف القاضي بأن العناصر الأيقونية تعالج بنفس الطريقة التي تعالج بها الوحدات اللغوية في البنية التصورية، وهذا التصور يعود إلى جاكندوف، كما سبق ذكره، يرى العزاوي إمكانية تعميمه على كثير من الظواهر.

خاتمة:

لا يسعنا في ختام هذه الورقة إلا أن نثمن المجهود الكبير الذي كرسه الدكتور أبو بكر العزاوي لموضوع الحجاج على مدار ثلاثين سنة تقريبا، كان فيها قارئا وكاتبا ومجددا، تمخض عنها رؤية أكثر رحابة ودقة لمقاربة موضوع الحجاج، أرسى خلالها أسس منهج جديد يمتح من عدة حقول معرفية: التداوليات ونظريات النص ولسانيات الخطاب والبلاغة والمنطق؛ كما اجترح خلالها مفاهيم ومصطلحات جديدة مثل البرنامج الحجاجي والاستراتيجية الخطابية والحجاج الأيقوني والانسجام الحجاجي التداولي، وارتاد فيها أراضٍ بكر في مجال الحجاج لم تطأها أقلام عربية من قبل (المثل، القرآن، الصورة الأيقونية...الخ). ومع ذلك لا زال قلم الدكتور العزاوي لم يجف، وتوهجه لم يخفت في تحليل المزيد من النصوص والخطابات عسى أن تتبين للباحث ملامح هذا المنهج بوضوح ويتأتى له توظيفه بسلاسة وبدقة.

---

[1] نفس المرجع، ص 115.

المراجع المعتمدة:

- العزاوي، أبو بكر: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت – لبنان، 2010.
- العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، دار الأحمدية، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
- بنكّراد سعيد: الصورة الاشهارية آليات الإقناع والدلالة، المركز الثقافي العربي، 2009.
- دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، منشورات دار توبقال، الطبعة الثانية 2000.
- الراضي رشيد: الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الثاني، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
- الشهري، عبد الهادي ابن ظافر: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 2004.
- صولة، عبد الله: الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة-" لبيرلمان وتتيكا"، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية. من أرسطو الى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، د.ت).
- علوي، حافظ اسماعيلي: الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزءالأول، إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحدبث، الأردن، 2010.
- الغدامي، عبد الله: الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 2004.
- غوتيي، غي: الصورة: المكونات والتأويل، ترجمة وتقديم سعيد بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012.

- *Bakhtine Mikhail : **Le Marxisme et la philosophie du Langage**, Paris, Minuit, 1977.*
- Baudrillard.J : **Selected writings 6-7** ed.By M.Poster. Stanford. University Press California 1988.
- *Meyer Michel : **Qu'est ce que l'argumentation**, Librairie philosophique J.Vrin, Paris, 2008.*
- *Régis Debray : **Vie et mort de l'image. Une histoire du regard en occident**, paris,*

حجاجية الخطاب في اشتغال د. أبي بكر العزّاوي
دراسة في الآفاق والحدود

د.عبد الفضيل ادراوي

تطوان المغرب

الاجتهاد الطموح

ينخرط الباحث المغربي الدكتور أبو بكر العزاوي[1]، ضمن اجتهاد معرفي معاصر لا تخفي أهميته في سياق انشغالات فكرنا العربي الراهن، بل إن اجتهاده ليمكن عَدُّه بحقّ سيراً حثيثاً وواعياً على خطى تأسيس مشروع خاص في مجال تحليل الخطاب. فقد استفاد الرجل من تلمذته لأحد أبرز العلماء الغربيين في مجالات الدرس اللساني المعاصر، وأحد المؤسسين الفعليين لمباحث الدلالة والتداوليات في أوروبا. وأخذ على عاتقه أن يؤسس لمشروع البحث الحجاجي في المغرب وفي العالم العربي، مركزا على الجامعة، فكان أول أكاديميّ يرجع إليه الفضل في السبق لاشتراع البحث في قضايا الحجاج برحاب الجامعة المغربية، مقترحا إدراج نظرية الحجاج ضمن المقررات الدراسية. كما ولم يخف صوته الصادح في المنتديات الأكاديمية والحلقات العلمية، من مؤتمرات وندوات محلية وطنية وخارجية، مساهما من هذا الزاوية أو تلك، من هذا المنظور أو ذاك، في تدارك قلة وندرة الدراسات المتخصصة في مجال الاشتغال، عاملا على إغناء الساحة الثقافية بإنتاجات متتالية ومترابطة، اتخذت من النظرية الحجاجية

(1) أبو بكر العزاوي أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي سليمان، متخصص في اللسانيات وتحليل الخطاب، وخصوصا التحليل الحجاجي.. من اهم مؤلفاته في هذا المجال: "اللغة والحجاج"، "الخطاب والحجاج"، "اللغة والمنطق: مدخل نظري"، وله حوار حول الحجاج. وبالفرنسية: "Argumentation et enonciation".

حضر الباحث أطروحة دكتوراه بإشراف أستاذه أوزفالد ديكرو Oswald Ducrot تحت عنوان: "بعض الروابط التداولية في اللغة العربية: مقاربة حجاجية أصواتية" سنة 1989-1990، بمعهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بفرنسا. وأنجز أطروحة أخرى لنيل شهادة دكتوراه الدولة بإشراف الدكتور محمد مفتاح حول موضوع "الحجاج في اللغة العربية" سنة 2000-2001.

تيمتها الأساس، صدورا عن حقيقة ثابتة ومنطلق قوامها" أن الحجاج نجده في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص: نجده في الخطابة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية واللافتة الإشهارية والخطاب السياسي ومرافعة المحامي والرواية والمسرحية الأدبية والمناظرات ومناقشات الأطروحات الجامعية والكتابات العلمية وغيرها"[1]. لذلك فإن المتتبع لأعمال الباحث وأنشطته الثقافية بتنوعها وغناها يتبين أنها تتكامل بوعي منهجي وبتخطيط مدروس، بهدف تشييد منهج جديد لتحليل الخطاب، والسعي نحو تأصيل تصور منهجي يغرف من حقول معرفية متعددة ويستوعب النظريات اللسانية والسيميائية والدلالية والتأويلية المعاصرة والهيرمينوطيقا والبلاغة وغيرها من الروافد المعرفية، في بوثقة منهجية واضحة وجريئة، تجاهد مستميتة في سبيل استنبات مشروع ثقافي مغربي عربي، لإيجاد نظرية حجاجية وتوسيع مجالات تطبيقاتها، لتشمل النصوص والخطابات المتداولة في الحياة الإنسانية، تستوعب الرسمي والهامشي، اليومي والأكاديمي، التاريخي والسياسي والفلسفي والديني والأدبي، والواقعي والخيالي...

لقد أدرك الباحث أن تربة حقل البحث الحجاجي في المغرب وفي العالم العربي، لا تزال خصبة، وأن الطريق لا يزال غير معبّد، فآل على نفسه المساهمة نظريا وإجرائيا بما يمكّن من استثمار النتائج وتوظيف المفهومات توظيفاً صحيحاً ومعقولاً، يراعي خصوصية اللغة وطابعها المركب، ويستوعب امتداداتها المتشعبة ضمن تصور منفتح، يثاقف بصيغة ذكية ومنتِجة بين الكائن والممكن، بين اليقينيّ والاحتماليّ، بين النصيّ والخِطابيّ، بين اللساني والفكريّ والمقاميّ.

(1) أبو بكر العزاوي، الحجاج والخطاب، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط 1، بيروت، 2010، ص 11
وهو المنطلق نفسه لدى المفكر طه عبد الرحمن. يقول: "الأصل في تكوثر الخطابة هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج". ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، البيضاء-بيروت، ط1، 1998، ص 213

الخطاب وإمكانات الحجاج

(أو سمات الخطاب بحسب الباحث):

من خلال تأمل اجتهادات الباحث، عبر تخريجاته النظرية، وإنجازاته التطبيقية يمكن استخلاص جملة من السمات العامة للخطاب بما يشكل منطلقات واعدة ومنيرة طريق المشتغلين في ميدان البلاغة وتحليل الخطاب، وبما يشكل إسهاما أكاديميا في وضع الخريطة العامة التي يمكن أن يتحرك ضمنها المشتغلون بالخطاب. هذه السمات يمكن أن نجردها بحسب التالي:

_ الطابع المركب والمعقد للخطاب، وهو موسوم ومشروط بخاصية التماسك والانسجام، يتضمن بالضرورة دلالة يراد نقلها من المرسل إلى المرسل إليه أو المخاطب، لإطلاعه على معلومات ما، بقصدية الإخبار والإعلام، أو بقصد التأثير العقلي أو الوجداني أو السلوكي. ولذلك فهو محكوم بخاصية النسقية، فهو "بنية منظمة" لها قواعدها التي تتحكم في صيرورتها وتناميها من أجل إنتاج هذه الدلالة الكلية[1]. فاشتغال الباحث وطريقة تعامله مع النصوص أو الخطابات التي حللها تتوافق مع تلكم المنظورات التي ترى في الخطاب متوالية هادفة ودالة تنظم ملفوظاته علاقة غير اعتباطية[2].

-الخطاب والحتمية التأويلية، فبحسب اشتغال الباحث بالخطابات التي حللها، خصوصا في كتابه (الخطاب والحجاج)، بأنواعها التخييلية والإقناعية، سواء أكانت شعرا أم قرآنا أم أمثالا أم إشهارا، ندرك أنه هوية الخطاب لا تكتمل بما يعلن عنه من استقلالية تركيبية وانغلاق أو تشكل دلالي أولي. أو بعبارة أخرى فإن حقيقة الخطاب لا تتوقف عند مستواه اللّازم المحصور في ممكنات شفراته الدلالية المعجمية. بل إنها تتجاوز ذلك إلى مستوى التعَدّي الخارجي، الذي يصبح فيه للمتحاورين ومستقبلي الخطاب وظيفة مركزية

---

(1) سعيد جبار، بلاغة الخطاب كيف تتحقق، قراءة في نموذج من نص رحلي، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد محمد مشبال، منشورات ضفاف، الاختلاف، ط 1، 2014، ص 162-163.

(2) A. Reboul ; J.Moechler, pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours , ed. Armand, colin, ¨Paris 2005, P. 163

وإضافية[1].

إن التحليل الحجاجي عند الباحث يرتقي بنا من المستوى الجملي إلى المستوى الخطابي النصي، ويتجاوز المستوى الظاهري للنص إلى باطنه الرمزي والخفي عبر تتبع المسارب الموجهة لربط النص بمقصديته المنسجمة مع سياقه الثقافي التاريخي الاجتماعي، حيث تتحقق حجاجية النص، التي هي في المحصلة استنباط البنيات الكبرى والكشف عن شبكة العلاقات الداخلية والخارجية.

إن الملفوظات اللغوية من أقوال وعبارات ونصوص حينما تروج في الحياة البشرية وتسري بين الناس في حياتهم، تمتلك مظهرا حجاجيا وقوة إنجازية جلية، قوامُها السعيُ إلى التأثير في الآخر وتغّيي دفعه نحو تبنّي رأي ما واتخاذ موقف ما أو تغيير رأي. ما يثبت أن اللغة الطبيعية تشتمل بشكل أصيل وجوهري على علاقات إنسانية وتداولية وتفاعلية لا يمكن إغفالها. فطائفة كبيرة من الأقوال في استعمالاتنا اللغوية بقليل من التأمل وباستحضار تخريجات الباحث، تغدو غير منحصرة في وظيفتها الإخبارية ولا مكتفية بوصف الواقع ولا التّأطُّر ضمن معياري الصدق أو الكذب، ولا هي قائمة من الشفرات Codesبقدر ما تغدو ذات حمولة إنجازية وسَمتٍ فاعلي، تنشد بناء الواقع وتغييرَه أو إعادةَ ترتيب العلاقة به ومعه[2].

---

[1] ما يعبر عنه د. طه عبد الرحمن بخاصية الحوارية أو المحاورة، بانواعها الحقيقية العلمية والشبهية الفلسفية، القريبة التناظرية والبعيدة التناصية، الإبلاغية القصدية والتبليغية التفاعلية..إلخ.

ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، البيضاء-بيروت، ط2، 2000، ص 57

[2] استعمال اللغة وتوظيفها بحسب بعض الدراسات التداولية يحدد انتماء المتعمل وفلسفته واختياراته "أن أتحدث لغة ما يدل دائما، فضلا عن حديثي بهذه اللغة، على شيء آخر...إن للشكل اللغوي الذي نختار الحديث به دلالة ذاتية هي الرسالة، ولهذا الشكل اللغوي على صعيد آخر دلالة إيحائية".

ينظر: لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2008، ص 139

وفي سياق آخر يرى هذا الباحث أن عمل اللساني مهما كان تقنيا ومهما اتخذ مظهرا علميا مخبريا أو اصطناعيا، فهو لن يخرج عن تدخلا في اللغة، ومن ثمة فهو تخطيط يقتضي سياسة، أي سياسة سلطة حاكمة. وبذلك يجد اللساني نفسه أمام مسألة خلقية، فهو إذ يتدخل في اللغة فلن يكون بمنأى عن لعبة السلطة. ينظر المرجع نفسه، ص 390.

إن اللغة "ليست مجرد وسيلة لوصف العالم، فهي أيضا وقبل كل شيء وسيلة للتواصل. وهذا يعني أن لها وظيفة بناء وتحويل علاقات بين الذوات والمرجع الذي يقومون ببنائه"[1]. أي أن الخطاب بحسب الباحث وإن كان يتمظهر في بناء لغوي وتركيب نصي، شفوي أو مكتوب، مختصر أو مطول، عابر ولحظي، أو مخطط له ومدروس، معلن عن طبيعته أو غير ذلك، فهو في حقيقته فعل تواصلي تأثيري، فحتى ولو كان خطابا مونولوجيا فهو هادف إلى إقناع الذات باعتقاد ما وتبرير لما يسلك ويمارس وما يتخذ ويختار من خلق أو ممارسة داخلية.

يتجاوز الخطاب إذن مستوى التحقق اللغوي الخالص، لأنه إجراء تفاعلي في جوهره، فهو يتمرد على خاصية الانبناء المغلق، نحو مستوى آخر يغدو فيه ملفوظا تواصليا يتوقف على عملية التأويل والبحث في المقاصد والغايات والمرامي المرسومة بدقة ووعي لضمان توجيه المخاطب نحوها أو بها من أجل التأثير فيه.

_ إن الخطاب بحسب الباحث بنية متحركة، تتفاعل فيها مستويات التركيب والدلالة والتداول، تتعانق فيه العلامات اللسانية الشفرية متفاعلة مع سياقات التخاطب ووضعيات إنتاج الخطاب وظروف انبناء النص وطبيعة المتلقي. فهو قائم على منظور يعترف للغة "بحركتها في التاريخ، وفي استعمالاتها التي تنفتح بها على أكثر من رمز أو إيحاء"، وأنها "لا تبقى في مدلولها اللغوي جامدة لا تتحرك، بل تأخذ من حركتها التاريخية الكثير من الإشارات والإيحاءات التي قد يفهم منها الناس الكثير خارج مدلولها الذاتي"[2].

ومن هنا يصبح الخطاب سيرورة غير ثابتة تتحرك في اتجاه وضعيات متجددة بحسب السياق التداولي وبحسب طبيعة المتلقي، ووفق الضوابط النصية والداخلية التي يُضمّنها المنتج داخل الخطاب. ومن ثمة فالإمساك بالخطاب وبمقاصده يفرض ضرورة تجاوز مستواه اللغوي السطحي، وعدم الاقتصار على بنياته العلاماتية، بقدر ما يصبح منفتحا على السياق

---

(1) G. Caron, les regulations du discours. Ed. Puf, Paris , p. 148

(2) محمد حسين فضل الله، الاجتهاد بين أسْرِ الماضي وآفاق المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت- البيضاء، ط 1، 2009، ص 178

الخارجي حيث الأخذ بعين الاعتبار الروابط الضمنية الموجودة بين مختلف أجزاء النص وبين النص والوضعية التي أنتج فيها، وحيث الحديث عن المعارف المشتركة بين المتحاورين[1].

والخطاب بهذا يغدو كتلة جامعة ثلاثية الأبعاد كما هو مقترح ضمن خطاطة إيدي رولي للتحليل النوعي للخطاب[2]؛ بعد لساني تركيبي (معجم وصوت ودلالة)، وبعد نصي(المستوى العلائقي التراتبي)،وبعد مقامي سياقي مرجعي (المستوى التفاعلي الاجتماعي).

الحجاج والنص الديني؛ إشكالات بشأن التحليل اللغوي الحجاجي للقرآن

من الاجتهادات اللافتة للنظر ضمن اشتغالات الباحث انفتاحه على النص الديني، وإخضاعه بعض المقاطع القرآنية للتحليل الحجاجي الموسّع. فقد حلّل في كتابه (الحجاج والخطاب) سورة الأعلى تحليلا حجاجيا تطبيقيا[3]، سعيا نحو تعميق منهجية التحليل وتأكيد حضوره في الخطابات. وقد توصل الباحث إلى نتائج جديرة بالتطوير والاهتمام من قبيل:

- غنى النص القرآني بالمظاهر الحجاجية وتنوعها بين المحوري والثانوي، ما يجعل مهمة المحلل (القارئ) محورية وحاسمة في الكشف عن ذلك، وتمييز هذا عن ذاك.
- نسبية التحليل وجزئيته بالنظر إلى كثرة القضايا الحجاجية وتعددها وتنوعها. فالمحلل يركز على جوانب يرى أنها مهيمنة وبارزة، ويرجئ أخرى أو يتجاوزها لأنها لا تخدم مشروع التحليل المراد تشييده والاستدلال التطبيقي عليه[4].
- التحليل الحجاجي يثبت الطابع المنسجم للسورة المحللة، ويثبت أبعد من ذلك الطابع

(1) سعيد جبار، بلاغة الخطاب، كيف تتحقق؟ مرجع سابق، ص 165

(2) Eddy Roulet, vers une approche modulaire de l'analyse de discours, cahiers de linguistique françaises N: 12, 1991, p. 59

(3) ينظر الخطاب والحجاج، صص 17-31. وفي مناسبة أخرى حلل الباحث أواخر سورة البقرة تحليلا حجاجيا. تنظر دراسته (الحجاج والانسجام في القرآن الكريم؛ خواتيم سورة البقرة نموذجا)، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 5، 2014، ص ص 43 - 50

(4) الخطاب والحجاج، ص 28

المنسجم للخطاب القرآني ككل[1].

- القرآن الكريم نص حجاجي بامتياز، بنية وبرنامجا وعلاقات حجاجية.

لكن بالمقابل يضعنا هذا التحليل في صلب إشكالات ذات صلة بحقيقة اللغة القرآنية، ومثيرة في سياق مباحث الفكر الإسلامي وعلوم القرآن وإعجازه.

ففي بحث حجاجية سورة الأعلى وتتبع أنواع الحجج الظاهرة والمضمرة، كشف التحليل مثلا أن المقطع الثاني من السورة ملخص للصورة برمتها وهو متضمن لبرنامجها الحجاجي العام[2]. فيكون إذن التحليل الحجاجي مفضيا إلى وجود مقطع أول زائد أو غير ضروري، ما دام المقطع الثاني يتضمن البرنامج الحجاجي العام للسورة، ويستوعب النتيجة الحجاجية المراد الوصول إليها. ولا يخفى أن مثل هذا التخريج قد يصدق على الخطابات البشرية المحكومة بالنقص وبالقصور، لكنه حتما سوف يفضي إلى نتائج تحليلية لا تتناسب والخطاب المعجز.

والأمر عينه يمكن أن نقوله بشأن الصيغ الحجاجية المقترحة من لدن الباحث[3]، بحيث تصادفنا ست عبارات مقترحة تبدو كما يصرح الباحث "صياغات ممكنة لهذه العلاقة الحجاجية" تظهر تنويع العلاقات الحجاجية التي تربط بين الآية الأولى باعتبارها نتيجة، والآيات التالية لها باعتبارها حججا وأدلة لصالح هذه النتيجة. وهي اقتراحات توضح المنطق الحجاجي للآيات، لكنها من زاوية أخرى غير آخذة بعين الاعتبار خصوصية التركيب القرآني وفرادته، ولا تفسر أهمية الصيغة القرآنية وتميزها عن غيرها من الاقتراحات البشرية. بحيث لا يشعرنا التحليل الحجاجي عبر هذه الاقتراحات بأي خصوصية ولا تمايز

(1) تأكيدا للرؤية نفسها التي ينطلق منها الباحث د. محمد مفتاح في تحليلاته للخطاب القرآني استنادا إلى ما يدعوه بالعلاقات الداخلية. فهو ينطلق من "اعتبار النص القرآني كلا لا يتجزأ لأنه يهدف إلى غاية واحدة، وإن تنوعت مظاهر تعبيره، وينطلق من فلسفة منسجمة وإن تبين للناظر إلى سطح الأمور تنوعاً في القضايا. لذلك يجب التسليم بأن الآيات التي تدور على قضية واحدة، وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف، لها ثابت بنيويّ تنطلق منه لتفصله أو تكمله أو تبينه في الآيات المكية أو لتخصصه أو تقيده في الآيات المدنية"

ينظر محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، ط 2، 1990، ص 192

(2) الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 25

(3) الخطاب والحجاج، ص 21

بين الصيغة المتخذة في السورة وبين الصيغ المقترحة. فيصبح مثلا التقدير بالحذف أو الزيادة أو التقديم أو التأخير، أو التعديل والتغيير، كل ذلك في نفس مستوى الصيغة القرآنية، وهذا من شأنه أن يبدو مهددا للنسق العام والخاص الذي ينبني عليه النظام القرآني. والحجاج في العبارة الواحدة غير مختلف عن غيرها من العبارات.

والحق إن حجاجية الصيغة القرآنية يجب أن تلتمس في هذه الصيغة نفسها، ولا يجوز -وفق منطق النظام القرآني المنسجم- تقدير ترتيب للعبارات ولا للألفاظ في التراكيب بديلا عن الترتيب القرآني لتحصيل المعنى العام. بل إن المعنى المحصل من الترتيب المقترح سوف يكون حتما مخالفا للمعنى الأصلي، لأن الترتيب القرآني هو جزء من نظام هذا الكتاب المعجز، ومظهر من مظاهر نظامه المحكم. وكل تغيير بتقديم أو تأخير لمركّب أو مفردة، ولو تقديرا لتحصيل المعنى، فإن الحاصل لا علاقة له بذلك النظام وهو شيء خارج عنه.

وحينما يقوم المفسّر أو المحلل أو النحوي أو البلاغي أو اللساني، باقتراحات حيال الترتيب القرآني الوارد فكأنما يعيد الترتيب إلى حال الأصل، فأصل العبارة عنده هو بترتيب معين، والقرآن خالف الأصل، بينما الحقيقة أنه بذلك يفتح باب التخبط اللامتناهي. فالترتيب القرآني هو الأصل. ومعلوم عند اللغويين وعند النحويين أن المعنى يتحصل من شيئين هما الألفاظ وترتيبهما. وحينئذ يكون وضع ترتيب جديد للألفاظ توجيها نحو افتراض معنى ما، مخالفا لمعنى الجملة على الترتيب القرآني، ومعنى غريبا عن القرآن.

ومن ثمة ضرورة مراعاة الطابع المترابط للنظام القرآني، بالنظر إلى أن العبارة القرآنية تعتبر جزءا من نظام كلي عام وشامل، تتسق مع باقي العبارات الأخرى، مثلما ينتظم الجسيم ضمن النظام الذري، ومثل الكوكب في النظام الشمسي، ومثل النجم في النظام السديمي. بخلاف العبارة في الخطاب البشري، فالعبارة تكون منتظمة فقط مع عباراته الأخرى انتظاما ظاهريا. وقد تناقض في أحيان كثيرة عباراته الأجرى. فكلام الخالق بعضه من بعض، وبعضه لبعض"[1].

---

[1] عالم سبيط النيلي، النظام القرآني، بغداد، 2003، ص 14

إن فتح باب التقدير والاحتمال في التعامل مع النص القرآني يسلمنا إلى التعامل مع القرآن بنفس شاكلة التعامل مع قول البشر ومقارنته بما يفعله الخلق من تقديم وتأخير في المفردات ضمن الجملة الواحدة.

_ بناء التحليل الحجاجي على قاعدة اعتبار اللغة القرآنية لغة طبيعية، وأن القرآن" خطاب طبيعي يحكمه المنطق الذي يحكم الخطابات الطبيعية"[1]، يجب أن يؤخذ بكثير من الحذر، ويحتاج إلى مزيد من التدقيق العلمي النظري والتطبيقي. لما تتفرع عنه من مشاكل دقيقة فاللفظ قد يعطَى دلالات مختلفة، حتى إنه ليصعب حصر الدلالة الحقيقية له من ضمن الدلالات المتعددة. فلو أخذنا لفظ (الصلاة) مثلا، لوجدنا أن له دلالات متعددة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56). لقد ذهبوا إلى أن الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة ومن الناس استغفار. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ (الحج: 18) ذهبوا إلى أن السجود من الملائكة خشوع، ومن الناس وأمثالهم هو المتصور من وضع الجبهة على الأرض، ومن الجمادات هو قسرية الحركة واحتياجها إلى الصانع. فحينما نشرح الصلاة بكونها رحمة، نعبر بلفظ جديد (رحمة)، ونرى أنه بدوره يحتاج إلى دلالة، وهو بدوره ينفتح على دلالات جديدة. وهذا من شأنه أن يضرب مبدأ الترادف في أساسه. يمكن أن نقول إن الصلاة من الله هي (لطف) أو (مودة)، أو (تأييد)، أو (عناية)، أو (ذكر).

وهذا قد تترتب عنه نتائج خطيرة على مستوى النص القرآني، بأن تغدو اللغة لا نهائية وكل لفظ ينفتح على سلسة من الحلقات الدلالية، وعلى فتح لا محدود للمترادفات، بما يمكن أن يهدد القصدية والغائية الترشيدية لهذا الكتاب. وفي الاستعمال المميِّز بين الصلاة والرحمة في الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(البقرة: 157) ما يقيم دليلا على وجود فرق بين اللفظين، وكذلك بالنسبة إلى معنى الصلاة من الملائكة ومن الناس. الأمر الذي يهدد أصل الدلالة في النص القرآني. ولعل هذا قد ينذر بإبقاء باب الاختلاف مشرعا

[1] الحجاج والخطاب، ص 28

في وجه الأمة وينتج مللا ونحلا تنطلق من النص الواحد وتختلف اختلافا شديدا. فباب التأويل والاحتمال لا يوصد إلا بافتراض وجود نظام لغوي صارم ومحدد يشكل مرجعا ومنطلقا يطمأن إليه. فلا يمكن أن يكون النص القرآني معجزا وواجب الاتباع ومُبْرِئا للذمة، ما لم يكن قطعي الدلالة، ظاهر المعنى، بصورة لا تتأول إلى معنى آخر. إقراراً بأصالة اللغة القرآنية، وأصالة الترتيب والتركيب في النص القرآني كما هو من دون تبديل أو اقتراح أو تعديل.

وهذا يقودنا إلى حتمية مبحث الدلالة في الخطاب القرآني، بالنظر إلى طبيعة هذا النص، أو النص المعصوم، فهو نص غائي وهادف إلى توصيل معرفة محددة ودقيقة، لأنها تسعى إلى تحقيق فعل وتوجيه سلوك وترسيخ عقيدة، وإتيان أوامر وواجبات أو الانتهاء عن محرمات ومكروهات، فوجب أن تهتم المباحث اللغوية اللسانية العربية المشتغلة بالخطاب المعصوم بالدلالة الأصلية للنص[1].

_ توظيف النظريات الحجاجية في تفسير وفهم الخطاب القرآني، يثير أسئلة ذات صلة بمدى قدرة هذه النظريات المتجددة باستمرار والمتحولة مع دوران الأيام، على استيعاب هذا النص الثابت. فالنظريات محدودة بمحدودية الإنسان وأدواته المعرفية. فالمطلوب مراعاة هذه الخصوصية لكي لا نجعل من النص القرآني تابعا لاجتهادات البشر ورؤيتهم المحدودة. المطلوب مراعاة التغيير الذي يحصل على مستوى الضوابط والقواعد اللغوية والحجاجية بما لا يؤدي إلى قلب المعنى القرآني. فالمحلل مطالب بأن يجعل القرآن أمامه لا أن يكون هو إمام القرآن.

فتعميم التحليل الحجاجي والنظر إلى النص القرآني من منظور هذه المناهج العلمية

(1) يشير عالم الآثار الفرنسي جورج كونتينو في معرض حديثه عن تطور الكتابة في بلاد بابل وآشور من حالتها المصورة إلى المقطعية إلى ما يبين وجود أصل دلالي محدد للعلامة، وأن الترادف حدث كعملية لاحقة بسبب مشكلة العلامات الكتابية. يقول: "لاقى هذا التبديل عونا كبيرا من التغيير الأساسي في الكتابة، وكما قلنا فإن العلامة كانت تمثل في الأصل شيئا واحدا ولم تكن هناك طريقة للتعبير عن الأفعال والصفات والضمائر وتصريفات الأسماء كما لم تكن هناك إمكانية لإنجاز مثل هذه الأمور دون وجود نوع من الاتفاق العام بين الكتبة الذين كان بإمكانهم إضافة معان ثانوية إلى العلامات.." ينظر كتابه: الحياة اليومية لبلاد بابل وآشور" ص 300.

المستجدة والمتغيرة باستمرار، قد يكون طريقا لسلب الخصوصية الغيبية لهذا الخطاب. ومقاربة هذا الخطاب من زاوية الحدود المنطقية المتعارفة قد يصبح غير متناسب وأحيانا قاصرا عن فهم البشر. ونص المطلوب البحث في منطق حجاجي خاص ونوعي يراعي خصوصية الظاهرة الدينية، ويقر للنص المعصوم بتعاليه وتميزه.

خاتمة:

يشكل اجتهاد الباحث المغربي الدكتور أبي بكر العزاوي ملامح مشروع ثقافي واعد ومتميز، بالنظر إلى طموحه نحو توسيع النظرية الحجاجية، وسعيه الدؤوب، تنظيرا وإنجازا، في أفق تحقيق تراكم معرفي متعدد من حيث متن اشتغاله، وجريء من حيث انفتاح الرؤية ووضوح الهدف، ابتغاء تشييد صرح نهج علمي معاصر يجسّر المسافة بين الفكر العربي والفكر الغربي، ويلاقح بين التراث والحداثة، مثلما يجاهد في سبيل إيجاد ثقافة إنسانية منفتحة، تعترف لجميع الأشكال التعبيرية بقيمتها التواصلية. وتؤسس لثقافة الاعتراف والحوار تأسيسا يمكن أن نعده بحق مساهمة حضارية أكاديمية متخصصة في سبيل بناء مجتمع الحداثة والديموقراطية.

المراجع

أولا: باللغة العربية

أ- الكتب:

- أبو بكر العزاوي: الحجاج والخطاب، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت، 2010، ص 11
- طه عبد الرحمن: - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، البيضاء-بيروت، ط1، 1998.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، البيضاء-بيروت، ط2، 2000
- لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2008.
- محمد حسين فضل الله: الاجتهاد بين اسر الماضي وآفاق المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت- البيضاء، ط1، 2009.
- محمد مفتاح: دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، ط2، 1990.
- سعيد جبار: بلاغة الخطاب كيف تتحقق، قراءة في نموذج من نص رحلي، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد محمد مشبال، منشورات ضفاف، الاختلاف، ط1، 2014.

[7]) عالم سبيط النيلي: النظام القرآني، بغداد، 2003.

ب- المجلات:

- مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 5، 2014. مقال لأبي بكر العزاوي: (الحجاج والانسجام في القرآن الكريم؛ خواتيم سورة البقرة نموذجا)،

ثانيا: باللغة الأجنبية

- A. Reboul ; J.Moechler, pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours , ed. Armand, colin, 'Paris 2005.
- G. Caron, les regulations du discours. Ed. Puf, Paris.
- Eddy Roulet, vers une approche modulaire de l'analyse de discours, cahiers de linguistique françaises N: 12, 1991.

سمات التجديد في المشروع الحجاجي للدكتور أبو بكر العزاوي[1]

ذ: رشيد شجيع

باحث من الدار البيضاء

مقدمة:

يُعد الدكتور أبو بكر العزاوي من أعلام المغرب الذي استطاع بفعل تكوينه الموسوعي أن يجمع بين ما هو تراثي وما هو حداثي: فعصاميته جعلت انخراطه في المدارس النظامية للحصول على الشهادات الجامعية العليا، لا يؤثر على اختياره منهج العلماء الأسلاف في النهل من منابع المعرفة.

انطلق في ذلك بحفظ القرآن الكريم مع الإلمام بمجموعة من العلوم الشرعية واللغوية، كما تابع دراسته بأسلاك التعليم إلى أن نال الإجازة من جامعة محمد الخامس بالرباط، عوامل اجتمعت كلها إضافة إلى التحاقه بالمعاهد الفرنسية فأهلته للتأليف والتأطير والتحكيم بل والوعظ والإرشاد، ثم لاحقا جعلت منه رائدا لنظرية الحجاج اللغوي في المغرب وفي الوطن العربي.

تأتي هذه المداخلة لكشف الضوء عن هذا العلم من خلال ثلاثة محاور:

1- موسوعية الدكتور أبو بكر العزاوي.
2- قراءة في الإنتاج العلمي للدكتور أبو بكر العزاوي.
3- سمات التجديد في المشروع العلمي للدكتور أبو بكر العزاوي.

---

(1) موضوع مداخلة ألقيت في الندوة الوطنية "الدكتور أبو بكر العزاوي رائد الحجاج اللغوي" بتزنيت.

المحور الأول: موسوعية الدكتور أبو بكر العزاوي:

يشتغل الباحث أبو بكر العزاوي بشكل موسوعي، يجمع بين الأدب واللسانيات، وبين ما هو تراثي عربي إسلامي أصيل وبين نظريات الغرب الحديثة، والمتعلقة منها بالخصوص بنظرية الحجاج اللغوي والمنطق الطبيعي، يكاد يشكل نموذجا فريدا للباحث المتكامل المعرفة تتلمذ لرواد الجامعة المغربية، نذكر منهم خصيصا د. أمجد الطرابلسي الذي أشرف عليه في مرحلة الإجازة، ود.محمد مفتاح الذي أطر أطروحته لنيل دكتوراه الدولة حول موضوع (الحجاج في اللغة العربية)، وهو المحور الذي تخصص فيه الباحث بعد أن لازم أستاذه أوزفالد ديكرو[1] صاحب نظرية الحجاج اللغوي في دراسته للروابط والأدوات والحروف والظروف والعبارات اللغوية من منظور حجاجي، منطلقا من الجزء إلى الكل، من مجال اللغة والحجاج إلى مضمار تحليل الخطاب، وأنجز في ذلك بحثا نال به شهادة الدكتوراه الفرنسية – تحت إشراف صاحب النظرية أ.ديكرو – لينقل النظرية من الدرس الفرنسي إلى الدرس العربي، بل عمل على ربطها بمنطق اللغة، بعد أن التقى برواد فلسفة اللغة العادية والفلسفة التحليلية والتحليل المنطقي للغات الطبيعية وفي طليعتهم السويسري جان بليز غريز[2] صاحب نظرية في المنطق الطبيعي للغات.

بدأ الباحث أبو بكر العزاوي مشواره العلمي بين أحضان جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال، وحاضر في اللسانيات وعلم الدلالة والتداوليات والمنطق، حاملا هم إرساء النظرية الحجاجية التي آمن بها، وعمل على إدراجها ضمن المقررات الدراسية بالكليات ومنها إلى الثانويات.

ولعل حلمه بتحقيق مشروع علمي ضخم هو الذي جعله يكرس نفسه للتعاون مع مجموعة من الكليات المغربية في مراكش والبيضاء والجديدة وتطوان وأكادير وغيرها. للتعريف بهذه النظرية والإشراف على مجموعة من الباحثين في إنجاز أطاريح تدور حول محور الحجاج.

---

(1) لسانياتي فرنسي وأحد أبرز المساهمين في الدراسات المتعلقة بالتداوليات والتلفظ وصاحب نظرية الحجاج اللغوي.

(2) صاحب نظرية في المنطق الطبيعي للغات.

إن موسوعية هذا الباحث ساعدته لتطبيقها في تخصصات مختلفة، في إشارة إلى وحدة الدكتوراه في اللسانيات القطاعية والتي أشرف فيها على أطاريح في مواضيع من قبيل لغة الإدارة، والحجاج والتواصل، ولغة الإشهار، والعلامة التجارية، والعربية الاقتصادية، والحجاج السياسي، وغيرها مما يبرز الغنى المعرفي لدى الباحث، قبل أن ينتقل إلى تطبيقها في مجال الدراسات الإسلامية من خلال اشتغاله على الحجاج في النص القرآني[1]، وإشرافه على أطروحات في الحجاج في الخطاب الديني.

ومن هذا المنطلق أيضا – مبدأ الموسوعية – عمل على تأسيس الجمعية المغربية لتكامل العلوم، فكانت منبرا للتعريف بنظرية الحجاج من خلال أعماله، وبفعل مجموعة من الندوات نظمت خصيصا للتعريف بهذا المشروع الحجاجي، واحتفاء بهذا العلم.

وعلى العموم فالباحث لا تبعد عليه الشقة فهو يطوي المسافات محاضرا في ندوات وطنية ودولية، وواعظا مرشدا في الكراسي والمنابر بمجموعة من الدول الغربية، كما لا يبخل بوقته لتقديم الاستشارات العلمية لمجموعة من دور النشر والتوزيع ومراكز البحث، ولحضور المناقشات والمشاركة فيها، والتعاون مع الجمعيات في إنجاز ندوات محلية تعود به لوطنه الأصل تزنيت، وتؤكد وفاءه لأجداده العلماء الذين قدموا الكثير لهذا الوطن كما كان الشأن في ندوة آيت ايعزا اهدا[2]، بل وقبلها بالمعقل الأصلي بجنوب المغرب بزاوية آسا.

المحور الثاني: قراءة في الإنتاج العلمي للدكتور أبو بكر العزاوي:

استطاع أبو بكر العزاوي في بداية مساره العلمي والمرتبط بفترة الثمانينات أن ينتج مجموعة أعمال وبحوث نشرت له بمجلات متخصصة، قبل أن ينخرط في سلك التأليف لدعم مشروعه الداعي إلى تأصيل البعد الحجاجي في المناهج والمسالك الدراسية بالمملكة المغربية.

---

(1) مجلة طنجة الأدبية، ضمن مجموعة أبحاث عن الحجاج القرآني، العدد 57.

(2) صاحب زاوية علمية بجنوب المغرب، وإليه ينتهي نسب الدكتور العزاوي.

وفي هذا الإطار صدر له كتاب (اللغة والحجاج)[1]، والذي لقـي ترحيبـا في الـساحة العربية على اعتبار أنه نواة أولى في التعريف بشكل واضح ومـوجز بمفهـوم الحجـاج اللغـوي والسلم الحجاجي والمبادئ الحجاجية، وربط ذلك بالنظرية الدلالية، كما قـام بدراسـة لمفهـوم الاستعارة والحجاج، ودراسة الروابط الحجاجية في اللغة العربية، وقوة الكلمـة أو اللغـة بـين الإنجاز والحجاج[2].

سنة واحدة بعد هذا الإصدار، ينتقل الباحث من مستوى الأقوال والجمـل إلى مجـال الخطاب، بكتابه (الخطاب والحجاج)[3]، ليقدم دراسة تطبيقية مكملة للكتاب الأول، بتحليل نموذج لأنـواع مـن الخطابـات: الخطـاب القرآنـي، الخطـاب الـشعري، الخطـاب الإشـهاري، فاستطاع أن يتفوق في بيان أهمية التحليل الحجاجي للنصوص والخطـاب بمختلـف أنواعهـا، عاملا على توسيع مجال النظرية وتطويرها عما وقفت عنده مع أستاذه أوزفالد ديكرو[4].

ولعل موسوعية الباحث جعلته لا يكتفي بهذا النوع من التـأليف، فأقـدم علـى جمـع مجموعة حوارات معه في كتاب سماه (حوار حول الحجاج)[5]، وفيـه ربـط لنظريـة الحجـاج اللغوي بالمنطق اللغوي واللغات الطبيعية، كما تحدث عن علاقة الحجاج بالخطـاب وبـالحوار وانتهى إلى قولته المشهورة " لا تواصل من غـير حجـاج ولا حجـاج مـن غـير تواصـل، لـولا الاختلاف ما كان الحوار ولولا الحوار ما كان الحجاج"[6] فالحوار أصل الحجاج ولولاهمـا مـا كان الكلام ولا الخطاب.

بعد ذلك يطلع علينا الباحث العزاوي بكتاب جديد سماه (Argumentation et ennonciation)[7] أي الحجاج والـتلفظ، وهـو كتـاب باللغـة الفرنـسية ممـا يزيـد تاكيـد

(1) طبع اول مرة عن الأحمدية للنشر سنة 2006، وأعيد طبعه بلبنان بمؤسسة الرحاب الحديثة سنة 2009.

(2) العزاوي، اللغة والحجاج.

(3) صدر هذا الكتاب عن الأحمدية للنشر سنة 2007، وأعيد طبعه بمؤسسة الرحاب الحديثة في بيروت سنة 2010.

(4) العزاوي، الخطاب والحجاج.

(5) طبع أول مرة عن الأحمدية للنشر سنة 2010

(6) العزاوي، حوار حول الحجاج، ص.7.

(7) صدر هذا الكتاب عن طوب بريس بالرباط سنة 2014.

موسوعية أستاذنا، استهله بمقدمة للمنطقي السويسري ج.بليز غريز، وفيه يعرف بالمنطق واللغة والحجاج، وبرواد هذه النظرية برلمان وغريز وديكرو، ثم ينتقل إلى التعريف بالحجاج اللغوي والدلاليات الحجاجية، وينتهي بمبحث عن التلفظ وتعدد الأصوات، ليؤكد فرضية طبيعة الحجاج في اللغات الطبيعية، بتحليل عدد كبير من الأمثلة والشواهد وبعرض لوجهات نظر اللسانيين والمناطقة في ذلك[1].

وفي نفس السنة يخرج كتاب (اللغة والمنطق: مدخل نظري) [2]، حاول فيه الباحث بيان مختلف القضايا والإشكاليات المرتبطة بمسألة العلاقة القائمة بين اللغة والمنطق مستعرضا مواقف الدارسين بهذا الخصوص، ومقارنا بين الظاهرة اللغوية والظواهر المنطقية، وبين خصائص اللغات الطبيعية وخصائص اللغات الاصطناعية الصورية[3]، ولقد شكل هذا الإصدار إلى جانب الإصدارين الأولين (اللغة والحجاج) و(الخطاب والحجاج) ثلاثية هدف من خلالها إلى ربط المنطق بالحجاج.

المحور الثالث: سمات التجديد في المشروع العلمي للدكتور أبو بكر العزاوي

اختار الباحث أبو بكر العزاوي نظرية الحجاج اللغوي بعد أن تتلمذ على يد واضعها أ.ديكرو، محورا أساسا لمشروعه العلمي فاقتنع بمبادئها، وأحاط بما أنجز في إطار فلسفة اللغة العادية والفلسفة التحليلية والتحليل المنطقي للغات الطبيعية، إضافة إلى اطلاعه على التراث العربي، جاهدا في سبيل إيجاد حل لإشكال ظل يراوده في شأن اللغات الطبيعية ومدى استجابتها للتحليل المنطقي الصوري والرياضي، أم لها منطقا خاصا؟ مستفيدا من أستاذه ج. بليز غريز الذي لقيه في رحلته العلمية بأوربا، ليتمكن لاحقا من ربط المنطق بالحجاج. ومن أهم سمات التجديد في مشروعه نذكر مايلي:

---

(1) Azzaoui , Argumentation et ennonciation.

(2) طبع الكتاب بمطبعة طوب بريس بالرباط سنة 2014.

(3) العزاوي، اللغة والمنطق، مدخل نظري.

1- كان له فضل السبق في الاهتمام بالحجاج اللغوي ومنطق اللغة والمنطق الطبيعي في الساحتين المغربية والعربية مساهما في الكشف عن الوظيفة الحجاجية للغة، من خلال دراسته لنظرية الحجاج في اللغة متجاوزا أستاذه ديكرو بالعمل على التطبيق الجيد لها والدفع بها إلى الأمام والكشف عن مكامن القصور فيها.

2- إذا كان ديكرو قد درس الروابط الحجاجية في اللغة الفرنسية، فإن الباحث العزاوي طبق النظرية على اللغة العربية، فكانت أول إنجاز في هذا السياق حين أبرز الوظيفة الحجاجية للروابط بل، لكن، لا سيما،، إذن، حتى...[1]، وربطها بالخصائص التركيبية والتداولية.

3- بعد أن تمكن من تأصيل النظرية الحجاجية في التداول العربي شرع في تطبيقها على النصوص والخطابات بشتى أنواعها بعد أن ظلت مقصورة على الجمل وفي كتابه (الخطاب والحجاج) نماذج من ذلك: حيث نقف على "التحليل الحجاجي لسورة الأعلى"[2]، و"تحليل حجاجي لنص شعري معاصر"[3]، و"تطبيق التحليل الاستلزامي على الأمثال"[4].

4- من أبرز ما نقف عليه مع الباحث العزاوي تطبيق هذه النظرية على ظواهر جديدة. كظاهرة الاستعارة، والحجاجية الأيقونية، وظاهرة الانسجام النصي[5] وتعالق الروابط في إطار منطق النص، من خلال نموذج الحجاج والانسجام في القرآن الكريم: خواتيم سورة البقرة نموذجا، ثم الربط بين الجوانب الحجاجية للغة أو الخطاب والجوانب المعرفية التصورية.

---

(1) العزاوي، اللغة والحجاج، الفصل الثاني من ص.57 إلى ص. 100.

(2) العزاوي، الخطاب والحجاج، ص.17.

(3) نفسه، ص. 35.

(4) نفسه، ص. 58.

(5) مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 5، 2014.

5- كما انطلق في تحليل حجاجي لنماذج من الصورة الإشهارية[1] في دراسة علاقة الحجاج بالصورة الإشهارية من مبدأ عام "لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل". فالحجاج عنده مرتبط بكل أشكال التواصل، ومنه الخطاب الإشهاري المتجسد في الصورة والأيقون بشكل عام، ليجزم بأن الحجاج قد يكون بغير اللغة، لأننا يمكن أن نتواصل بالصورة دون نص لغوي على اعتبار أن الصورة تحضر أكثر في كل المجالات خاصة بعد الثورة الرقمية، فيحضر الإقناع والتأثير والحجاج.

خاتمة:

وخلاصة القول لقد لقي (المشروع الحجاجي) للباحث أبو بكر العزاوي نجاحا باهرا، تمكن بفعل موسوعيته، ووفرة إنتاجه العلمي وتنوعه من دفع عجلة البحث في الحجاج إلى الأمام، فأنجزت أطروحات في الحجاج اللغوي والبلاغي والأصولي والفلسفي وديداكتيك الحجاج، وأصبح الدرس الحجاجي مقررا في شعب الجامعات وفي محاور الندوات، وفي مراجع الثانويات والإعداديات، واستفاد من أعماله عدد من الباحثين، وشهد له مجموعة من الأكاديميين أمثال عباس الجراري وعبد الهادي التازي[2] وغيرهما، فغدا بحق إضافة مميزة في حقل الدراسات اللسانية الحديثة.

---

(1) العزاوي، الخطاب والحجاج، ص.102.

(2) مجلة طنجة الأدبية، تم إدراج هذه الشهادات ضمن ملف الحجاج اللغوي عند الدكتور أبو بكرالعزاوي، ص.17 و ص.20.

نحو مقاربة حجاجية لغوية للخطاب

كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزّاوي أنموذجا

ذ. محمد سعيد البقالي

باحث من مدينة تطوان

مدخل

ثمة علاقة وطيدة بين الحجاج واللغة والخطاب، فاللّغة التي كان قد وقر في أذهان الكثيرين أنها مجرد أداة للتّواصل والإخبار وتبادل المعلومات فحسب، أصبحت تحمل "بصفة ذاتية وجوهرية"أبعادا ووظائف حجاجية؛ بحيث إن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج[1] خاصة وأنّ اللّسانَ البشريَّ يضطلع بوظيفة حجاجية كما يقول أوزفالدديكرو. لذا فإنّالظواهر الصّوتية والصّرفية والمعجمية والتركيبية والدّلالية تغدو عناصر دالّة فيإطار هذه الوظيفة. أما الخطاب الذي كان بعيدا عن التناول الحجاجي، فقد صار اليوم مجالا خصبا للدراسات الحجاجية التي ما غدت تميّز في مقاربتها بين خطابات سياسية أو أدبية أو فلسفية أو إشهارية أو دينية. بل إنّه أصبح بفضل اجتهادات الدارسين مدار المقاربة الحجاجية التي توزعت بين المقاربة البلاغية الكلاسيكية والمقاربة المنطقية والمقاربة اللغوية. غير أن دراسة الحجاج من وجهة نظر هذه الأخيرة تسعى، فيما تسعى إليه، إلى اكتشاف منطق اللغة؛ أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدريجي[2]، وهو ما أصبح يعرفاليوم بالتداولية المدمجة. كما أنّ علاقة الخطاب بالحجاج تكمن في أن الخطاب وسيلة الحجاج وهو في آن واحد منتهاه، على اعتبار أنّ الحجاج كامن في كل قول، وفي كلّ خطاب، ولا مفرّ للخطاب من الحجاج، فهذا الأخير يتولّى الاهتمام بربط العلاقات بين الأقوال في الخطاب.

---

(1) نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، أبو بكر العزاوي، مجلة المناظرة، العدد 04، 1991، ص: 78.

(2) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2006م، ص: 8.

في هذا السّياق يولي أستاذنا الدكتور أبو بكر العزاوي عناية خاصة لنظرية الحجاج في اللغة بحكم تتلمُذه على صاحب هذه النظرية الفرنسي "أوزفالد ديكرو" بالأساس، وكذاما راكمه من اجتهادات لافتة للنظر، فهو يعتبر أنّ هذه النظرية "نظرية لسانية محضة تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم"[1]. أما إحدى أهم المنجزات التي واكبت ظهور هذه المدرسة ومفهوماتها،وتجلّي مساعيها خاصة،فكان يتمثل في "التداولية المدمجة" بوصفها جزءا من المساعي النظرية والتطبيقية في مجال تحليل الخطاب لدراسة تماسكه وترابطه، وهو ما أعطى لأصحاب هذه المدرسة نوعا من التميز جعل الاتجاه الذي يصدرون عنه مباين الاتجاهات المدارس الحجاجية الأخرى، والتي تشتغل بشكل مواز أو تقابلي حيال هذه النظرية. هذا وقد كان لأستاذنا من خلال اجتهاداته في إطار هذه النظرية بمجموعة من الدراسات إلى أن قام بنشر كتابه الموسوم بـ "اللغة والحجاج" معتبراً، من جهة،اختيار هذه النظرية كإطار وصفي، وكنظرية دلالية حديثة تقدم تصورا جديدا للمعنى من حيث طبيعته ومجاله[2]، ومن جهة أخرى يعتبر أن الحجاج اللغوي هو العام والمعمّم، وأنّ باقي النظريات الحجاجية تابعة، أو بعبارة أخرى خادمة للحجاج اللغوي لا غير.

لقد أدرك الباحث أبو بكر العزاوي وهو يقارب خطابات حجاجية أن الحجاج كامن في اللغة، وهو، لا محالة، كامن في الخطاب، فكانت هذه الطفرة فرصة لمقاربة جملة من الخطابات التي لا رابط يربط بينها، سوى كونها تتنزل ضمن مفهوم الخطاب بمعناه الحديث، وكونها توظف اللغة التي هي في الأصل ذات بعد حجاجي، استنادا في ذلك إلى فكرة مفادها أن الحجاج لا يتصل بضرب مخصوص من الخطابات بل يشمل كل ضروب الخطاب الشفهي والمكتوب، وكذا الأدبي وغيره.

لقد سبق للباحث في ضمن مناسبة سابقة، وتحديدا في كتابه الأوّل أن قدّم تعريفات لمفاهيم مركزية في الحجاج، وهو إجراء إبستيمولوجي يتوخّى منه إثبات الحصيلة المعرفية الخاصة بهذا الحقل، وتعميق الجهاز المفاهيمي الذي يتمّ الاشتغال وفقه ضمن دائرة الحجاج

(1) نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، ص: 78.

(2) اللغة والحجاج، ص: 8.

في اللغة أولا، وضمن الحجاج في الخطاب ثانيا؛ أي أن أعمال الباحث تأتي في سياق مشروع علمي خطّه الدارس لنفسه والتزم به في إطار مشاريعه المنجزة أوالتي لا زالت قيد الإنجاز.

سيفرض علينا إذن السياق أن نفرد اهتمامنا لتأليف من تأليفات الدكتور أبي بكر العزاوي مع الاستئناس كذلك بما أنجزه في ضوء ما يخدم مقاصد هذه المحاولة، وذلك بهدف إضاءة جوانب عمل الباحث على تجليتها في كتابه "الخطاب والحجاج"[1]، وما أضافه أستاذنا إلى حقل الدراسات الحجاجية في العالم العربي فاتحا بذلك أفقا من آفاق الدراسة والبحث في هذا الإطار. كما أنّ هذه الاجتهادات تأتي في سياق ما يعزوه العزاوي إلى اجتهادات وأعمال أوزفالدديكرو على وجه التحديد، وقبله إلى الاجتهادات الأولى لكل من أوستين وسورل فيما يتعلق بنظرية أفعال الكلام، وبالتالي فإن لهذه النظرية أصولا لسانية محضة.

وبالنسبة إلى هذا الكتاب، سيكون لزاما علينا أن نتتبع فصوله وقضاياه التي عنّ للدارس إثارتها فيه، مستخلصين في الوقت ذاته، ما انتهت إليه هذه الدّراسة التي أصرّت على تلازم الحجاج والخطاب على طول صفحات الكتاب.وإذا كان الكتاب الأوّل قد تناول طبيعة اللغة وعلاقتها بالحجاج، فإنّ الكتاب الثاني سينصرف للحديث عن استحضار البعد الحجاجي في خطابات متباينة ومتعددة، كتعدّد الآليات والاستراتيجيات الحجاجية المعتمدة في تحقيق مطلب ما تبعا لتعدد النصوص، وتنوع الخطابات.

ويمكن عدّ هذا الكتاب تتمة لإصداره الأول "الحجاج في اللغة" باعتبارهمن الدراسات التأصيلية للحجاج اللغوي في العالم العربي. ويشكل هذان الكتابان تتويجا للدراسات والمقالات والأعمال التي قام الكاتب بنشرها، طارحا تصورا تلقفه من أستاذه "أوزفالدديكرو" الذي يرجع إليه الفضل في بلورة نظرية من نظريات الحجاج، والتي ترى في الإمكانات اللغوية مظهرا من مظاهر الحجاج؛ فاللغات الطبيعية حسب رأي هذا اللّساني الفرنسي وظيفتها حجاجية بالدّرجة الأولى، ولا تقتصر على الإخبار أو الإحالة على العالم ووصفه فقط.

تجدر الإشارة إلى أن أنماط الخطاب التي انتقاها أستاذنا العزاوي لتكون محوراً

---

[1] الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى 2007م.

لدراسته، لا يجمع بينها أي رابط، سوى انتمائها للخطاب بشكل عام. هكذا إذن، وقع اختيار الباحث في هذا الكتاب على نماذج أربعة من أنماط الخطاب، وهي: الخطاب القرآني، والخطاب الشعري، والخطاب المثلي المغربي الشعبي، والخطاب الإشهاري على الترتيب. وبما أنّ روافد الحجاج متعدّدة، فإنّ الباحث سيعتمد الحجاج اللغوي الذي يتقصّى البحث عن الآليات اللغوية في الخطاب بناء على أن الأقوال والخطابات تتضمن ظواهر لغوية بالدرجة الأولى؛ أي إن الأسماء والأفعال والظروف والحروف يمكن أن تكون مجالا لمقاربة حجاجية بغض النظر عن طبيعة الخطاب هل هو خطاب ديني أو فلسفي أو أدبي أو غيره...

في هذا السياق كذلك، ميّز الكاتب بين نمطين من الحجاج الطبيعي: الأول باعتباره تقنيات بلاغية ومنطقية وأصولية وكلامية تنتمي إلى البلاغة القديمة أو الحديثة، أو المنطق الطبيعي، أو فلسفة العلوم، أو أصول الفقه وعلم الكلام.والثاني بوصفه آليات لغوية محض، وهو موضوع نظرية الحجاج في اللغة.

وما دام الحجاج محط اهتمام العديد من المدارس والاتجاهات النقدية، فإن منطلقات وآليات الاشتغال، وكذا النتائج المتوصل إليها ستكون متفاوتة في الخطابات السالفة الذكر،تبعا لتفاوت وتباين الاستراتيجيات، وهو ما يجعل من الحجاج ظاهرة حتمية للخطابات بكل أنواعها، لا سيما أنّ التواصل مهما كانت ظروف إنتاجه فهو ذو طابع حجاجي بما في ذلك الأيقونات ذاتها.

في هذا الإطار تقدّم وجهة نظر أستاذنا في دارسة جوانب التأثير في حقل الحجاج الأيقوني، من خلال استناده في ذلك إلى مقولة مؤداها أن كل عملية تواصلية أو موقف تواصلي يستدعي حجاجا؛ فأن تتواصل يعني أن تحاجج وتقنع وتؤثر وتعمل على استمالة *المتلقي وجعله يذعن للأطروحة المقدمة إليه. وعليه فإن الحجاج يرتبط بكافة أشكال* التواصل اللغوي، وغير اللغوي كما يعلن ذلك صاحب الكتاب[1]. كما يرى أنّ دراسة

---

(1) الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى 2007م، ص: 10.

الحجاج في مختلف هذه الأنماط مناسبة لاكتشاف منطق اللغة ومنطق الخطاب[1]، والمقصود به تلكم القواعد الداخلية للخطاب، وهي البانية للخطاب ككل، والتي تربط بين كلّ فعل قولي وآخر؛ أي إنَّ الملفوظات لا تكسب قوتها الحجاجية إلا في إطار ترابطها وتعالقها بما يسبقها ويلحقها من تلفظات تخضع للترابطات الممكنة، الشيء الذي ينتج عنه أن كل ممارسة خطابية حجاجيةٌ بالدّرجة الأولى.

هكذا سينصرف كتاب "الخطاب والحجاج" إلى وضع استراتيجية خاصّة في دراسته للتّعالق الداخلي للجمل انطلاقا من أوضاعها المتنامية والمنسجمة، وهذا التّعالق والتّسلسل هو غاية الحجاج الذي "يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[2] لأن نظرية الحجاج في اللغة تقتضي اشتغال الأقوال داخل خطاب ما؛ أي تسلسل الأقوال وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية، وبعبارة أخرى إنها تدرس منطق الخطاب[3]. من هنا كان هدف أبي بكر العزاوي في الانتقال إلى مستوى تحليل الخطاب دون أن يحيد عن نسق هذه النظرية الأساس. لتبقى غاية هذه الدّراسة تطبيقَ ما جاءت به النظرية الحجاجية في اللغة كما رسمها وخطط لها كلّ من ديكرووأنسكومبر، وذلك بتطبيق مفاهيمها المتجلية في عدد غير محدود مثل الرّوابط والعوامل الحجاجيين، والاستراتيجية الحجاجية، والمبدأ الحجاجي، والسّلم الحجاجي وعلاقته بالاتجاه الحجاجي[4]. وغير ذلك من المفاهيم الأخرى التي أضاء الباحث بعضا من جوانبها المعتمة.

انطلاقا من هذا الوضع الحجاجي المخصوص، يشرع أبو بكر العزاوي في صوغ مشروعه العلمي الذي يطمح أن يتجاوز الدراسات الكلاسيكية في مجال الحجاج، انطلاقا من

---

(1) جاء هذا الكلام في سياق سجال وردّ على الباحثين الذين يبحثون عن المنطق في اللغة، فكان هذا الاقتراح بديلا لما جيء به من قبل هؤلاء الباحثين. لمزيد من التوسع، انظر الحوار الذي أجراه حافيظ إسماعيلي علوي مع الدكتور أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج ضمن كتاب: حوار حول الحجاج، ط1، 2010، الأحمدية للنشر، ص ص: 1516.

(2) الخطاب والحجاج، ص: 11.

(3) اللغة والحجاج، ص: 42. وينظر كذلك: Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris, Minuit, 1980. P: 7-10.

(4) اللغة والحجاج، م سا، ص: 25.

تبني نظرية ملائمة وشاملة،وقراءة تاريخ الحجاج من منظور جديد حسب تصوره.

والحقّ أن منطلقات التحليل عند العزاوي في هذه الخطابات تسعى إلى رصد المظاهر الحجاجية في أنماط خطابية لأجل الكشف عن العلاقات المنطقية للبنيات النصية الخاصة بكل نمط خطابي؛ فالظواهر الحجاجية، على حد تعبيره، لبنات خاصة في البرنامج الحجاجي للنصوص. أمّا الفرضية التي ينطلق منها فهي المتمثلة في الطبيعة الحجاجية للغة ودرجاتها داخل خطابات لا تمتّ إلى بعضها سوى توظيفها للمكون اللغوي، أو بالأحرى تشكلها من المتواليات اللغوية ومفرداتها وجملها، أو من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق كما يؤكد الباحث نفسه[1].

وبتتبعن المراحل وفصول هذا الكتاب بدءا من الحجاج في القرآن، مرورا بالحجاج في الشّعر، فالمثل، وانتهاء بالخطاب الإشهاري. سنحاول أن نقف مع كلّ فصلٍ على حدة، على اعتبار أنّ كلّ فصل يتعرض بالتحليل لنمط من أنماط الخطابات المذكورة.

مجال الحجاج في القرآن

يكشف النّموذج الأول للكتاب تقديم تحليل حجاجي للخطاب القرآني، بعد أن قدّم الباحث تحديدات لمفهوم الخطاب ومجالات اشتغاله؛ فهو، أي الخطاب، جملة من العلائق المنطقية والدّلالية مثل علاقات الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض؛ أي بوصفها علائق حجاجية[2]، كل ذلك من أجل الكشف عن منطق الخطاب من خلال تلكم العلاقات الداخلية التي تتمّ بين متواليات من العبارات والجمل.

هكذا يستهلّ الكاتب إذن الفصل الأول بدراسة" سورة الأعلى"متوسلا في هذا التطبيق الحجاجي بإنجازات الدراسات الحجاجية اللغوية التي ظهرت مع ديكرو كما سبق القول. فقد حاول الباحث تبيئتها داخل النسق الثقافي العربي والإسلامي.

وبتدبر المسلك الذي نهجه الباحث، فإنّ التّحليل المقدّمَ يروم الكشف عن النظام

(1) الخطاب والحجاج، صص: 16 17.

(2) نفسه، ص: 17.

الاستدلالي للسّورة الـذي ينـبني علـى برنـامج حجـاجي معـين؛ أي الانطـلاق مـن النتيجـة للوصول في نهاية المطاف إلى الحجة أو الحجج المبنينة لتلـك النتيجـة الـتي تـصدّرت الـسّورة. هكذا سيرصد الباحث جملـة مـن الحجـج الـتي تـضمتها الـسّورة بواسـطة تفكيـك البنيـات والأقوال الحجاجية المكونة للسّورة، وتقديمها مع التفريق بين الحجج المؤيّـدة والمـضادّة مـشيرا في الوقت ذاته، إلى العلاقات الحجاجية الاستدلالية التي تربط بـين الجمـل والأقـوال بعـضها بعض، ذلك أنّ تتابعَ الأدلة والحجـج في هـذا الـنص القرآنـي تحديـداً لا يمكنـه إلا أن يخـدمَ النتيجة التي افتتحت بها السورة والآية |الأولى كذلك.

كما أنّ التحليل الحجاجي المعتمد من قبل أستاذنا يقوم علـى اسـتقراء مجموعـة مـن الحجج الكامنة في "سورة الأعلى"، وفصل بعضها عن بعض لإبراز أهمّية كـلّ عنـصر بالنـسبة إلى الآخر، وتعالقهما إلى حدٍّ قد يتعذر إسقاط أحدهما. وإذا كانـت الآيـة الأولى نتيجـة فإنـه يتعين طبقاً" للعلاقة الحجاجية"، إيراد الحجج بعدها تبعـا للوظيفـة الحجاجيـة للغـة بالأسـاس. ليخلص الباحث في تحليله إلى أنّالدّور الذي تضطلّع بـه النتيجـة الـتي اسـتهلت الـسورة كـان لغرض حجاجي، وهو المتمثل في إفحام المخاطب، وإقناعه بمضمون الدعوة.

في السياق ذاته، يولي الباحث أهمية قصوى للعلاقات الحجاجيـة، والـتي لا تـتمّ إلا باستدعاء الروابط التعليلية الحجاجية لضمان نجاح اتـساق الجمـل في الـسّورة، وعنـد غيـاب هذه الرّوابط، فإنّ غيابها لا يؤثر على هذه العلاقـات اللامتناهيـة، بقـدر مـا يجليهـا ويعطيهـا حضورا أقوى، كما أن هـذه العلاقـات إمـا أن تكـون تعليليـة أو اسـتنتاجية أو اسـتدلالية أو سببية أو استلزامية مؤكدا على شمولية وسعة مفهوم "العلاقة الحجاجية" التي تختلف عـن بـاقي أشكال العلاقات الأخرى[1].

وعليه،فإنّ بنية السّورة استجابت لآليـات التحليـل المعتمـدة مـن قبـل الباحـث مـن خلال اشتمالها على برنامج حجاجي واحد يحكم كل أجزاء السّورة، بحيث تمّ تقسيم الـسّورة إلى مقطعين: الأوّل، ما سبقت الإشارة إليه، فيما انصرف المقطع الثاني إلى "توضـيح وتفـصيل

---

(1) اللغة والحجاج، ص: 20.

لمجموعة من القضايا المرتبطة بالنتيجة الواردة في الآية الأولى"[1]، وقد اعتبر أستاذنا أن الآية الأولى جاءت كردٍّ وجوابٍ على استفهام مضمر: "لماذا سنسبّحه؟".

وتبعا للمقاطع الموضوعة، يرى الباحث أنّ المقطع الثالث، بمثابة تحويل تامّ لمسار السّورة الحجاجي، وذلك بإدراج الرابط الحجاجي "بل"باعتباره ممهّداً لحجّة مناقضة لما سلف من الحجج وصيغ التلفظ، بحيث إنّ الحجج التي ستلي هذا الرّابط هي حجج من شأنها أن تبطلَ مفعول الحجج السّابقة نظرا لقوّتها الحجاجية، وقدرتها على نسف كلّ ما سبقها من حجج ودلائل، ولقدرتها كذلك على تحوير مجرى الآيات وتغييره، كما يؤكد ذلك الباحث ضمن الجزء المخصّص لمقاربة الخطاب القرآني حجاجيا.

ومن الثابت أيضاً أنّ القوّة الحجاجية للعنصر الدّلالي الذي يلي الرّابط يكون أقوى حجاجيا مقارنة مع ما سبقه، والأمر نفسه بالنسبة للآيات التي تلي الرابط الحجاجي باعتبارها تفسير الإيثار النّاس الحياةَ الدنيا، وزهدهم عن الآخرة؛ أي إن القوّة الحجاجية تنتقل من النتيجة الأولى إلى نتيجة أخرى تناقضها بشكلٍ بارزٍ رغم ضعفها فهي تكتسب قوتها من قوة واقع النّاس الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة كما ورد في التحليل الحجاجي للسّورة.

ولذلك، فقد أقر الباحث عند مختتم تحليله لـ"سورة الأعلى" بعدم شمولية التحليل للمظاهر الحجاجية والتداولية للسّورة، نظر الطبيعة القرآن الكريم بما هو خطاب طبيعي يحكمه المنطق الذي يحكم الخطابات الطبيعية، فهو خطاب يقوم على الحجاج والمنطق الطبيعي. مع التنبيه إلى أنّ مظاهر الحجاج وطبيعته تختلف من سورة لأخرى، وذلك حسب الروابط ونوع العلائق المنطقية التي تشتمل عليها كلّ سورة على حدة.

---

[1] الخطاب والحجاج، ص: 21.

مجال الحجاج فيإ الشعر

يتوخى التحليله هنا دراسة هذا النص[1] درلسة حجاجية منطلقا مـن التـصور الـذي يقضي بأن ثمة شعرا حجاجيا، وشعرا غير حجاجي، وما اختياره لهـذه القـصيدة تحديـدا، إلا لخدمة سياق القراءة ومنطق التناول الحجاجي.

على هذا الأساس ستعتمد هـذه المقاربـة، وانـسجاما مـع خطـة الكتـاب ككـل، إلى توجيه التحليـل ليـشمل الخطابـات المعاصـرة لـيس الـشعرية فحسب، بـل حتـى القصـصية والروائية والمسرحية وغيرها. وستعمل مقاربة الأستاذ العزاوي على ابتـداع آليـات ومفـاهيم مستحدثة للتأكيد على قابلية النص الشعري المعاصر لهذا النمط من التحليل؛ أي إنّ الدّراسـة ستكون ذات طابع حجاجي لجميع مكونات القصيدة، ويعتبر الباحث أن هذا الإنجـاز وسـيلةٌ من وسائل تطوير النظرية الحجاجية، وتوسيع لمجال تطبيقها.

وتعرض الباحث في معرض تحليله لرأي الفيلسوف الأمريكي "تولمين" كاشـفا مـواطن لخلل في هذا الرأي الذي يقول بأنّ هناك تعارضا بـين الحجـاج والـشعر، لأن الحجـاج يقـوم على الابتذال، فيما الشعر يقوم على الرؤية الفردية. بينما ينصرف رأي أستاذنا إلى اعتبـار أن لحجاج والشعر ينبنيان على المعرفة المشتركة مستدلا على صحة موقفه بآراء فلاسفة العـرب، ومنهم حازم القرطاجني الذي يرى أنّ الخطابة تقوم علـى الإقنـاع، فيمـا الـشّعر يقـوم علـى التخيـل، مع إمكان وجود التخيـل في الخطابة، ووجود الخطابة في الشعر.

ومن القرائن التي انطلق منها الباحث في تحليله الحجاجي، ثمة عتبة العنوان بوصـفها نافذة نطلّ من خلالها على عوالم النّصوص، ومفتاحا يـدفعنا إلى توقّـع جملـة مـن الفرضـيات لمصوغة نظرا لإمكاناتها الجليلة الأثر في خدمة التحليل الحجاجي للقـصيدة برمّتهـا، فكانـت نظرته إلى هذه العتبة من زاويتين اثنـتين: الأولى تتمثّـل في ربطـه بالـسّبب، والثّانيـة في تعلّقـه بالمرض، وهما فرضيتان يمكن التّحقّق منهما مع تقدّم التحليـل الحجـاجي المعتمـد، للوقـوف على مدى إسهام أحـدهما أو كليهمـا في بنـاء المعنـى الحجـاجي العـام للـنص. كمـا اعتمـد

خصّ الباحث في هذا الفصلخطا با شعريا متمثلا في قصيدة معاصرة وهي قصيدة "العلة"لأ حمد مطر.

الباحث مسوّغا حجاجيا لا يقلّ أهميةً، فمن خلال استقراء التّعارض الحجاجي للثنائية الضدية: الطبيب≠الرقيب، فقد ظلّ الشاعر متراوحا بين طرفي هذه الثنائية، مع العلم أن إمكان ترجيح الكفة الثانية كان أمرا شبه محسوم على اعتبار أنّ سلطة الرقيب تبقى أكبر سلطة من سلطة الطبيب الساعي إلى تشخيص المرض، ومعرفة مكمنه لكن دون جدوى أمام جبروت السّلطة المادية والمعنوية التي يتملكّها الرّقيب.والأكثر من هذا، نلفي أن الاختيارات اللغوية لم تكن اعتباطية، بل إنها خضعت لمبدإ التساوق الحجاجي الذي ينظم مقاطع النص وأسطره الشّعرية.

يبدو من خلال هذا التحليل أيضا أنّ القصيدة خزّان للتعبير الاستعاري الحجاجي الذي يحتفظ بمقصديته الحجاجية التي تكتسب قوتها من خلال المفردات[1]؛ فتوظيفها في النص لم يكن اعتباطا، لأن الاستدلال بواسطة الاستعارة لا يورث المتكلم على تكثير عباراته فحسب، بل يورثه القدرة العجيبة على تكثير ذواته الخطابية[2]، كما أن هذا التوظيف إنما كان لأغراض حجاجية محددة سلفا تسهم إلى حد بعيد في تقوية القيمة الحجاجية العالية التي تمنحها هذه الآليات مجتمعة.

وانسجاما مع طبيعة التناول المعتمد في الخطاب الأول، فقد عمد الدّارس إلى تقطيع هذه القصيدة وفق معايير إيقاعية تسهم في ضبط النص وتمحيصه. ويظلّ هذا التقطيع أكثر ارتباطا بتقنية لا تخلو من فاعلية حجاجية، وهي تقنية التكرار اللافتة للنّظر في قصيدة" أحمد مطر"، وهي من الأساليب البلاغية التي أسهمت في شحن القول بقوة إيحائية وحجاجية أكبر سمحت للشاعر بالكشف عن موقفه من جهة، وبالتأثير في متلقيه، وإشراكه في انفعالاته من جهة ثانية. وقد شمل التّكرار في القصيدة ملفوظات ووحدات لغوية ورابطا حجاجيا متمثلا في" لكن"لدوره البنائي[3]، ودوره في خلق انسجام النص تداولياً وحجاجياً، وفي إنجاح العملية

---

(1) الاستعارة والحجاج، ميشيل لوقرن، ترجمة الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد 04، 1991، ص: 87

(2) اللسان والميزان والتكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998، ص: 295.

(3) نشير إلى أن الرابط "لكن" قد تم تكراره في القصيدة برمتّها مما جعله عنصرا خادما للإيقاع.

التواصلية، وتحقيق شروط ومتطلبات السّياق التّخاطبي والاجتماعي العامّ"[1].

ومن القرائن النصية الحجاجية الأخرى، يكشف التحليل أيضا عن حجاجية القصيدة بناء على المؤسسة التي يخضع لها هذا الحوار ذاته في النص، أو الأفعال اللغوية بوصفها أحد مكونات الحوار. وفي هذا الصّدد يفتح الباحث الباب على مشراعيه أمام نظرية أفعال الكلام مطبقا مقولاتها على المتن الشعري للكشف عن حجاجية القصيدة من خلال أفعالها اللغوية التي تتراوح بين طلب إنجاز فعل ما، وتعذّر تحقّقه لكون إحدى السّلط أقوى من الأخرى.

وإذا كانت القصيدة مبنية وفق ردود فعل الشاعر، وهي ردود تأرجحت بين الطّي والذّكر إلى غاية نهاية المقطع الرّابع والأخير؛ المقطع الذي سجل ذروة المأساة المفسّرة للوضعية العامة لمجموع الاستفسارات التي لم تلق ردا في كلّ محاولة استفسارية كان يقوم بها الطّبيب. على أن هذا الإجراء عمِل على إظهار الجوانب الحجاجية للقصيدة، وإبراز مظاهر الانسجام فيها بما فيها الإيقاع باعتباره الناظم الأساس له، إلى جانب مكونات وعناصر أخرى. ونخص بالذكر مبدأ "الانسجام الحجاجي" الذي يغدو معه التركيب بمثابة النّاظم لكلّ مكوّنات القصيدة وعناصرها المتجلية في الدلالة والمعجم والصوت والإيقاع كما سلف القول.

هكذا إذن، وتبعا لما ورد في النموذج التحليلي الأول، سيعمل الباحث كذلك على تقصّي الرّوابط الحجاجية التي يمكن تقسيمها إلى جزءين: جزء خاص بالروابط النّحوية، وجزء ثان متعلق بالروابط التداولية الحجاجية، وتكمن وظيفة هذه الروابط النحوية في الحفاظ على تلاحم النّصّ وانسجامه نحويا ونصيا، فيما تنصرف الرّوابط الحجاجية خاصة الرّابط الحجاجي "لكن" المميز في القصيدة عبر تمظهراته الأربعة في النص في تحقيق الانسجام التداولي والحجاجي ليس للنص ككل، بل لكل مقطع على حدة. وإذا كانت هذه الرّوابط الحجاجية صريحة في النّصّ وظاهرة، فإن ثمة روابط حجاجية مضمرة بمقدروها الربط بين المقاطع الشعرية، وهي التي تكون علاقتها مبنية على السّببية، وبهذا الإجراء تغدو القصيدة

(1) الخطاب والحجاج، ص: 50.

محكومة بعلاقات تسلسل وترابط، فكلّ مقطع يكمل الآخر ويتممه دلاليا وتداوليا وحجاجيا[1] سواء أتم التصريح به أم لا.

وبما أن القصيدة في بنيتها السّطحية تهدف إلى الإمتاع بما هي نص تخيلي، بيد أنّ بنيتها العميقة تكاد تكون منطوية على قيم خاصة؛ قيم نبذ الظلم، وشجب كل ألوان القهر الإنساني، وفي هذا تمثيل وانفتاح على ما جاءت به التداولية المدمجة على يد كل من ديكرووأنسكومبر من خلال ربط القيمة الحجاجية لقول ما بالنّتيجة التي يمكن أن تؤديً إليها، أي بتتمّته الممكنة والمحتملة[2].

بعد هذه المتابعة التحليلية لقصيدة "العلة" نستطيع القول، إنّ الباحث حاول تقديم تحليل حجاجي من زوايا نظر متعددة ضمن استراتيجية حجاجية تدخل في إطار البرنامج الحجاجي العام الذي يتشكل من مجموعة من الآليات الحجاجية نذكر من بينها: الأفعال اللغوية، والروابط، والعوامل، وأساليب الاستفهام الحجاجية مع إبراز دور الرّابط في تقوية الحجاج عامّة في النص من خلال إدراج حجة جديدة أقوى من الحجة المذكورة قبله، والحجتان معا تخدمان النتيجة الواحدة، لكن بدرجات متفاوتة من حيث القوة الحجاجية[3]، ويبقى موقع الرّابط داخل نسيج النص متحكما في بنية النص الحجاجية ككل، الأمرالذي يتيح له إمكان تغيير المسار الحجاجي المعتمد أيضا.

من مظاهر الحجاج في الخطاب المثلي

خصّص الباحث هذا الفصل إلى لفت الانتباه لأهمية الأمثال العربية،لاسيما وأنّ الكلام إذا جُعل مثلا كان أوضح للمنطق، وآنق للسّمع، وأوسع لشعاب الحديث[4]. من هنا مأتى قوّة الوظيفة الحجاجية للأمثال مقارنة مع باقي البنى التلفظية الأخرى. وسيحاول

---

(1) اللغة والحجاج، ص: 26.

(2) نفسه.

(3) اللغة والحجاج، ص: 27. نقلا عن كتاب: السلم الحجاجي لديكرو، صص: 15 16.

(4) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1972م، ج1، ص: 06.

الباحث في هذا الفصل دراسة الأمثال المغربية العامية؛ إذ لا يخفى ما للأمثال بشكل عام من أهمية في الدراسات الأدبية واللسانية والسّيميائية والاجتماعية التي طفقت تقارب بنية المثل من جهاته الدّلالية والتّداولية والقولية والمنطقية مثل مفهوم "الاستلزام"[1] الذي يربط بين طرفي العملية الحجاجية داخل كل نصٍّ مثلي.

ولإنجاز التّحليل الحجاجي المتوخّى للأمثال المغربية العامية وفق مفهوم الاستلزام[2]، قام الباحث بجرد أهمّ الدّراسات اللّسانية المنجزة في هذا الإطار خاصة في أوروبا الشرقية لكونها بحوثا ذات تحليل استلزامي منطقي صوري، فأشار إلى أعمال بوريدان BuridantC. وسوار F.Suardاللذين يعتبران أن البنية المنطقية للمثل قائمة على مفهوم الاستلزام. وبهذا يكون الباحث قد أفاد من هذه الإنجازات رُغم تفنيد آرائهم القاضية بأنّ الاستلزام الصوري هو الأنسب للأقوال المثلية بناء على صياغة كانيو الذي أرجع البنية المنطقية للأقوال المثلية إلى الصورة القضوية الأساسية[3] كاشفا في الوقت ذاته جوانب القصور والتعثر في مقاربة وتحليل هؤلاء اللغويين.

ومن ضمن الجوانب التي كانت محلّ اهتمام من لدن الباحث ثمّة علاقة الأمثال المدروسة عندريجال Riegel بمفهوم الاستلزام مشيرا إلى استهلال هذه الأمثال باسم موصول هو Qui منبّها إلى أنّه ليس من الضروري أن تفتتح بنية المثل بالأدوات الاستلزامية المعروفة (إذا، إذن...) و(من...ف) أو ما يقابلها في اللّغات الأخرى. بل إلى جانب الاستلزام ثمة علاقات دلالية مثل السّببيّة والاحتمال والتّلازم والشّرط...إلخ. وكشف الباحث كذلك عن جوانب القصورفي اختيارات ريجال المثلية المتجلية في عدم استجابتها للتّحليل الاستلزامي نفسه؛ إذ إن أغلبها "يتضمن علاقة سببية أو احتمالية، أو يتضمن شرطا كافيا لا ضروريا"[4]. بل إنه عمل على توضيح إمكانات قراءة المثل الواحد في سياقات متعددة

---

(1) الخطاب والحجاج، ص: 65.

(2) نشير ههنا أن الاستدلال هو مجال بحث المناطقة بشكل أساس، فمن خلاله يهدفون إلى صورنةالأنظمة الخاضعة للملاحظة والتّجربة، وأنه يقوم على استنباط النتائج من المقدمات المفضية إليها.

(3) الخطاب والحجاج، ص: 68 69.

(4) الخطاب والحجاج، ص: 71.

ومقامات مختلفة.

وقد تبين من خلال التحليل أن الباحث قسّم الأمثال الشعبية المغربية إلى نمطين تركيبيين: النّمط الأول وهو الذي يبتدئ بأداة الشرط، والنّمط الثاني يبتدئ باسم الموصول مع كشفه لمحدودية التّحليل الاستلزامي من خلال إخضاع بعض الأمثال لهذه العلاقة الاستلزامية ومدى استجابتها لـ"قانون عكس النقيض"[1]، فهذا القانون حسب رأي الباحث بإمكانه الكشف عن علاقة الاستلزام لكلّ الأمثال الشعبية التي خضعت للتحليل، وكلّما كانت الأمثال خاضعة لـ"قانون عكس النقيض" يمكن أن تكون ذات علاقة استلزامية.

كما تجدر الإشارة هنا أنّ الإجراء التحليلي الذي طبقه الباحث لا ينسحب على أمثال بعينها، بل إنّه يشمل الأمثال التي تبتدئ بأدوات أخرى غير تلك التي تستهل بـ "إلى".

ليقترح الدارس صيغة وسطية بين ما ذهب إليه ريجال، وما استنتجه من هذه الأمثال من علائق دلالية واستلزامية التي يمكن أن تتضمنها هذه الأمثال منتهيا إلى مفهوم الاستلزام التداولي الطبيعي، مؤكدا أنّ الاستلزام يحضر في البنية الداخلية لعدد محدود من الأمثال، وذلك لتذويب إشكال الاستلزام فيها،ذلك أنّ القول بالاستلزام في الأمثال يرجع حسب وجهة نظر الباحث إلى صلة اللغة بالمنطق[2]، بحيث إنّ هذا الرأي ينبني على أهمية التحليل المنطقي الصوري للغات الطّبيعية الذي يتعارض والاختلاف القائم بين خصائص اللّغات الطبيعية واللّغات المنطقية الصّورية معلنا قصور هذا الأخير، وعدم كفايته في الإحاطة بكلّ الأمثال رغم تصديرها بأدوات الوصل أو غيرها.

وأنهى الدارس هذا المبحث بالتساؤل حول إمكان استجابة معطيات اللّغات الطّبيعية للتّحليل المنطقي والرّياضي والصّوري لينتهي إلى بيان عدم ملاءمة النّماذج الصّورية المنطقية للغات الطبيعية، واستبدال بالمنطق الصوري منطقا للغات الطبيعية كنموذج بديل

---

(1) الخطاب والحجاج، ص: 73.

(2) يمكن التدليل على هذه الصلة المتحققة من خلال ما أنجزه الدكتور طه عبد الرحمن؛ إذ يقول: «إن الصلة بين المنطق واللغة متينة مكينة حتى لا انفكاك لأحدهما عن الآخر؛ فلا لغة بغير منطق، تستوي في ذلك اللغة الطبيعية واللغة الصناعية...». لمزيد من التفصيل انظر: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، م، سا، ص: 403. وينظر كذلك كتاب: اللغة والمنطق لمحمد الداهي.

يسمح بوصف جلّ الأقوال المثلية، إن لم يكن كلّها[1]، وهذا المنطق لن يكون سوى النظرية الحجاجية على اعتبار أن كل قول مثلي يحتمل إيجاد علاقة حجاجية تتجاوز المنطق الداخلي والخارجي إلى حالة ثالثة يقوم فيها المثل بدور المبدأ الحجاجي الإقناعي (Topos) بناء على خدمته لمنطق الحوار أو توظيفه في الخطاب، أو حين يتمّ الاستشهاد به أثناء الجدال والسّجال والمناظرة باعتباره مسلمّة استدلالية منطقية حجاجية، وباعتباره ضامنا يضمن الرّبط والتّعالق بين المتغيرين الحجاجيين؛ أي بين النتيجة التي نهدف إليها، والحجة التي تخدمها وتؤدي إليها[2]. كما اعتبر الباحث أيضا أنّ المثل يدخل في نطاق الأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة بشرية معينة، وأنّه يقيم تماثلا بينه وبين هذه المبادئ الحجاجية العامّة التي تعدّ من الحقائق والمعاني الكلية.

ولإثبات ما سطره الدارس نظريا، سعى إلى تطبيق المبدأ الحجاجي على بعض الأمثال المغربية، ليكتشف أنها مبنية على جملة من الأوصاف، فهي تقيم علاقة تدرجية بين محمولين، الأول يؤدي إلى الثاني والعكس صحيح[3]، كما عمد إلى توزيع هذه الأمثال حسب مجالاتها التي تنتمي إليها، ومجال القيم التي تندرج تحتها،لتيسير عملية استنتاج مبدأها الاستدلالي الحجاجي. وما دام المثل سلسلة من الأقوال والجمل، فإنّه سيوظّف بالضّرورة روابط وأدوات كتلك التي توظفها الخطابات التي سبق وأن درسها الأستاذ العزاوي، وهي من صميم خطة العمل في هذا الكتاب.

وإذا كان في اعتبار الباحث أنّ المثل يرقى إلى الحجة القوية أو الحجة الجاهزة لا باعتباره مبدأ استدلاليا، بل لطبيعة العلاقة الحجاجية المعروفة بمرونتها ونسبيتها واحتماليتها داخل محمولاته، فإنه يؤكد على عدم تضمن البنيةالداخلية لكثير من الأمثال لعلاقة حجاجية ما، كما أنه لم يعتبر المثل حجّة عادية، وهو الرأي نفسه الذي اعتمده من قبلُ أنسكومبر في

(1) الخطاب والحجاج، ص: 80.

(2) الخطاب والحجاج، ص: 80. وكذلك:

Essais sur l'argumentation, introduction linguistique a l'étude de la parole argumentative, Edition kimé, 1990,P: 29_30.

(3) الخطاب والحجاج، ص: 81.

الدراسات الغربية، وكذلك الدكتور محمد العمري في دراسته التأصيلية "في بلاغة الخطاب الإقناعي". وخلص في الأخير إلى أنّ حجة المثل هي حجة احتمالية، لا حتمية إلزامية حتى تكون إطارا للحجاج والاستدلال[1]، لأنّ الأمثال وليدة الوعي الجمعي، ومنتج الذاكرة، بمعنى أنها مسلّمات استدلالية حجاجية تتيح لمستعمليها القيام باستدلالات طبيعية وتداولية[2] لا منطقية مصورنة.

وختام القد كان تحليل العزاوي للأمثال الشعبية يتغيى إبراز المظاهر الحجاجية للمثل من خلال تحليل بنيته الدلالية المنطقية، ومن خلال إظهار طرائق وآليات اشتغاله في الخطاب، وكشف تنوع بنية هذه الأمثال، وكذا مظاهر اشتغاله الذي لا يقف عند حدود المبدأ الحجاجي كما هو معروف عند أنسكومبر وغيره. فضلا عن التأكيد على نجاعة التحليل الحجاجي اللغوي في مقاربة الخطاب المثلي من جهة، والتأكيد على الطبيعة الحجاجية للخطاب الطبيعي وللغات البشرية برمتها.

الصّورة الإشهارية والحجاج الأيقوني

لكي يستوفي الباحث أنماطا تنتمي إلى حقول متباينة واهتمامات شتى، قدم مشغلا تحليليا إضافيا يضع من خلاله بعض لبنات التحليل الحجاجي المتمثل في الخطاب الإشهاري الذي يقوم على الصّورة بالأساس كمعطى لا غنى عنه في المنظومة الإشهارية. وفي مستهل هذا الفصل قدّم تعريفا موجزا للصّورة ولتجلياتها في الحقول العلمية والمعرفية والثقافية قبل الخوض في تحليلها من منظور حجاجي، وتحدّث كذلك عن امتدادات الصّورة في اللّغة والأدب والمنطق والفلسفة وعلم النفس والسّوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والسينما والفنون التشكيلية[3].

على هذا الأساس، أمكن القول إن الصورة باعتبارها مفهوما يتحقق في كل

(1) الخطاب والحجاج، صص: 91 92.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) الخطاب والحجاج، ص: 100.

الخطابات بما فيها الخطاب الإشهاري الذي تكون فيه الصورة الإشهارية مرتبطة بالإدراك والتصور والوعي واللاوعي والفهم والتمثيل والخلفية المعرفية، فإنّ جوانبها ومظاهرها ستكون عديدة ومتنوعة كذلك[1]. وما تعدّدهذه المظاهر والجوانب إلاّ خدمة لمقاصدها وغاياتها التي أصبحت مثار اهتمام الأوساط العلمية لأثرها البالغ من ناحية ولأهميتها من ناحية ثانية. غير أن القضايا المستحدثة في التناول تبدو من خلال إبراز الجوانب الحجاجية للصورة الإشهارية التي تزاوج بين المكونات اللّغوية والأيقونية، كما تزاوج بين النظريتين المتمثلتين في الجوانب التصورية المعرفية باعتماد منهج جاكندوف بخصوص البنية التصورية، والجوانب التصورية الإقناعية باعتماد الحجاج باللغة. فكل ذلك يسهم في إغناء التحليل الحجاجي لهذا النوع من الخطاب بشكل عام.

وتكشف لنا هذه المقاربة عن تعالق المكوّنات الأيقونية واللغوية في الصّورة الإشهارية، وخدمة كلّ واحد منهما للآخر ما دامت المقصدية واحدة، وهي التأثير في المتلقي ودفعه إلى اقتناء المنتوج، خاصة وأنّ التغيير في السلوك الإنساني يقتضي الإقناع والحجاج والاستدلال، وبالتّالي فإنّغاية الخطاب الإشهاري تواصلية بالأساس، وكلّ عملية تواصلية ينبغي أن تكون مقرونة بعملية حجاجية. وعليه فإنّ الخطاب الإشهاري من هذا المنظور خطاب حجاجي بامتياز، يخدم نتائج صريحة أو مضمرة محدّدة سلفا، وهو خطاب لا يقلّ أهمية عن الخطابات الأخرى التي درسها الدكتور العزّاوي ضمن هذا الكتاب. ويصدق على هذا الخطاب ما يصدق على مجمل الخطابات الأخرى التي يكون فيها الحجاج نشاطا لغويا. مع فارق واحد هو أن الصورة الإشهارية تكون فيها الاستجابة أسرع لكونها تشغل ميكانيزمات اللاوعي بشكل عميق كما يؤكد ذلك الباحث نفسه.

هذا وقد دعا الباحث إلى ضرورة دراسة الخطاب الإشهاري دراسة نسقية مع العمل على استقراء الإمكانات الحجاجية التي تختزنها الصورة الإشهارية، وكذا استبعاد وتجاوز الدراسات التي كانت تتبنى معالجة الحجاج من منظور منطقي أو فلسفي أو بلاغي، نظرا لعدم تلاؤمها والحجاج اللغوي.

---

(1) نفسه.

ومن الصور الإشهارية التي تناولها بالتحليل، ثمة صورة علبة السجائر الأمريكية "مارلبورو" التي تحمل صورة واسما في الآن نفسه؛ أي إنها تحمل حججا وأدلة ونتائج حسب التصور السالف الذكر. وقد حاول الباحث تحديد أوجه التماهي الحاصل في الاسم والصورة، علماً أنّ التطبيق الأول كان بخصوص الحجاج الأيقوني، فيما زاوج النموذج الثاني بين الحجاج الأيقوني والحجاج اللغوي المتجلي في الملفوظات التي توظف توظيفا حجاجيا وهي ذات "توزيع تكاملي". ولكي يُثبت الباحث شمولية ونجاعة التّحليل الحجاجي للخطاب الإشهاري قام بتحليل نموذجين آخرين متعلقين بعلب السجائر الأمريكية لإثبات فكرة مُفادها أنّ الصور الإشهارية بطبيعتها حجاجية إقناعية وتأثيرية، وهذا وجه من وجوه الانسجام الذي ينبغي أن يجسده الباث بوصفه منتجا،ويستحضره المتلقي بصفته مستهلكا في أثناء تلقيه للأثر الإشهاري لأول وهلة.

ويخلص الباحث في نهاية الأمر إلى أن العناصر الأيقونية تمتلك القيمة نفسها التي تمتلكها الوحدات اللغوية في البنية التصورية كما هي عند جاكندوف، وكما تمثّلها هو نفسه في تحليله الخطابَ الإشهاري.

خاتمة

نخلص مما سبق فنقول، إنّ الكتاب في واقع الأمر إسهام علمي ومعرفي جسد اجتهادا مغايرا للاجتهادات الحاصلة في مجال الحجاج بشكل عام، سواء الحجاج المنطقي أو الحجاج البلاغي، حيث قام الباحث بوضع الوظيفة الحجاجية للخطاب في موضعها كاشفا وظيفتها المركزية والأساسية مقارنة مع باقي الوظائف الأخرى كالوظيفة التداولية، والوظيفة الجمالية، والوظيفة الإيديولوجية. وبالنسبة إلى الإضافة التي قدّمها الكتاب، فتكمن في تثبيت مشروع علمي طموح خطً أصوله ديكروواُنسكومبر ولا زال يجد امتداداته في الساحة الثقافية العربية إلى الآن. أما على مستوى اختيارات الباحث ضمن مدونة بحثه، فإنّها كانت انتقائية بشكل دقيق، وهو ما يمكن أن نلمسَه في اختياره للسّورة والقصيدة نظرا لطبيعتهما الاستدلالية،وهو ما جعله يعتمدهما في مقاربته الحجاجية مع مؤاخذتنا عليه اختيار نمط واحد في تحليله للخطاب الإشهاري.كما وجب التننبيه على أن القول بوجود شعر حجاجي وشعر غير حجاجي من شأنه أن يخلق نوعا من الإرباك على مستوى المفاهيم التي يتمثلها الباحث وهي النظرية الحجاجية اللغوية، القائلة بأن الحجاج ثاوٍ في الجمل والأفعال والحروف وغيرها؛ أي أن الكلام عامة يُحمل على الحجاج لا على أي شيء آخر كمحتواه الخبري مثلا، حتى وإن كان ذلك داخل في باب الإخبار وليس اللعب بالألفاظ كما اعتقد ذلك أستاذنا. كما أنّه اعتبر أنّ التمييز بين التأثير والإقناع يتمّ في إطار خاصّ غير ذلك الوارد في الدّراسات الكلاسيكية كما هو الشأن عند أرسطو وبيرلمان، لكونه يستقي إطاره النظري من خلال نظرية "الحجاج في اللغة" معتبرا أن دلالة الإقناع والتأثير في ظلّ هذه النظرية المعتمدة هي أشمل وأعم على اعتبار أنهما لا يرقيان في الدراسات الكلاسيكية حسب رأي الباحث إلى الغنى والتعدد الذي تمنحه اللغات الطبيعية لأن التقنيات الحجاجية التي نجدها في البلاغة القديمة والحديثة والدراسات المنطقية والفلسفية عبارة عن حالة خاصة فحسب[1].

وختاما نوجز فنقول، إنّ أبا بكر العزاوي رُغم تأكيده على حجاجية اللغة وفعاليتها

(1) الخطاب والحجاج، ص: 60.

الحجاجية التي هي صفة لكل خطاب طبيعي، فإن جوانب أخرى حضرت في تحليلاته خاصة الجانب التداولي باعتبار الطابع المقامي والتشاركي للحجاج، وإذا كان الباحث قد توفق في هذه المسألة تحديدا حين تعرض لذلك في الكتاب الأول، فإن حاصل هذا الاجتهاد النقدي لم ينج من التأثر، إلى حدّ ما، بالنظريات الحجاجية الموازية لأنه لا مجال للمنازعة بين النظريات الحجاجية فهي تأخذ وتفيد من بعضها البعض بشكل أو بآخر، حتى من دون التصريح بذلك. وما استحضار بعض آليات الاشتغال ومقولاتها الخاصة بها أكبر دليل على هذا التداخل وليس التعارض أو التباعد. وبرغم ذلك، فإنّ منزلة هذا الكتاب تظهر من خلال محاولة صاحبه الجادّة في تخليص الحجاج من أسر البنيات الاستدلالية الصورية،ورغبته الحثيثة في تقريبه من مجالات اللغة وما يدور في فلكها التي كان إحدى نتائجها نقل هذا الاجتهاد العلمي إلى مستوى أكبر وهو مستوى الخطاب الذي أظهر ملاءمته لهذا النمط من التحليل إلى حدٍّ بعيدٍ.

أبو بكر العزاوي والحجاج اللغوي

د. عبد الواحد التهامي العلمي

1- تقديم

أبو بكر العزاوي، يعمل أستاذا للتعليم العالي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي سليمان ببني ملال، شارك في ندوات وألقى محاضرات في بعض الدول العربية والإسلامية والأوروبية، ويترأس الجمعية المغربية لتكامل العلوم بالدار البيضاء، ويعمل مستشارا علميا ببعض شركات النشر والتوزيع.

استفاد الباحث من أستاذه أوزفالد ديكرو Oswald Ducrot، الذي يعد "أحد كبار علماء الدلالة والتداوليات في أوروبا، والذي خصص جزءا كبيرا من مشروعه العلمي لدراسة الحروف والروابط والأدوات لمدة تقرب من أربعين سنة..."[1].

تخصص العزاوي في نظرية الحجاج اللغوي بعد تحضيره لأطروحة الدكتوراه بعنوان: "بعض الروابط التداولية في اللغة العربية: مقاربة حجاجية أصواتية"، بإشراف أستاذه أوسفالد ديكرو، سنة 1989-1990 بمعهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بفرنسا،كما أنجز أطروحة أخرى لنيل شهادة دكتوراه الدولة حول" الحجاج في اللغة العربية"، بإشراف الدكتور محمد مفتاح، سنة 2000-2001.

يعد أبو بكر العزاوي رائدا للحجاج اللغوي في المغرب بل وفي العالم العربي؛ فهو أول باحث مغربي وأستاذ جامعي أدرج نظرية الحجاج اللغوي ضمن المقررات الدراسية في شعبة اللغة العربية بكلية الآداب. يطمح على الدوام إلى تحقيق مشروعه الكبير في تطوير نظرية الحجاج اللغوي المتمثل حاليا في كتاباته ومؤلفاته. تمكَّنَ بفضل اجتهاده ومثابرته في البحث من تحقيق مشروعه الكبير في نظرية الحجاج اللغوي الذي يتجلى في مؤلفاته الآتية:

---

(1) أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى 2010، ص.96.

1- اللغة والحجاج.

2- الخطاب والحجاج.

3- حوار حول الحجاج.

4- اللغة والمنطق: مدخل نظري.

خصص الباحث كتابه الأول: "اللغة والحجاج" لدراسة الحجاج اللغوي في اللغة العربية، وقد وضح في الفصل الأول بعض المفاهيم ؛ كمفهوم الحجاج، والسلم الحجاجي، والروابط والعوامل الحجاجية... والمعنى الحجاجي والمعنى الإخباري، ودرس في الفصل الثاني بعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية مثل: (بل) و(لكن) و(حتَّى)، وقارن بين (حَتَّى) و(بل)، ودرس في الفصل الثالث الاستعارة والمعنى الحجاجي، وخصص الفصل الرابع لدراسة قوة الكلمات أو اللغة بين الإنجاز والحجاج.

ويعد كتابه الثاني "الخطاب والحجاج" دراسة مكملة لكتابه السابق "اللغة والحجاج" الذي نجد فيه تحليلا مفصلا لمختلف أنواع الخطابات، كالخطاب القرآني، والخطاب الشعري، والخطاب المَثلِي، والخطاب الإشهاري.

وخصص كتابه الثالث "حوار حول الحجاج" لدراسة العلاقة الوطيدة بين المنطق واللغة، ودراسة خصائص اللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية الصورية، ومفهوم المنطق الطبيعي ونماذجه. وسيتوسع هذا الحوار أكثر ليلقي الضوء على مجموعة من القضايا والإشكالات المرتبطة بالحجاج، كعلاقة الحجاج بالحوار والاختلاف والتربية على حقوق الإنسان، وعلاقة التواصل بالحجاج.

وتوخى الباحث في كتابه الرابع: "اللغة والمنطق: مدخل نظري" إبراز علاقة المنطق باللغة وكذا مقارنة الظواهر اللغوية بالظواهر المنطقية.

وتجدر الإشارة إلى أن كل أعمال الباحث في نظرية الحجاج اللغوي مكتوبة باللغة العربية، باستثناء كتابه الأخير الذي صدر مؤخرا بعنوان: "الحجاج والتلفظ" Argumentation et énonciation حرره الباحث باللغة الفرنسية، ووضع له جان بليز

غريز Jean-Blaise Grise مُقدمة مركزة وافية.

2- الحجاج والتلفظ

إن الكتاب الذي نقدمه إلى القراء هو أول كتاب للباحث أبي بكر العزاوي، كتبه باللغة الفرنسية كما ذكرنا سابقا. ويهدف من خلاله إلى التعريف بأهم نظريات الحجاج لدى روادها المشهورين، أمثال: أوسفالد ديكرو Oswald Ducrot، وجان-بليز غريز Jean-Blaise Grize، وشاييم بريلمان Chaim Perelman.

وفي هذا الكتاب عرض شامل ومفصل لنظرية الحجاج اللغوي، ويشتمل، بعد مقدمة لجان-بليز غريز، ومدخل للمؤلف، على ثلاثة فصول:

1- الفصل الأول: المنطق، اللغة والحجاج.

2- الفصل الثاني: الحجاج في اللغة.

3- الفصل الثالث: التلفظ وتعدد الأصوات.

ومن اللافت للنظر أن الباحث قد عمد في هذا الكتاب منذ البداية إلى توضيح العنوان الذي يتكون من مصطلحين هما: "الحجاج" و"التلفظ"، فلجأ إلى تعريفهما وتعريف المفاهيم التي اصطلح عليها اللغويون والبلاغيون. ولم يكتف الباحث بعرض هذه التعاريف فحسب، بل عمد إلى اجتهاده في وضع تعاريفه الشخصية لهذه المصطلحات والمفاهيم.

ولم يكن غرض الباحث يتجلى في تحديد مفهوم "الحجاج" و"التلفظ" فحسب، بل كان يسعى في بحثه إلى تناول مصطلحات ومفاهيم أخرى تنتمي إلى حقل الحجاج، كالاتفاق المسبق، والإقناع، والتأثير، والاستدلال المنطقي، والمنطق الطبيعي وتقنياته، وتعدد الأصوات عند أوسفالد ديكرو وميخائيل باختين.

ومن أهداف الباحث أيضا في هذا الكتاب وقوفه على بعض تقنيات الحجاج في اللغة المستقاة من أوسفالد ديكرو وجان-كلود آنسكومبر Jean-Claude Anscombre. إنه يحيل على علماء اللغة المختلفين، وأكثر من هذا فهذا الكتاب يفيد اللسانيين وغير

اللسانيين[1].

3- منهج الباحث في هذا الكتاب

قسم الباحث كتابه إلى ثلاثة فصول مذكرا في البداية ببعض النظريات الحجاجية التي تستند إلى البلاغة الكلاسيكية والبلاغة الجديدة عند أرسطو وبرلمان أو تستند إلى المنطق الطبيعي عند جان-بليز غريز.

يمتح مجال الحجاج _في نظر برلمان_ من البلاغة بينما يمتح هذا المجال _في نظر جان بليز غريز- من المنطق.

لقد حاول الباحث أن يوضح العلاقات القائمة بين المنطق واللغة، ويوضح في الوقت نفسه الفرق بين المنطق والحجاج.

وعلاوة على ذلك، قدم لنا بعض النظريات اللسانية التي تتعارض مع نظرية الحجاج، وقدم دراسة مفصلة حول نظرية الحجاج في اللغة، وبصفة خاصة دراسته حول الحجاج اللغوي.

كما أشار إلى أن "نظرية الحجاج لم تتوقف قط عن التطور"، وبناء على ذلك كشف عن " أربعة مراحل في دراسة الحجاج: مرحلة التيار الوصفي الراديكالي، ومرحلة التيار الوصفي المعتدل، ومرحلة التيار الحجاجي المعتدل، ومرحلة التيار الحجاجي الراديكالي"[2].

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب عَرْضٌ مُفَصَّلٌ لمفاهيم التداوليات المدمجة والتلفظ لدى أوسفالد ديكرو، وعرض لنظرية تعدد الأصوات: تعدد الأصوات عند باختين، وديكرو، وتعريف بمراحلها، وإيجابياتها، وصعوباتها.

---

(1) Boubker Azzaoui, Argumentation et Enonciation, préface de J.B.Grize, TOP PRESSE, Rabat, 2014, p:3 et 4.

(2) مرجع مذكور، ص.8.

4- خاتمة

يتسم كتاب أبي بكر العزّاوي بالتكثيف، والوضوح، والدقة، والشمولية، وهو- إضافة إلى هذه المميزات- ذو فائدة كبيرة ونفع جدير بالتنويه. وتبرز أهميته في كفاءة الباحث وقدرته على تقديم عرض مفيد وواضح من دون أن يتخلى عن إضاءة عدد كبير من المصطلحات التي تنتمي إلى نظرية الحجاج اللغوي. وإذا كان الباحث قد حلل تحليلا جيدا بعض مقاطع ونصوص اللغويين والبلاغيين إلا أنه ظل في الوقت نفسه حريصا على طرح وجهة نظره تجاه نظرياتهم.

لقد كان الباحث واعيا - كما أشار إلى ذلك في خاتمة كتابه - بأنه "طرح أسئلة كثيرة أكثر مما قدم أجوبة"[1].

أما بالنسبة إلى لائحة المصادر والمراجع، فيمكن القول إنها غنية ومتنوعة، مما يدل على أن الكاتب يسعى دائما إلى توسيع آفاقه في حقل الحجاج والنهل من النظريات الحجاجية.

ويمكن أن نؤكد في ختام هذه القراءة أن هذا الكتاب له وزن على المستوى التحليلي والمنهجي؛ ولذلك فدراسته لم تكن أمرا هينا بل تطلبت قراءة متأنية فاحصة، حاولنا من خلالها أن نبرز قيمته ومكانة صاحبه العلمية التي تتجلى في كونه يمتلك مشروعا كبيرا في "الحجاج" وتطوير "نظرية الحجاج اللغوي".

(1) نفسه، ص.170.

نظرية الحجاج: من اللغة إلى الخطاب:
قراءة في مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي

د المدني بورحيس

مقدمة

إن المتتبع لمسار النقد الأدبي الحديث، سيقف على خاصية هامة، وهي اتساع أفق التجريب، وتعدد المقاربات المنهجية. وقد أسهمت عوامل كثيرة في هذا التحول النقدي، ومن أهمها انفتاح النقد الأدبي على العلوم والمعارف الإنسانية المختلفة، بعد ظهور البنيوية اللسانية، وما نتج عنها من نظريات منهجية وعلمية، ثم هذا الفيض من الخطابات والنصوص والاتجاهات الأدبية والفنية التي أثارت قضايا وأسئلة جديدة حول طبيعة الأدب وحدوده، والعلاقة بين الأنواع والأجناس الأدبية، وموقع الخطابات المستحدثة مداخل مؤسسة النقد والأدب، وهي قضايا فرضت على المنظرين والنقاد وضع تصورات منهجية أخرى للتعامل مع هذا التحول، بدءا بمرحلة التأمل ثم التنظير ثم التجريب النقدي.

ونشير في هذا الصدد، إلى تلك المناهج النقدية التي ولدت من رحم الاتجاه البنيوي، مثل السميائيات والتداوليات والدلاليات والشعرية والتأويلية والتفكيكية، وهي مناهج تخذت النص أو الخطاب منطلقا أوليا وأساسيا للمقاربة والتحليل، وإن اختلفت في الآليات النقدية والتصورات التي تتحقق بها تلك المقاربة وذلك التحليل.

وانسجاما مع هذا المنطبق المتحكم في تطور المعرفة النظرية والمنهجية عموما، ظهرت محاولات جديدة اتخذت من التجريب انقدي آلية للبحث في قضايا الخطاب والمنهج والعلاقات التواصلية المتجددة، واختارت هذه المحاولات الواعدة أحد أكثر مكونات الخطاب (الإبداعي والتواصلي والمعرفي) قوة وتأثيرا، وهو الحجاج، مثلما نجد في مشروع الباحث المغربي الدكتور أبي بكر العزاوي، ذلك المشروع الطموح الذي بثه مجموعة من كتبه،

وأخص بالذكر كتاب (اللغة والحجاج) الذي صدرت طبعته الأولى سنة 2006، وطبعته الثانية سنة 2009، وكتاب (الخطاب والحجاج) الذي صدرت في طبعته الأولى سنة 2007، وطبع طبعة ثانية سنة 2010، وهما من الكتب الرائدة في التحليل اللغوية الحجاجي في العالم العربي عامة، بحكم الأسئلة العديدة والإشكاليات الكثيرة التي أثاراها حول الخطاب والتواصل والحجاج، وما يتصل بها من تصورات ومسائل نظرية ومنهجية ونقدية

التأسيس المفهومي للحجاج

لا يخفى على المرء ذلك الدور الكبير الذي تؤديه المفاهيم والمصطلحات في أي نظرية أو بناء معرفي متماسك، فالناقد يحرص على تكوين جهاز مفهومي منظم، فينشغل بالانتقاء والتحديد والضبط الدلاليين، معتمدا على آليات الدراسة الاصطلاحية الدقيقة، من حيث التأصيلُ المعجمي، والتتبعُ المصطلحي، واستحضارُ الاستعمالات السياقية للمفهوم وامتداده في المجال المعرفي الخاص.

وبما أن النظرية الحجاجية التي يروم الأستاذ أبو بكر العزاوي تأسيسها في كتابيه المذكورين سابقا، تتخذ الحجاج بؤرتها وجوهرها، فقد كان من الضروري أن لا يغيب الهاجس المفهومي في هذا الجهد النقدي المتميز، فنجده في مجموعة من صفحات الكتابين يحدد ويعرف ويوضح الدلالات الاصطلاحية، وخاصة حين حديثه عن مصطلح الحجاج، إذ يقول في تحديده: "إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة"[1]، وينطلق الباحث في هذا التحديد من الدلالة المفهومية التي ترسخت في النقد الغربي، ومن ثم فهو يضع الحجاج ترجمة للكلمة الغربية Argumentation، والتي استمدها من نظرية أوزفالدديكرو حول الحجاج في اللغة.

ويبدو الوعي النظري جليا في استعمال الدكتور العزاوي لمصطلح أو مفهوم الحجاج عامة، فهو لا يكتفي بالتحديد المجرد، بل يعمد إلى المقارنة ووضع الحدود ورسم الملامح الدلالية للمفهوم، فالحجاج يقابل مصطلحا منطقيا هو البرهان (الاستدلال المنطقي)

---

(1) أبو بكر العزاوي: «اللغة والحجاج»، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص 21.

Démonstration، فالأول يتصل بالخطاب الطبيعي، ويعتمد على إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها[1]، بينما يرتبط المفهوم الآخر بالاستعمال المنطقي (القياس) الذي تتحكم فيه علاقات حتمية ضرورية. ومن ثم فالحجاج، في هذا السياق، "علاقة دلالية تربط بين الأقوال، بحيث يقوم الاشتغال الحجاجي على تقديم المتكلم لقول معين يعتبر حجة، يستهدف من خلاله حمل المخاطب على القبول بقول آخر، يعد نتيجة سواء كان هذا القول/ النتيجة صريحا أو ضمنيا"[2].

غير أن الانشغال بالجانب المفهومي لا يتضح في هذا التحديد النظري الجزئي بمصطلح (الحجاج)، بل إننا نلمسه بوضوح في الامتداد الدلالي والتشعب المفهومي اللذين يعي الباحث صعوبة وضع تحديد اصطلاحي قوي دون تتبعهما والإمساك أو الإحاطة بهما، وهذا ما نقف عليه في الكتابين المذكورين، فالدكتور أبو بكر العزاوي يعد مصطلح الحجاج نقطة الدائرة المفهومية التي تندرج ضمنها مصطلحات أخرى مثل الحجة، والعلاقة الحجاجية، والوظيفة الحجاجية والسلم الحجاجي والروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية والمبادئ الحجاجية، والاستعارة الحجاجية، والخطاب، والأفعال الكلامية، والدلاليات الحجاجية والمعنى الحجاجي والقوة الحجاجية.

ويظهر دور هذه المصطلحات في أنها تشكل جهازا مفهوميا إجرائيا لا يمكن إغفاله أو الاستغناء عنه في فهم النظرية الحجاجية اللغوية عند الدكتور أبي بكر العزاوي، فهو يؤسس من خلال تحديدها وتعريفها، تصورا منهجيا جديدا في المقاربة النقدية للخطابات الثقافية والتواصلية والإبداعية المختلفة، ونجد هذا الهاجس أكثر في كتابه الأول (اللغة والحجاج) الذي يمكن عده معجما اصطلاحيا تأسيسيا للنظرية الحجاجية، فإلى جانب مصطلح الحجاج نجد فيه تعريفا لمصطلح الحجة بوصفها "عبارة عن عنصر دلالي يقدمه

---

(1) نفسه، ص 21

(2) عبد اللطيف عادل: «بلاغة الإقناع في المناظرة»، منشورات ضفاف، بيروت، مشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى: 1434هـ/ 2013م، ص 98.

المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر"[1]. وتعريفا لمصطلح السلم الحجاجي الذي حدد بأنه "علاقة ترتيبية للحجج"[2]، كما أنه يميز بين الروابط الحجاجية التي تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر)[3]، والعوامل الحجاجية التي تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما[4]، ويعزز هذا التميز بتعريف المبادئ الحجاجية بأنها "قواعد عامة تجعل حجاجا خاصا ما ممكنا"[5]، ويضيف بأنها "مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة"[6].

وإذا كان الباحث قد تبنى التصور الغربي لمفهوم الحجاج بمختلف تجلياته الدلالية والاصطلاحية، فإنه عاد في كتابه (الخطاب والحجاج) إلى التأصيل المعجمي العربي للمصطلح[7]، بل إنه يوسع دائرة البحث الاصطلاحي من خلال تحديده لمصطلح الجدل، وهو "مقابلة الحجة بالحجة"[8]. مما يدل على وعي الباحث بتاريخ المفهوم واستعمالاته المختلفة في الثقافة العربية القديمة، ولما اتضح له عدم وجود فروق كبيرة بين الدلالة الأصلية (العربية) والدلالة الغربية الحديثة، وإن كان المفهوم القديم أكثر انفتاحا وشمولا[9]، التزم التحديد الذي أورده في كتاب (اللغة والحجاج) بوصفه الأساس الدلالي والمنهجي لنظرية الحجاج اللغوي عامة، وبهذا استطاع الباحث أبو بكر العزاوي أن يتجاوز (الفجوة المفهومية) التي توجد عادة بين المصطلحات العربية التراثية والمصطلحات النقدية الغربية، مثلما هو الحال في

(1) اللغة والحجاج، مرجع مذكور، ص 23.

(2) نفسه، ص 26.

(3) نفسه، ص 33.

(4) نفسه، ص 33.

(5) نفسه، ص 37.

(6) نفسه، ص 39.

(7) الدكتور أبو بكر العزاوي: «الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 2010م، ص 9.

(8) نفسه، ص 9.

(9) في الثقافة العربية القديمة نجد مصطلحات عديدة ذات صلة بالحجاج، منها: الجدل والمجادلة وهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين: كتاب «نقد النثر» المنسوب لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/ 1982م، بدون طبعة، ص 117.

مفاهيم المجاز والصورة الشعرية والإيقاع والنص، والخطاب...، وبالتالي يتخذ مفهوم الحجاج في مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي بعدا إنسانيا شاملا، يرتبط بالتواصل والإبداع والثقافة والمعرفة بمختلف تجليات هذه الخطابات وسياقاتها وشروطها، مما مهد له السبيل لتأسيس نظرية حجاجية متماسكة، وقد ساعده في ذلك بعض الوضوح المعنوي الذي يميز الأصل اللغوي للمصطلح، وهو الحج أي القصد[1]، ومنه الحجة، وهي "ما دل على صحة الدعوى"[2].

اللغة والحجاج: مبادئ نظرية

إن الاختيار النظري الذي أرسى عليه الدكتور أبو بكر العزاوي تصوره النقدي للحجاج، يستمد قوته الاقتراحية ومشروعيته المعرفية من اللغة، وخلف هذا الاختيار وعي عميق ورؤية فكرية واضحة، بأهمية الجانب اللغوي في الإنجاز التخاطبي والفعل الإبداعي اللذين يشكل الحجاج مكونا أساسا من مكوناتهما. ولا يخفى على المتأمل وجود تأثر خفي بمفهوم اللغة عند رائد اللسانيات الحديثة فرديناند دي سوسير، وإن كان الأستاذ العزاوي لا يشير تصريحا إلى هذا التأثر، بحكم شيوع فكرة نسق اللغة، وثنائية العلامة اللغوية ورسوخهما في البحث النقدي الحديث إلى درجة أصبحت معها ملكا للجميع.

فالحجاج خاصية لغوية جوهرية، تلازم اللغات الطبيعية جميعها، بما فيها اللغة العربية، إنها موجودة بالقوة في بنية اللغة ونظامها التركيبي والدلالي والتداولي، وموجودة بالفعل في الاستعمال أو الإنجاز العملي/ التواصلي الذي يقوم به المتخاطبون في سياق تداولي معين، وهذا ما نلمسه عند قراءة ما ورد في كتاب (اللغة والحجاج)، إذ يصرح الكاتب بالمنطلق النظري الذي يوجه تصوره النقدي والمنهجي، يقول: "وقد تبنينا نظرية (الحجاج في اللغة) L'argumentation dans la langue التي وضع أسسها اللغوي

---

(1) ابن منظور: «لسان العرب»، دار صادر، بيروت، باب الدال فصل القاف.

(2) علي بن محمد الشريف الجرجاني«معجم التعريفات»، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص 73.

الفرنسي أوزفالدديكرو O. Ducrot إطارا نظريا ومنهجيا لهذا البحث"[1]. وهو بهذا القول يعترف اعترافا مباشرا بالأصل الأول للنظرية الحجاجية التي يعرفها بأنها "نظرية دلالية حديثة يقدم تصورا جديدا للمعنى من حيث طبيعته ومجاله"[2]. غير أن الهاجس النظري الذي يتشبث به الأستاذ أبو بكر العزاوي هو (آليات الحجاج في اللغة الطبيعية)، متخذا اللغة العربية نموذجا للتحليل والاستدلال، مما يعني أنه يعي جيدا عدم اكتمال البناء النظري، وأن ثمة قضايا عديدة تحتاج إلى مزيد من البحث والتوضيح في مبحث الحجاج؛ لأنه مجال ممتد ومتشعب، يشتغل به نقاد وباحثون وعلماء من تخصصات ومشارب معرفية مختلفة، مثل النقد والتأويل والتواصل والفلسفة، وعلم النفس.

وإذا كان "موضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية"[3]، فقد عمل الباحث على وضع المبادئ الضرورية لهذه النظرية مستثمرا في ذلك الجهاز المفهومي الذي حدده في ثنايا كتبه النقدية.

أ- مبدأ الربط الحجاجي:

إن حجاجية اللغة الإنسانية الطبيعية خاصية متعددة المظاهر والأبعاد، إذ يقف عليها الباحث في البنية التركيبية والوظيفة الدلالية والتداولية.

فإذا كانت اللغة بنية منظمة من العناصر والمكونات، فإن وظيفتها الحجاجية تعني "أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع (Les faits) المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"[4] تماسكها يتحقق عبر العلاقات التي تصل بينها، خصوصا أثناء الإنجاز

(1) اللغة والحجاج، مرجع مذكور، ص 7.

(2) نفسه، ص 7.

(3) شكري المبخوت: مقال «نظرية الحجاج في اللغة»، ضمن كتاب «أهم النظريات الحجاجية في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم»، إشراف حمادي صمود، منشورات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس. سلسلة آداب، المجلد 26، ص 352.

(4) الدكتور أبو بكر العزاوي: مقال: «الحجاج والمعنى الحجاجي»، ضمن كتاب: «التحاجج: طبيعته ومجالاته ووظائفه». تنسيق حمو النقاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى: 1427هـ/ 2006م، ص 57.

الكلامي الملموس، حيث يلجأ المتكلم إلى وصل أجزاء كلامه والربط بينها اعتمادا على عناصر لغوية محددة، تضمن اتساقه، وتمنحه قوة حجاجية مؤثرة، خاصة إذا استحضرنا أن الحجاج في حقيقته "علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة"[1].

هذه العناصر الرابطية لا تخص اللغة العربية وحدها، بقدر ما تعد ملازمة للغات الطبيعية المختلفة، وهو أحد المبادئ الأساس الدالة على حجاجية تلك اللغات، نظرا لارتباطها بجانبي الدلالة والتداول، ومن ثم فهي روابط حجاجية تشتغل داخل اللغة قصد كشف أوجه حضور المعنى وخصائصه، وإبراز سياقات التواصل الإنساني والعلاقات التخاطبية المتحققة (الإقناع/ التأثير الاستدلال/ الحجاج)

وقد قدم الدكتور أبو بكر العزاوي تحليلا وصفيا لبعض هذه الروابط في اللغة العربية، مثل بل ولكن وحتى، مركزا على طرق اشتغالها ضمن الاستعمال اللغوي، من حيث الاحتمالات الدلالية الممكنة، والعلاقة بين الحجج والنتائج المترتبة عنها، ولم يتعد الباحث، في هذا الوصف، عن الجهود النحوية والفقهية القديمة، بموازاة تأثره بالجهد النظري والتحليلي لأستاذه أوزفالدديكرو.

وتظهر هذه الثنائية المرجعية التي اعتمد عليها الدكتور أبو بكر العزاوي لوصف للروابط الحجاجية في طبيعة الأمثلة التي حللها، فمنها جمل معيارية مستقاة من المتن اللغوي القديم (آيات قرآنية، أبيات شعرية لأبي نواس وابن الرومي، وأقوال حكمية تراثية/ ابن خلدون، وأمثلة نحوية متداولة/ أكلت السمكة حتى رأسها)، ومنها جمل منقولة/ مترجمة مثل: هذا الشيخ نبذه أصدقاؤه، حتى أولاده، ولكنه يتمتع بمعنويات عالية، وإن لم يصرح الكاتب بذلك.

إن الروابط اللغوية التي وصفها العزاوي (وغيرها) تشترك في وظيفتها الحجاجية الهامة، ولكنها تختلف عن بعضها البعض من حيث شروط اشتغالها الحجاجي ودلالاتها التداولية، وفي هذا الإطار يلجأ الكاتب إلى التحليل المقارن بين تلك الروابط الحجاجية (بل/ لكن-حتى/ بل) مسجلا الفروق الموجودة بينها، وقد اعتمد في هذا التحليل على أمثلة

---

(1) نفسه، ص 360.

لغوية متعددة، ومن ثم يستنتج الباحث أن قوة الرابط الحجاجي مستمدة من موقعه داخل البنية اللغوية، أي من السياق التركيبي، وكذا من الوظيفة التي يسندها إليه المتكلم والمعطيات النصية التي/ التداولية الأخرى التي يستحضرها في خطابه اللغوي.

إن مبدأ الربط اللغوي مكون هام في النظرية الحجاجية، فالحجاج في جوهره ربط بين الحجج والنتائج، أو بين المعاني القريبة الظاهرة وبين المعاني المضمرة والبعيدة والخفية، ولا يتحقق ذلك الربط إلا داخل البنية اللغوية، من خلال مجموعة من الكلمات والصيغ والحروف التي وضعت من قبل مستعملي اللغة ومنحت قوة التأثير والحجاج في سياقها التداولي الخاص.

ولا يقتصر هذا المبدأ على الروابط المذكورة، بل إن الباحث أبا بكر العزاوي يميز بينها وبين مفهومين آخرين هما: العوامل الحجاجية والمبادئ الحجاجية، يقول: "ينبغي أن نميز بين صنفين من المؤشرات والأدوات الحجاجية؛ الروابط الحجاجية (les connecteurs) والعوامل الحجاجية، (les opérateurs)، فـ"الروابط الحجاجية كما ذكرنا سابقا، تربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر (على الأصح)، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة (...) أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما"[1]. وتختلف عنها المبادئ الحجاجية التي تعني مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها"[2]. ويبدو من خلال هذا التميز أن الأستاذ أبا بكر العزاوي اعتمد على معيار الوظيفة الحجاجية، فوظيفة الروابط هي الربط بين الحجج، ووظيفة العوامل هي حصر الإمكانيات الحجاجية، ووظيفة المبادئ هي ضمان سلامة العملية الحجاجية، وهذه المكونات كلها تسهم في بناء الحجاج تركيبيا، من خلال تحقيق الاتساق بين أجزاء الجملة أو النص، ودلاليا من حيث الربط بين المعاني الممكنة والدلالات المحتملة، وتداوليا من خلال

---

(1) اللغة والحجاج، مرجع مذكور، ص 33.

(2) نفسه، ص 39.

تقوية الفعل التواصلي والربط بين عناصر السياق التخاطبي بين المتحاورين، ولا يخفى أن هذه المكونات تلتقي عند ما سماه أبو بكر العزاوي ب (العلاقة الحجاجية)، وهو "فهوم واسع وشامل، بحيث يشمل كل هذه الأنماط وغيرها من العلائق القائمة بين الحجة والنتيجة"[1]. فالعلاقة الحجاجية انطلاقا من التحديد السابق هي الجانب الطابي للحجاج، في مقابل الجانب الإخباري المرجعي، فإذا كان الجانب الثاني يتحقق من خلال المعلومات والأفكار والمعاني التي يقدمها الخطاب (المحتوى الإخباري)، فإن الجانب الحجاجي يتحقق عبر اشتغال الروابط والعوامل الحجاجية التي تحدد القيمة الحجاجية للخطاب وقدرته الإقناعية.

ب- مبدأ القوة الحجاجية:

إن الحجاج عملية وصل بين الحجج قصد تحقيق الإقناع، والإقناع درجات متفاوتة، بتفاوت الحجج المستعملة، "فهناك الحجج القوية والحجج الضعيفة، وهناك الحجج الأكثر قوة والحجج الأكثر ضعفا"[2]. وهذا التفاوت هو إحدى الخصائص المميزة للاستدلال الحجاجي، إذا قورن بالاستدلال المنطقي (البرهان)، وهو أيضا من الأمور المرتبطة بالاستعمال التداولي للغة الطبيعية في سياقاتها التواصلية المختلفة، فـ"للحجج نظام قائم على معيار التفاوت في درجات القوة والضعف، يجعل الفئة الحجاجية منتظمة في السلم الحجاجي"[3]، وأهمية هذه الحجج تكمن في دلالتها على المعنيين الجوهريين لفعل الحجاج، وهما القصد الواعي (الحجة أمر نقصد إليه)، والغلبة (إلزام الغير بالحجة) [4].

وانطلاقا من الاختلاف الموجود بين الحجج (الأقوال اللغوية)، من حيث وظيفتها

---

(1) الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص 22.

(2) اللغة والحجاج، مرجع مذكور، ص 132.

(3) محمد طروس: «النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية»، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص 106.

(4) طه عبد الرحمن: «اللسان والميزان أو التكوثر العقلي»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى: 1998م، ص 137 (بتصرف).

الحجاجية، تحدث الناقد أبو بكر العزاوي في كتابه (اللغة والحجاج) عن مفهوم القوة الحجاجية الذي يشير إلى التأثير المتحقق الذي تمارسه الحجج داخل الخطاب أو الكلام المنجز، وقد ارتأى الباحث التنظير لهذا المفهوم بوصفه مبدأ من مبادئ نظرية الحجاج اللغوي، فنجده يستحضر مصطلحات الحجة والسلم الحجاجي والاستعارة الحجاجية، وهي مصطلحات دالة على طبيعة الاشتغال اللغوي لمبدأ القوة الحجاجية، فالحجة قول دال يعبر عن موقف يؤدي إلى نتيجة محتملة (ظاهرة أو مضمرة)، والسلم الحجاجي نظام عمودي لترتيب الحجج المستعملة تبعا لقدرتها على التأثير والإقناع، فالمتكلم يستعمل مجموعة من الحجج الهادفة للوصول إلى نتيجة معينة، وهي حجج تتفاوت في درجة تأثيرها، وعليه أن يرتبها من الأضعف إلى الضعيف فالقوي فالأقوى تبعا لمجريات التواصل وغاياته وطبيعة المخاطب المراد إقناعه، "وهذا التدرج في الحجج هو ما يكسب الحجاج في اللغات الطبيعية إمكاناته الغنية والواسعة، ويجعله مخالفا للبراهين المنطقية والرياضية"[1].

وفي هذا الإطار يأتي حديث الدكتور أبي بكر العزاوي عن الاستعارة الحجاجية التي يعدها نوعا استعاريا يشتغل اشتغالا حجاجيا، بخلاف (الاستعارة البديعية) التي يقتصر حضورها على الجانب الإمتاعي الجمالي، وبين هذين النوعين فرق كبير في الوظيفة، والقوة التأثيرية، والسياق.

يحاول الناقد من خلال تطرقه لهذه المسألة أن يكشف القيمة الجوهرية والحقيقية للغة الاستعارية، ويتجاوز تلك المقاربة الشكلية الجمالية التي تنوولت بها الاستعارة سابقا، يقول: "الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية (...) ما دمنا بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية"[2]. ومؤدى هذا الكلام أن الاستعارة ليست حلية أو زينة و محسنا بلاغيا زائدا في الكلام، بل هي مكون أساس من مكونات اللغة المستعملة، يلجأ إليها المتكلم إذا دعت الضرورة إلى ذلك، فتمنح الكلام قوة حجاجية أكبر من الكلام المباشر الخالي من الاستعارة، ويقرنها الدكتور العزاوي ببعض الروابط الحجاجية مثل حتى،

---

(1) بلاغة الإقناع في المناظرة»، مرجع مذكور، ص 101.

(2) نفسه، ص 107.

معتمدا في ذلك على آلية السلم الحجاجي المذكورة سابقا، فالقول الاستعاري هو الذي يقع في أعلى مراتب هذا السلم، بحكم كونه أقوى الحجج في الإقناع بالنتيجة المقصودة.

ومن ثم نجد علاقة وثيقة بين الاستعارة ومفهوم القوة الحجاجية، فورود القول الاستعاري في الكلام (أو الخطاب) يمنحه قوة تأثيرية كبيرة، بحيث يمنع أي دليل أو حجة مضادة، تخدم النتيجة المعاكسة، ويقدم العزاوي أمثلة لغوية لتبيان هذه الخاصية الجوهرية للقول الاستعاري إذا قورن بالقول العادي[1].

ولا يغفل الدكتور العزاوي أن الاستعارة تستمد خاصيتها الوظيفية المذكورة من السياق التواصلي الذي تستعمل فيه، أي من مقاصد المتكلمين والعلاقات بينهم، وظروف الخطاب، بخلاف الاستعارة البديعية التي تكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين ومقاصدهم وأهدافهم الحجاجية[2].

ج- مبدأ الإنجاز الحجاجي:

ينطلق الدكتور أبو بكر العزاوي في إقرار هذا المبدأ من التحول الذي شهده الدرس اللغوي الحديث، خصوصا في قضية وظيفة اللغة، فالمناطقة ونقاد التيار اللغوي الوصفي كانوا يسندون إلى اللغة وظيفة إخبارية تتجلى في وصف الواقع ونقل المعلومات الخاصة به، ومن ثم فهم يحتفون بالمعنى وبالقيم الإخبارية والدلالية للكلام، فيميزون بين المعنى الصادق، والمعنى الكاذب الذي يخالف معطيات الواقع.

وفي مقابل هذا التيار ظهر اتجاه آخر يضم بعض اللغويين وفلاسفة اللغة، ينتقد هذا المنحى، ويدعو إلى تجاوزه؛ لأن اللغة لا تقتصر وظيفتها على الوصف والإخبار، بل إن مجموعة من الأقوال المستعملة تؤدي وظائف أخرى مثل إنجاز أفعال أو تقييمها، وهي أقوال لا توصف بأنها صادقة أو كاذبة. ومن رواد هذا الاتجاه اللاوصفي أوستين وسورل، مما مهد السبيل أمام ظهور تصورات جديدة للغة، تركز على الجانب التداولي الإنجازي، وكان من

---

(1) اللغة والحجاج، مرجع مذكور، ص 108-109.

(2) نفسه، ص 111.

نتائجها نظرية الأفعال الكلامية، أو الأقوال الإنجازية؛ فـ"الأقوال التي ننتجها في حياتنا اليومية لها، إذن جانبان: جانب لغوي، وجانب فعلي، إنها أقوال وأفعال، أو هي أقوال يمتزج فيها القول بالفعل"[1]. وتنطلق هذه النظرية من مبدإ عام هو: "بواسطة قول شيء معين أو في حالة قول شيء معين، ننجز فعلا معينا"[2]. وقد تتبع الدكتور أبو بكر العزاوي خصائص الفعل اللغوي، مثلما حددها أوزفالدديكرو، وهي الطابع الإنجازي (تحويل الواقع)، والبعد القانوني (الالتزام بالحقوق والواجبات)، والجانب المؤسسي (المسؤولية)، والخاصية القصدية (الوعي) والارتباط بالسياق، والخضوع للعرف الاجتماعي.

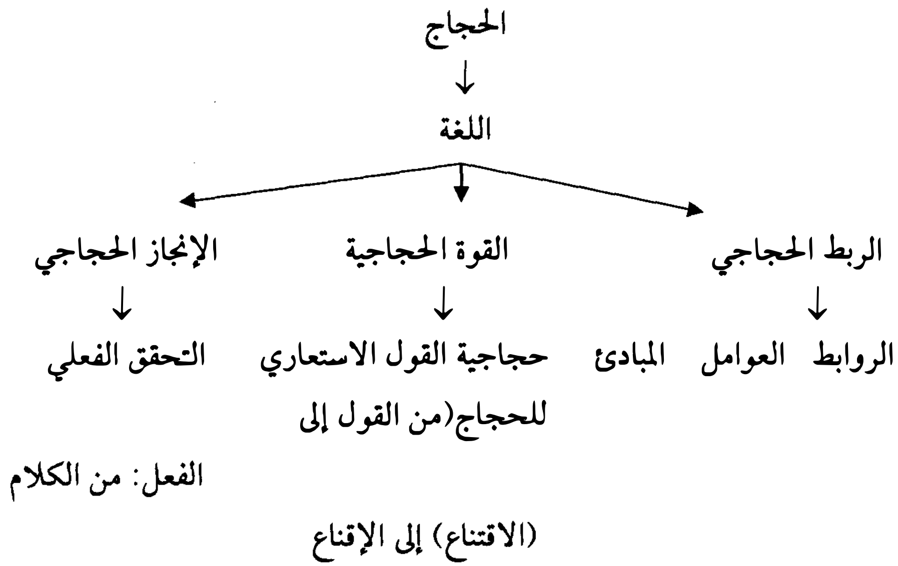
واستثمر الباحث هذه المقاربة التداولية للغة في دراسة الحجاج، إذ حاول أن ينقل مبدأ الإنجاز (الفعل اللغوي) من بعده العام إلى بعد خاص، هو الكلام الحجاجي، ففي هذا السياق التداولي يكون المتكلم بصدد إنجاز أفعال لغوية محددة، فهي يوجه كلامه إلى مخاطب معين يسعى إلى إقناعه، والإقناع يتجلى في تغيير الواقع، أو تبني موقف آخر... وهنا يتحول الحجاج بدوره إلى فعل لغوي أو إنجاز فعلي، وتصبح الحجج أقوالا لغوية تسعى لتحقيق نتيجة معينة (فعل)، ومن ثم تختلف هذه الأقوال في قوتها الإنجازية ووظيفتها الإقناعية.

إن مبدأ الإنجاز الفعلي التداولي هو الذي يمنح الحجاج سلطته التأثيرية في تغيير الواقع وفي الإقناع، ومن ثم فكل ما تتضمنه اللغة من إمكانيات تعبيرية (الروابط والعوامل الحاجية والمبادئ الحجاجية.. الأقوال المجازية والاستعارية...) لا يمكن أن تحقق وظيفتها إلا عبر هذا الإنجاز المرتبط بمقاصد المتكلمين وسيقاق التواصل، وهذا يعني أن اللغة لا تملك سلطتها الحجاجية في ذاتها، بل تستمدها من استعمالاها في سياق تخاطبي معين، أي من الإنجاز اللغوي للمتكلمين أثناء التخاطب، ويمكن إجمال مبتدئ النظرية الحجاجية في مشروع لدكتور أبي بكر العزاوي في الخطاطة التالية:

---

(1) نفسه، ص 119.

(2) Harvard universitypress , 1955 , p 12. «How to do thingswithwords: the William James lecture», delevredat



حجاجية الخطاب

بعد أن وضع الأستاذ أبو بكر العزاوي المبادئ النظرية للحجاج اللغوي، وقدم تصورا نقديا للمفاهيم والعمليات المشكلة لهذا البناء النظري، سعى في كتابه (الخطاب والحجاج) إلى التجريب المنهجي المحايث للتحليل الحجاجي، وتنزيل الآليات المنهجية للنظرية الحجاجية تنزيلا فعليا عمليا، منتقلا من المستوى العام/ المجرد (مستوى اللغة)، بوصفها أداة تواصل ومعرفة وإبداع وثقافة، إلى المستوى الخاص/ الملموس، مستوى الخطاب أو الإنجاز التداولي، وقد حاول أن تنسجم اختياراته الخطابية مع منطلقاته النظرية التي يؤكد فيها أن الحجاج خاصية للغة الطبيعية، ونجده في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص، نجده في الخطبة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية واللافتة الإشهارية والخطاب السياسي ومرافعة المحامي والرواية والمسرحية الأدبية والمناظرات ومناقشة الأطروحات الجامعية والكتابات العلمية وغيرها"[1].

هذا الوعي المنهجي هو الذي وجه التحليل النقدي/ اللغوي المنجز من قبل أبي بكر

(1) الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص 11.

العزاوي لبعض أنواع الخطاب التواصلي الحجاجي، إذ لم يقتصر على نمط خطابي واحد، بل إنه اختار نموذجا للخطاب القرآني (سورة الأعلى)، ونموذجا للخطاب الشعري (قصيدة العلة لأحمد مطر) ونموذجا للخطاب المثلي (أمثال عامية مغربية)، ونموذجا للخطاب الأيقوني (إشهار السجائر وغيرها...)، وبحكم ما يميز هذه الخطابات من خصائص وما تخضع له من شروط، فإن تطبيق التحليل الحجاجي عليها يقتضي تتبع الظواهر اللغوية والتعبيرية التي تحضر فيها، في مستوياتها الصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية، بحيث إن الناقد ركز علة طبيعة العلاقات الحجاجية والمنطقية التي تربط بين هذه الظواهر.

وإذا كانت الخطابات التواصلية تختلف في طبيعتها الحجاجية وفي وظائفها وقدراتها وآلياتها التأثيرية، فإن ثمة عناصر مشتركة بين هذه الخطابات، يمكن أن تعد المداخل المؤدية إلى تحليلها تحليلا حجاجيا، ومن هذه العناصر ما يلي:

أ- الغاية الحجاجية للخطاب:

ذلك أن الخطابات لا تنطوي على بعد حجاجي إلا إذا كان المرسل يروم تحقيق غاية أو قصد معين، سواء اكان ضمنيا أم مصرحا به، يقتع به المخاطبين الفعليين أو المحتملين، فيتوسل بمجموعة من المنطلقات الحجاجية أو الأقوال والحجج التي تؤدي إلى نتيجة معينة، وهذا ما وقف عليه الدكتور أبو بكر العزاوي في تحليله لسورة الأعلى فالنتيجة مصرح بها، وهي التسبيح بحمد الله الأعلى، وبعدها تتابع الحجج للإقناع(الخلق)، وتتخذ العلاقة بين النتيجة والحجج صيغا مختلفة، تبعا للروابط الحجاجية المستعملة. وفي الخطاب الشعري (قصيدة العلة) لا يصرح الشاعر/ المرسل بالنتيجة، ولكنها مضمرة، "قد تكون من نمط (يجب نبذ الظلم ومحاربة الاستبداد) أو (ينبغي توجيه العون إلى المظلومين والمستضعفين من بني البشر)..."[1]. وفي الخطاب المثلي تختلف العلاقة الحجاجية بين المكونات النصية(الأقوال أو والحجج والنتائج) والشيء ذاته بالنسبة للخطاب الإشهاري، حيث يتأرجح الحجاج بين التصريح وبالنتيجة أو إضمارها.

إن القصد الحجاجي هو المحرك الأول للخطاب، وبه يتم تحديد المسار الذي سيتخذه

---

(1) الخطاب والحجاج، مرجع مذكور، ص 59.

الحجاج وطبيعة الأقوال أو الحجج الـني يـستعملها المـتكلم والعلاقـات بينهـا، والاختيـارات اللغوية والفنية والأسلوبية اليت يـحتعين بها.

ب- الآليات الحجاجية:

حاول الدكتور أبو بكر العزاوي أن يضع الآليـات الحجاجيـة الـتي حـددها في كتابـه السابق (اللغة والحجاج) موضع تطبيق منهجي، ولهـذا انتقـى مـن مجـال التواصـل الإنـساني نماذج خطابية محددة، واضعا نصب عينيـه أهميـة التجريـب النقـدي بوصـفه خطـوة أولى قـد تكشف عن الكفاءة المنهجية للتحليـل الحجاجي، وتبرز نقائصه وثغراته المحتملة.

إن طبيعة الخطابات التي طبق عليها الأستاذ أبـو بكـر العـزاوي هـذا التحليـل تلائـم الوعي النقدي الذي يوجهه، فهي خطابات متنوعة في شكلها وخصائـصها الفنيـة والتعبيريـة، ولكنها جميعا قصيرة الحجم، مكثفة الموضوع، غنية بالمظاهر الحجاجية الدالة، ولهذا نجده يتتبـع أنماط العلاقـات الحجاجيـة في تلـك الخطابـات، والخطـاب عنـده هـو "متواليـة مـن الأقـوال والجمل، أو بتعبير حجاجي، مجموعة من الحجج والنتائج التي تقـوم بينهـا أنمـاط مختلفـة مـن العلائق"[1]. وهو بهذا التعريف يصل بين الخطـاب والحجـاج وصـلا قويـا يـذكرنا بالتحديـد الذي قدمه طه عبد الرحمن للحجاج، فهو يعده "كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامـه دعـوى مخصوصة يحق لـه الاعـتراض عليهـا"[2]. فالخطـاب يـستمد قيمتـه الجوهريـة التواصـلية مـن حجاجيته، والحجـاج يـستمد قوتـه التأثيريـة مـن الـسياق الخطـابي الـذي أنـتج فيـه. وهـذه العلاقات قد تكون أحادية ذات وجهة حجاجية واحدة، مثلما هـو الحـال في سـورة الأعلـى؛ لأن الحجج المذكورة فيها تخدم نتيجة واحدة، وقـد تكـون علاقـات تعارضـية، عنـدما يكـون الخطاب متضمنا نتيجتين متضادين، مثلما هو الحال في الخطاب الإشهاري.

تتبع الكاتب الروابط الحجاجية التي ورد ذكرها في سياق الخطابـات الـسابقة، وهـي الروابط ذاتها التي درسها في المستوى اللغـوي ضـمن كتابـه (اللغـة والحجـاج)، بـل في قولـه

---

(1) نفسه، ص 18.

(2) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع مذكور، ص 226.

تعالى: (بل تؤثرون الحياة الدنيا)، بوصفه دالا على حجة مضادة للحجج الأولى، ويؤكد الكاتب أهمية هذا الرابط الذي يعد محور العلاقة الحجاجية في السورة القرآنية؛ لأنه نقطة تقاطع نتيجتين مختلفتين: التسبيح بحمد الله (نتيجة ظاهرة/ مصرح بها)، والإعراض عنه (نتيجة مضمرة)، ومن ثم فقوة الحجة الواردة بعد الرابط الحجيج (بل) تسير في اتجاه تأكيد النتيجة المضادة، وهي أن انشغال الإنسان بالدنيا وإيثاره لها يلهيه عن ذكر الله وعبادته.

وفي النص الشعري (العلة) وقف الكاتب عند الرابط الحجاجي (لكن) الذي تكرر في القصيدة، مبرزا الوظيفة التداولية والحجاجية التي يؤديها، بحيث يحقق الانسجام بين لأجزاء النص وهنا يلتقي الرابطان (لكن) و(بل) في كونهما يعززان القوة الحجاجية للقول الوارد بعدهما، وهذا ما يجعل النتيجة المقصودة، هي معاناة الشاعر من القمع والقهر وفقدان الحرية، فهو يخاف من الرقيب (رؤية وسماعا وحركة)، وهو لهذا لا يستطيع أن يتنفس تنفسا طبيعيا، أو أن يعبر عن شكواه الذاتية، أو يرفع رأسه، فكأنه ممنوع من كل حركة، مسلوب الإرادة في كل فعل يرغب فيه أو يهم بالقيام به.

وإذا كانت الروابط الحجاجية المذكورة لا ترد في الأمثال التي درسها الكاتب، ولا في الخطابات الإشهارية التي حللها، فإن ذلك لا يعني غياب العلاقات الحجاجية، بقدر ما هي موجودة، بصيغ ووسائل أخرى (لغوية وغير لغوية) تنسجم وطبيعة تلك الخطابات، ففي الأمثال تؤدي المبادئ الحجاجية دورا كبيرا؛ لأنها تلائم البعد الشمولي للأمثال بوصفها حقائق عامة ومعاني كلية وقيما إنسانية، وفي الخطاب الإشهاري (إشهار السجائر الأمريكية/ إشهار حليب الأطفال) تحضر العلاقات الحجاجية الشرطية والسببية حضورا لافتا، لتحقيق النتيجة المقصودة، وهي إغراء المستهلك بالمنتج.

وإلى جانب الروابط والمبادئ الحجاجية، تحضر في الخطابات المذكورة، وخاصة في الشعر، إذ وقف الدكتور أبو بكر العزاوي على الصيغ الفنية واللغوية ذات الوظيفة الحجاجية، ومنها الاستعارة، منطلقا في ذلك مما ذكره في الكتاب الأول حول القوة التأثيرية الإقناعية للقول الاستعاري، مقارنة بالأقوال العادية، وخاصة حين تكون متصلة بمقصد الشاعر/ المتكلم، مثلما هو الحال في قصيدة العلة، حيث تسهم الأقوال الاستعارية العديدة في

تأكيد النتيجة (لمعاناة من القهر والظلم والقمع)، فتكون الاستعارة بذلك جزءا بانيا للحجاج وداخلا في العلاقات الحجاجية التي يتضمنها الهيكل الفني للقصيدة.

ثم نجد الحوار الصريح الذي يحضر في القصيدة عبر مؤشرات لغوية دالة (فعل القول)، ولهذا الحوار وظيفة حجاجية، بحكم خضوعه سياق تواصلي معين، يبدو فيه الشاعر/ الإنسان بين سلطتين اثنتين؛ سلطة الطبيب وسلطة الرقيب، ومن ثم ينم كلامه عن أزمة نفسية وقلق فكري وحيرة ذاتية بين الاستجابة لأوامر الطبيب، وبالتالي الحصول على العلاج المطلوب، وبين الخوف من مطاردة الرقيب (القتل)، بين الرغبة في الحرية والعدالة والاستسلام للظلم والقهر، وهذا الحوار يبدو أنه ثلاثي الأطراف، بؤرته الشاعر الذي يتلقى أوامر متناقضة؛ خذ نفسا# لا تتنفس، عبر عن شكواك #لا تشتك، ارفع رأسك # طأطئ رأسك، فما يقوله الطبيب من كلام متلفظ به (صريح) ينقضه ويحُول دون تحققه كلام مفترض (مضمر) من قبل الرقيب، والشاعر يغلب خوفه على رغبته وخشيته على حرصه، فيلتزم بالكلام المفترض ويترك الكلام الصريح، وهذا يعني أن ما قام به يخدم النتيجة المضمرة (الخوف من القتل يدفع الإنسان إلى الاستسلام ولزوم الصمت)، وقد تعزز هذا الحوار بتوظيف الأفعال اللغوية مثل الأمر: خذ نفسا، والاستفهام: مم تشتكي، والتمني: أود أن أرفع رأسي عاليا، وهي أفعال تندرج ضمن الاختيارات الحجاجية للشاعر؛ لأنها تكشف العلاقة الحجاجية بين الحجج المستعملة والنتيجة الضمنية، وهي الخوف من القمع والقهر.

وفي النص المثلي تحضر آليات حجاجية أخرى مثل أدوات الشرط (إلى واللي في الدارجة المغربية)، وأدوت الاستنتاج والتمثيل القياسي (بحال)، وهي آليات تنسجم مع طبيعة الأمثال التي تعد حججا جاهزة وقوية، وتشتغل داخل خطابات أخرى (حوارات يومية، نصوص شعرية، حكايات...)، وتحضر أيضا بوصفها مبادئ حجاجية تضمن الربط بين الحجج والنتائج.

وينفرد الخطاب الإشهاري بحضور آليات لغوية وبصرية/ أيقونية (الصورة)، بحيث تقدم الصورة الإشهارية مجموعة من القيم والدلالات والإيحاءات التي تضمن لها وظيفته الحجاجية، فتُقَدَّم بوصفها حجة ظاهرة ومقنعة لصالح نتيجة مضمرة هي اقتناء المنتج.

ج- البنية الحجاجية في الخطاب:

إن القصد الذي يرمي المرسل أو منشئ الخطاب إلى تحقيقه، والوظيفة الحجاجية التي يروم بلوغها، والآليات الحجاجية التي يوظفها في ذلك، لا تجد قيمتها ومشروعية وجودها إلا ضمن البنية الخطابية العامة، وهي بنية دالة وموجهة لخدمة الحجاج في الخطاب.

وإذا كان أرسطو قد وضع الأسس المنهجية الأولى لبنية الخطاب عامة، بمكوناتها المعروفة (اللوغوس/ اللغة، والإيتوس/ المرسل أو المتكلم والباتوس/ المرسل إليه)، فإن حجاجية هذه البنية تجد قوتها في الطريقة التي تقدم بها أو تشتغل بها داخل الخطاب.

وانطلاقا من النماذج الخطابية التي حللها الدكتور أبو بكر العزاوي، نجد أن ثمة بنية محددة هي التي تشكل جوهر الخطاب، وتظهر هذه البنية بأشكال مختلفة، أو في مستويات متعددة؛ منها المستوى الأفقي بين الحجج والنتائج، والمستوى العمودي بين الأقوال/ الحجج المختلفة، وقد يبدأ الخطاب بالنتيجة المصرح بها، وينتهي بالحجج، مثلما هو الحال في سورة الأعلى؛ النتيجة: سبح اسم ربك الأعلى، والحجج: (خلق فسوى، قدر فهدى، أخرج المرعى) وقد تكون بنية مزدوجة/ عمودية، سطحها مجموعة من الحجج، وعمقها نتيجة مضمرة، مثلما هو الحال في الخطاب الإشهاري: (الحجة: سجائر خفيفة رفيعة فاخرة بالفلتر اللؤلؤي، والنتيجة مضمرة: اشتر هذا النوع من السجائر...)، والنص الشعري (قصيدة العلة)؛ الحجج: أردت أن أجيب/ خفضتها، ولذت بالنحيب..، والنتيجة مضمرة: الخوف من القهر والظلم والقمع.

هذا التعدد يرتبط باختيار المرسل ومقصده من الخطاب، وطبيعته وسياقه التواصلي، فالتصريح بالنتيجة أو إضمارها، وكثرة الحجج أو قلتها، وتقديم النتيجة على الحجج أو العكس، كلها أمور تتدخل فيها عناصر الحجاج، من قبيل درجة ذكاء المخاطب/ المرسل إليه، وقدرته على الفهم، وكذا مستوى إنكاره للقضية، ففي سورة الأعلى يتم التصريح بالنتيجة المقصودة (سبح اسمك ربك الأعلى) تنبيها للمخاطب على أهميتها وضرورة الالتزام والاقتناع بها، ثم يتبعها بالحجج الدالة على ذلك، غير أن الخطاب، يستحضر الحجة النقيض (إيثار الحياة الدنيا)، وهي حجة تضمر نتيجة مضادة (عدم التسبيح بحمد الله)، مما يدل على

أن المخاطب المقصود شديد العناد، تظهر الحجج ناصعة أمامه على ضرورة الشكر، ولكنه يأبى إلا أن يختار الكفر (التشبث بالدنيا) والإنكار.

خاتمة:

إن مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي يستمد طموحه المعرفي، ومشروعيته النقدية، من طابع التجريب الذي يكتسيه، إذ سعى الباحث إلى تنزيل المعطيات النظرية، والآليات المنهجية عبر التحليل الحجاجي للخطابات المختلفة، مركزا على تتبع الإمكانيات الجديدة التي تضيفها المقاربة الحجاجية إلى المقاربات النقدية والمناهج التحليلية السابقة، ومن ثم الوقوف على الكفاءة المنهجية لهذا التحليل.

فكتابا (اللغة والحجاج) و(الخطاب والحجاج) لبنتان هامتان في صرح نظرية الحجاج اللغوي، لا يمكن للباحث في هذا المجال أن يغفل دورهما وتأثيرهما، نظرا لما قدمه فيهما الدكتور أبو بكر العزاوي من أسس معرفية، وقضايا نقدية، وتصورات منهجية، تبدأ من اللغة، نظريا، وتمتد إلى الخطاب تطبيقيا.

وإذا كان الحكم على هذا المشروع النقدي لا يزال مبكرا، فإن ما يمكن قوله هو أننا أمام فتح جديد في الدرس النقدي الذي ينفتح على المقاربات اللغوية، منذ ظهور النظرية البنيوية، فالحجاج مدخل أساس يمنح الناقد إمكانيات تحليلية، تتجاوز ما كان متاحا في المناهج السابقة، ويسمح له بالنفاذ إلى أعماق الخطاب التواصلي أو الثقافي والإبداعي؛ إنه المكون الذي يتداخل فيه اللغوي والفكري والنفسي، ويقترن فيه القصد بالأداة، والرغبة بالإنجاز، والقول بالفعل، وهذه الشمولية هي التي تضع المقاربة الحجاجية في طليعة النظريات ذات المنحى التداولي في تحليل الخطاب، ولا يزال المجال مفتوحا لتراكم التجارب النقدية الحجاجية، بحكم تعدد الخطابات واختلاف سياقاتها التواصلية، وبحكم حضور الحجاج في معظم مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية والإبداعية الحديثة.

المصادر والمراجع:

- أبو بكر العزاوي: "الخطاب والحجاج"، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 2010م.
- "اللغة والحجاج"، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م.
- طه عبد الرحمن: "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، الطبعة الأولى: 1998م.
- عبد اللطيف عادل:"بلاغة الإقناع في المناظرة"، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، مشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى: 1434ه/ 2013 م.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني: "معجم التعريفات"، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- قدامة بن جعفر: "نقد النثر" المنسوب دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/ 1982م،بدونطبعة.
- محمد طروس: "النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية"، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- ابن منظور: "لسان العرب"، دار صادر، بيروت.
- J. Austin: "Haw to do thingswithwords: the William James lecture", delevredat Harvard universitypress, 1955
- الدكتور أبو بكر العزاوي: مقال: "الحجاج والمعنى الحجاجي"، ضمن كتاب: "التحاجج: طبيعته ومجالاته ووظائفه"، تنسيق حمو النقاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعةالأولى: 1427هـ/ 2006م.
- شكري المبخوت: مقال "نظرية الحجاج في اللغة"، ضمن كتاب "أهمال نظريات الحجاجية في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم"، إشراف حمادي صمود، منشورات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، سلسلة آداب، المجلد 26.

الحجاج: من اللغة إلى الخطاب قراءة في أعمال أبو بكر العزاوي(*)

ذ. فضيل ناصري(❖)

مقدمة

نعتزم في هذه المداخلة قراءة أعمال الباحث أبو بكر العزاوي التي تتخذ موضوعة الحجاج همها الرئيس في أفق أن تشكل مشروعا متكاملا واضح المعالم.

ولأجل ذلك انتهجنا خطة جعلنا بمقتضاها ورقتنا هذه مدخلا مهدنا فيه نظريا للموضوع، أردفناه بمطالب ثلاثة:

- اعتمدنا في أولها الحوار الذي أجرته مجلة فكر ونقد المغربية مع أبي بكر العزاوي، والمنبوز: من المنطق إلى الحجاج، وحاولنا ما وسعتنا المحاولة أن نبين العلاقة بين المنطق واللغة الطبيعية.

- وقرأنا في المطلب الثاني كتاب اللغة والحجاج مناقشين ما يطرحه من قضايا متصلة بالحجاج داخل البنى الصغرى للغة كالجمل والعبارات والتراكيب القصيرة.

- وفي المطلب الأخير تناولنا كتاب الخطاب والحجاج الذي يعد بنظرنا تطبيقات موفقة لنظرية الحجاج في اللغة على خطابات تنوعت بين القرآن والشعر والمثل والخطاب الإشهاري البصري، وانتهينا في الأخير إلى خاتمة سجلنا فيها أهم النتائج والخلاصات التي قادتنا إليها التحليل.

(*) ورقة ألقيت في الندوة الوطنية: الحجاج من اللغة إلى الخطاب: قراءة في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي التي نظمتها الجمعية المغربية لتكامل العلوم / البيضاء بشراكة مع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية و العلوم الإنسانية البيضاء، مارس 2010.

(❖) باحث في الأديان وفي الحجاج في اللغة والخطاب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.

مدخل

بداية وقبل أن نقارب موضوعة الحجاج في أعمال العزاوي يحسن بنا أن نعرج على ماهيته لدى اللغويين القدامى، لأجل أن نستبين جملة الفروقات والعلاقات أو الوشائج المنعقدة بين معانيه اللغوية وبين المعنى الذي يقترحه الباحث في أعماله.

يذهب صاحب اللسان إلى أن لّج فحجَّ معناه لجَّ فغلب من لاجه بحججه، [و] يقال حاججته أحاجُّه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها (...) والحجة: البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، و(...) رجل محجاج أي جَدِلٌ والتحاج التخاصم (...) قال الأزهري إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد[1].

يظهر من التحديد اللغوي أعلاه أن الحجاج يدور في فلك الغلبة أو المغالبة على الأصح، التي تنطلق من اللغة وتتغيا حصول التأثير والإقناع، ويحاقل من حيث اللغة كما من حيث الاصطلاح، مع بعض الفرق الذي يبدو أحيانا ويلطف أخرى، مفردات أخرى من قبيل؛ البرهان، والجدل والاستدلال[2]، والتواصل والحوار.

وهذه هي المعاني نفسها التي وردت لدى صاحب التاج[3]، ولدى الراغب الأصفهاني[4]. وبالرغم من أن مفهوم الحجاج المنبثق عن اللسانيات الحديثة عصي ومتأب

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مج.2، دار صادر، بيروت، [ط.1]، 1997، ص.27

(2) للمزيد من التفصيل في مسألة محاقلة الحجاج لهذه المفردات عد إلى: طه، عبد الرحمان، الإضمار في الدليل، مجلة المناظرة. [ع.3]، ص.91، 105، ولمعرفة حدود: الاستدلال ينظر: كروم، أحمد، الاستدلال في معاني الحروف: دراسة في اللغة والأصول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، [ط.1]، دجنبر 1421هـ-2000م، ص.49، وبشأن الجدل ينظر: كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل و المناظرة، الصاحب محيي الدين يوسف بن عبد الرحمان بن الجوزي، تحقيق محمود بن محمد السيد الدغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، [ط.1]، 1415هـ-1995م، الصفحات، 66، 67، 100. وينظر أيضا: طه ن عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، البيضاء، [ط.2]، 2005م. ص.185، و: العزاوي أبو بكر، الحوار، الحجاج، تدبير الاختلاف و التربية على حقوق الإنسان، حوار أجراه معه بوشعيب الزين، عالم التربية، [ع.15]، الجديدة ص.180.

(3) الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، فصل الحاء المهملة مع الجيم.

(4) الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، ضبطه و راجعه محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، [ط.1]. 1418هـ-1998م، ص.115.

عن الضبط بالنظر إلى تعدد مظاهره واستعمالاته ومرجعياته النظرية، وخضوعه في دلالته لما يميز ألفاظ اللغة الطبيعية من رخاوة وليونة تداولية وتأويلات متجددة[1]، فإننا نومئ في هذا المقام إلى أن النشاط الحجاجي ليس وضعا نزاعيا[2] دائما وبالضرورة ومتصلا بالمرافعات القانونية وما شابهها وانسلك في سلكها، مثلما قر في أذهان الكثيرين، وخاصية ملازمة وثاوية في جميع التواصلات Conventionnelle وإنما هو نشاط وضعي وبخاصة اللغوية منها، مثلما سنرى في المطلب الأول من هذا البحث.

ويذهب طه عبد الرحمن إلى أن الحجاج لا يدور على الألسن بالدرجة نفسها التي يدور بها عليها لفظ التواصل[3]، ويحده بقوله: "إنه فعالية تداولية جدلية ؛ فهو تداولي لان طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"[4].

ويجمل بنا قبل أن ننتهي فيما يستقبل من المطالب إلى التحديد الذي يقترحه الباحث أبو بكر العزاوي أن نشير إلى انه يشتغل على الحجاج الطبيعي، أما عبد الرحمن طه فيشتغل ويهتم بالحجاج المنطقي المصورن.

وبعد فان العديد من الدارسين يتفقون أن الإرهاصات الأولى للحجاجيات كانت من توقيع بيرلمان، وأولبريخت تيتيكا من خلال كتابهما الوافي: في الحجاج الذي صدر سنة 1958م، ثم بعده وفي السنة نفسها كتاب استعمالات الحجة لـ ستيفان تولمين.

ولما كان الجدل والحجاج صفة جبلية في الإنسان مثلما ينزع إلى ذلك صاحب

---

(1) أعراب، حبيب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي: "عناصر استقصاء نظري"، عالم الفكر، [ع.1]، المجلد 30، يوليوز سبتمبر 2001م، ص.97، 98.

(2) Van Emeren, R.Grooten dorst and T. Krninger: The study of argumentation
نقلا عن: حمو، النقاري، في فلسفة المنطق؛ من منطق "القضية" إلى منطق "القول"، مجلة المناهل، منشورات وزارة الثقافة المغربية، السنة 30، [ع.84]، فبراير 2008م، ص.233.

(3) طه عبد الرحمان، التواصل والحجاج، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس العاشر 1993م/ 1994م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، [د.ط]، ص.5.

(4) طه، عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، [ط.3]، 2007م، ص.65.

الايصاح[1]، فينقض مقولة "الجدل بدأ يونانيا" المتحيزة والمتهافتة، فان مسألة تداخل علم أصول الفقه[2] وعلم البلاغة[3] اللذين يضطلع بهما ويمارسهما الإنسان مع الحجاج وتغدو أمرا طبيعيا من هذا المنظور. حتى إن الفيلسوف الراحل محمد عزيز الحبابي لم يتنكب عن الصواب حين قال قولته الشهيرة: "ويسألونك باللسان عن الإنسان، قل الإنسان لسان".

ثم إننا لا نغلو في كلامنا غير الحق إذا شاطرنا أحدهم الرأي وقلنا أن عالمنا اليوم سوق كبيرة بضاعتها الدعاوى والحجج بشتى ألوانها وأصنافها[4].

ولأجل أن الحجاج يحوز هذا الوضع الاعتباري لدى القدامى والمحدثين نعتزم قراءة أعمال الباحث بما هي [أي القراءة] فن كسر الحوجز التي تفصل بيننا وبينها ما وسعتنا القراءة.

المطلب الأول: من المنطق إلى الحجاج

يؤكد أستاذنا أن العلاقة بين اللغة والمنطق شائكة ومعقدة، وقد تنازعتها بالدرس والتحليل مباحث معرفية تنهض على أطر نظرية مختلفة ومتنوعة؛ كالنحو، والرياضيات، والفلسفة... الخ[5]، وهناك مقاربات ثلاث ممكنة لدراسة هذه العلاقة هي كالتلي:

1- مقاربة تروم وتتغيا إعادة تركيب و تكوين الوقائع اللغوية انطلاقا من نسق منطقي محدد بما يؤدي في المحصلة الأخيرة إلى اختزال اللغة الطبيعية إلى نموذج منطقي متصور ومبني سلفا. وهي مقاربة عارضها كل من أزوالد ديكرو وجان بليز غريز إذ تمثل

(1) الإيضاح، مذكور، ص.59.

(2) نفسه، ص.101، انظر أيضا: تجديد المنهج في تقويم التراث، ص.93، والاستدلال في معاني الحروف، ص.184.

(3) هنريش، بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم، وتعليق الدكتور محمد العمري. منشورات سال، البيضاء، [ط.1]، 1989م، ص.17.

(4) الراضي، رشيد، السفسطات في المنطقيات المعاصرة: التوجه التداولي الجدلي نموذجا، عالم الفكر، [ع.4]، المجلد 36. أبريل / يونيو 2008م، ص.127.

(5) من المنطق إلى الحجاج، حوار أجراه مع د.أبو بكر العزاوي حافيظ اسماعيلي علوي، فكر ونقد، [ع.61]، السنة السابعة، شتنبر 2004م، ص.33.

بنظرهما الخطر الرئيس من التقريب بين اللسانيات والمنطق، فضلا عن أنها نزعة تنهض على فوبيا المنطق أي "إن كل شيء له تنظيم منطقي".

أما الباحث أبو بكر العزاوي، فيذهب إلى أن ما يثلب هذا الموقف/ النزعة هو أنها تقوم على تمييز مجحف بين صنفين من أقوال وظواهر اللغات الطبيعية:

أ- أقوال مركزية تستجيب لمقتضيات المنطق.

ب- أقوال هامشية لا منطقية[1].

2- مقاربة تتعارض مع سابقتها وتصدر عن تصور يقوم على ملاحظة الظواهر اللغوية ثم البحث عن وصف رياضي منطقي يكون أكثر كفاية وملائمة. ويرى أستاذنا أنها مشروع واعد ومهم، إلا أن المحذور فيه هو أنه لا يتأسس على أي نموذج منطقي موضوع سلفا[2].

3- ومقاربة ثالثة تندغم فيها المقاربتان الأوليان، أي أنها تنطلق من نسق منطق ما، و بدل أن تختزل اللغة إلى هذه النظرية أو تلك تتوسل عدة منهجية قوامها المقارنة والمقابلة بين الأنساق الرياضية المنطقية والوقائع اللغوية كيما تكتشف منطق اللغة الخاص[3]، وهي بنظر العزاوي اجتهاد أصيل في عمل اللغوي ديكرو الموسوم ب la preuve.: et le dire الدليل والمقول Logique naturelleويتواشج مصطلح منطق اللغة، ويتعالق مع ما يدعى بالمنطق الطبيعي الذي ليس سوى "نسق من العمليات الذهنية التي تمكن فاعلا / متكلما في سياق ما من اقتراح تمثيلاته على متكلمٍ له بواسطة الخطاب" مثلما يقرر ذلك جان بليز غريز[4].

ويقودنا هذا النقاش حتما وثانية إلى العلاقة بين اللغات الطبيعية، واللغات

---

(1) نفسه، ص.34.

(2) نفسه، ص.34.

(3) منطق اللغة هو مصطلح اقترحه أوزوالد ديكرو في سياق رده العاصف على الباحثين الذين كانوا يحثون عن المنطق المجرد في اللغة.

(4) من المنطق إلى الحجاج، مذكور، ص.37.

الاصطناعية و يلخصها موقفان اثنان هما:

1- الموقف الأول يمثله غريز وديكرو والعزاوي وينهض على أن اللغـات الطبيعيـة مباينـة ومفارقة مخالفة للغات الاصطناعية؛ إذ الأولى ملتبسة يكتنفها المجاز والاستعارة وتتسم بالتعارض والتناقض والإضمار والتعدد الدلالي... كما أنها تقوم على مسلمة الحوار والمركب الثقافي القبلي.

ورغم هذا لا يرى أستاذنا ضيرا في استعمال عبارة "اللغـات أنـساق منطقيـة" إذ هـي كذلك بمعنـى مـن المعـاني وبـضرب مـن التـأول، وإذا لم يكـن المـراد بهـا أن اللغـات الطبيعية مضارعة لأنساق المنطق الرياضي الحديث، فالبون بين الاثـنين كـبير وشاسـع بالنظر إلى طبيعة ووظيفة ومجال وآليات اشتغال كل منهما[1]. وبعد فالخطاب الطبيعـي ليس خطابا برهانيا، إذ لايحـترم مبـادئ الاسـتنتاج المنطقـي أو البرهنـة الرياضـية الـتي تتأسس على مقدمات توصل إلى نتائج حتمية وضرورية[2].

2- الموقف الثاني: ويمثله ريشار مونتغيو، وبخاصة في كتابه الفلسفة الـصورية، ومفـاده أنـه ليس ثمة فرق أو اختلاف نظري معتبر بين هذين النمطين من اللغات.

أما مصطلح منطق اللغة الذي هو نفسه الحجاج في اللغـة، فـيقترح العـزاوي تعريفـه بقوله "إن منطق اللغة هو القواعد الداخلية للخطاب التي تحكم تسلسله وتناميه وتحكـم تـوالي الأقوال وتتاليها"[3].

وهو التعريف نفسه الذي أقترح لمصطلح التداولية المدمجة[4]، وهو بعـد تعريـف غـير بعيد عن حد الخطابة لدى أرسطو[5].

---

(1) نفسه ص.35، 36.

(2) نفسه، ص.39، فمجال الخطاب الطبيعي هو المحتمل المتوقع وغير المؤكد، أما مجـال اللغـات الاصـطناعية فهـو البرهنـة القائمة على قواعد الاستلزام والقياس المنطقيين الدقيقين. وللمزيد من التفصيل أنظر للمؤلف نفسه: اللغـة والحجـاج. ص.15 وأنظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، هـشام الريفـي، عبـد الله صولة...و[آخرون]، إشراف حمادي صمود، منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، 1997م، ص.300.

(3) من المنطق إلى الحجاج، مذكور، ص.34، واللغة والحجاج، ص.138.

(4) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن: أهم نظريات الحجاج، مذكور، ص.352.

(5) الراضي، رشيد، مذكور، ص.129.

وعموما فنظرية الحجاج في اللغة لتي ينطلق منها الباحث في أعماله وتطبيقاته تتجاوز، وتقفز على الوظائف التي اقترحها جاكوبسون واللسانيون للغات الطبيعية، وتقرر وظيفة أخرى جديدة قديمة قدم اللغة، فهي لصيقة بها وتحملها بصفة ذاتية وجوهرية ألا وهي الوظيفة الحجاجية التي تهيمن على ما عداها وتشكل عنصرا بؤريا ضمن وظائف اللغة.

ويصف العزاوي الحجاج بصفات تجعله مفارقا لانساق المنطق هي أنه: نسبي، ومرن، وتدرجي، وذو طبيعة سياقية[1]. ويتصادى هذا مع ما ينبزه الباحث معجب الزهراني بـ الحوارية التي تتأسس هي الأخرى على نسبية المعاني وكثرة الحقائق[2].

المطلب الثاني: الحجاج في اللغة

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الباحث العزاوي ينطلق ويرتكز في أبحاثه من وعلى نظرية الحجاج في اللغة باعتبارها نظرية حديثة تسعف في تقديم تصور جديد للمعنى؛ للبحث عنه وبنائه.

وقد وضع الباحث هدفين رئيسيين لكتابه اللغة والحجاج هما:

1- تأكيد فرضية الطبيعة الحجاجية للغة الطبيعية

2- إبراز بعض الجوانب الحجاجية للغة العربية في مستويات عديدة.

وعموما فالكتاب يقع في مائة و ستين صفحة من القطع المتوسط، شغلتها أربعة فصول ومقدمة وخاتمة. أما الفصل الأول فتناول الحجاج اللغوي والدلاليات لحجاجية، وعرض فيه الكاتب بالدرس والتحليل لمفاهيم عمد، من قبيل: الحجاج، والحجة، والسلم الحجاجي وقوانينه والروابط والعوامل الحجاجية وما تضطلع به من أدوار وازنة في توجيه

(1) اللغة والحجاج، مذكور، ص.129.

(2) الزهراني، معجب، الخطاب الحواري في فصل المقال، كتاب الرافد، [ع.2]، دار الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، [د.ط]، فبراير 2010، ص.15، 16.

المعنى وتحقيق التأثير الذي يظل عموما قصد المتكلمين[1]، الشيء الذي يستتبع حمل المتلقي بطريق القهر النظري على تقبل الرأي المخالف بعد إبطال حججه وثنيه عن رأيه[2]، فالجهد المبذول في الحجاج ذو بعد إقناعي إفحامي حواري[3]، ينهض على مبادئ ذات طابع تداولي[4].

كما ناقش الباحث في الفصل نفسه الحجاجيات الضعيفة، والحجج القوية والواهية والأوهى، وخلص بعد أن ضرب أمثلة من اللغة العربية والفرنسية إلى أن المكون الحجاجي أساسي في المعنى وهو الذي يحكم اشتغال الأقوال داخل الخطاب، وأن المكون الإخباري ثانوي وهامشي[5].

وفي الفصل الثاني درس المؤلف بعض الروابط مثل الرابط "بل"، و"لكن"، و"حتى"، وقارب معانيها ودلالاتها البلاغية والنحوية كالإضراب والاستدراك، والغاية، وبين أن هذه الأخيرة وثيقة الصلة بما يدعى في الدراسات الحجاجية بالسلم الحجاجي[6]، الذي تظل فيه الحجج التي تأتي بعد الرابط أقوى من التي ترد قبله. وهذه الروابط وما تتصحبه من صيغ شرطية أحيانا تفتح آفاقا كبرى للدلالة الاحتمالية[7].

وأفرد الباحث الفصل الثالث من كتابه للحديث عن الاستعارة و دورها في الخطابات الحجاجية منطلقا من مقال ميشال لوغرن الموسوم بـ الاستعارة والحجاج، وبين أن

---

(1) اللغة والحجاج، مذكور، ص.8، 14.

(2) هاني، إدريس، الأسلوب الحجاجي السائغ في الخطابي الميثمي الجامع، كتاب النجاة للشيخ كمال الدين ميثم البحراني. نموذجا، قراءة تركيبية في مبحث الغيبة، المحجة، [ع.17]، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، صيف 2008م/ 1429هـ، ص.149.

(3) أنظر: محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، المجلد 28. [ع.3]، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يناير / مارس 2000م، ص.56، و: أعراب، حبيب. ص.99، 103، 117، و: عبد الله صولة، مذكور، ص.299.

(4) اللغة والحجاج، ص.33.

(5) نفسه، ص.42، 44.

(6) للمزيد من التفصيل حول هذا المفهوم عد إلى: طه، عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، [ط.2]، 2006م، ص.277.

(7) الزهراني، معجب، مذكور، ص.36، 58.

القول الاستعاري له قوة حجاجية عالية جدا[1]، فقولنا مثلا: زيد أسد أقوى حجاجيا من قولنا: زيد شجاع. حتى أن التشابيه البليغة وما تفرع عنها من استعارات تصريحية أو مكنية، والمجازات تجعل منجزها "يسود ويسيطر" مثلما يقول بارث.

ولم يجانب حازم القرطاجني الصواب إذ يركز على الوظيفة التأثيرية للعمل الأدبي التي تتغيا غرز قيمة في المتلقي أو إقناعه بقضية أو حمله على اتخاذ موقف[2].

وقوة الكلمات أو اللغة بين الانجاز والحجاج دعا العزاوي الفصل الرابع من كتابه، وتطرق فيه إلى أن النماذج اللسانية الأولى مع سوسير كانت تقصر وظيفة اللغة الأساس على الإخبار وتعتبره الفعل اللغوي الرئيسي[3]، ووجهة النظر هذه واجهت انتقادات كثيرة من قبل مدرسة أوكسفورد ومن الفلاسفة ستراوسن وأوستين الذي يتجاوز الوظيفة التواصلية التخاطبية للغة إلى الوظيفة التأثيرية الحجاجية[4]، وسورل وغيرهم.

المطلب الثالث: الحجاج في الخطاب

يعتبر كتاب الباحث "الخطاب والحجاج" لبنة أساسية في الدراسات الحجاجية وإضافة نوعية انتقلت من حجاجيات الجملة أو النّص إلى حجاجيات الخطاب بما هو المجال الرحب للحجاج[5] وبوصفه المحضن الأساس الذي تتجلى فيه بشكل أكبر طرائق اشتغاله ووجوه استعماله[6].

وقد اختار المؤلف لبحثه "الخطاب والحجاج" غاية عليا وهي كما أعلن عنها في مقدمة

---

(1) اللغة والحجاج، ص.102، 103.

(2) أديوان، محمد، الخطاب البلاغي عند حازم القرطاجني المشكل والغاية، فكر ونقد، [ع.41]، السنة 5، سبتمبر 2001م، ص.46.

(3) اللغة والحجاج، ص.113.

(4) محمد سالم ولد محمد الأمين، ص.58.

(5) الخطاب والحجاج، ص.34، وأنظر أيضا: الولي، محمد، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، فكر ونقد [ع.8]، السنة 1، أبريل 1998م، ص.133، وأيضا: أعراب، حبيب، ص.112.

(6) الخطاب والحجاج، ص.122.

الفصل الأول السعي إلى تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها ليشمل مختلف النصوص الدينية والأدبية والسياسية والتاريخية والصحفية الإشهارية[1]، وهذا صعب ركبه المؤلف دونه صعاب جمة، لكنه سعى وسعيه معتبر ومقدر، وقد جعل الباحث "الخطاب والحجاج" فصولا أربعة لأربع خطابات؛ هي الخطاب القرآني والخطاب الشعري والخطاب المثلي، والخطاب الإشهاري، تصدرتها مقدمة، ذهب فيها إلى أن كل الخطابات المنجزة بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية[2]، وهذا ينسجم ويتساوق مع المقولة المفتاح التي يصدر عنها المؤلف ومفادها أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية[3].

ويجمل بنا أن نومئ إلى أن الباحث استطاع أن يعبر من مستوى التنظير ومحاولة استنبات نظرية الحجاج في اللغة الأوزوالدية في اللغة العربية إلى المستوى التطبيقي العملي الذي يشتغل على نماذج من الخطابات والنصوص.

ففي الفصل الأول اشتغل المؤلف على سورة الأعلى بعد أن جعلها مقاطع يأخذ بعضها برقاب بعض ويُسْلم المتقدم منها إلى التالي، فتم له التحليل والتفكيك الحجاجيان، وكان أن انتهى إلى أن السورة تقوم وتستبطن بنية منطقية واضحة وبرنامجا حجاجيا محددا[4].

ونشير إلى أن المؤلف كان يتأرجح ويتقلب خلال بحثه الرصين بين منزلتي تواضع البلاغة وبلاغة التواضع بخاصة التي ما انفك يلمح إليها؛ فهو "يحاول" فقط طرح بعض الأسئلة الجديدة[5] ثم إنه "لا يدعي" الإحاطة بكل المظاهر الحجاجية للنص الأدبي[6].

أما الفصل الثاني فخصصه أستاذنا للخطاب الشعري، وانتخب له قصيدة" العلة" للشاعر العراقي المفلق أحمد مطر. وفي مطلب الحجاج والشعر اختار العزاوي أن يرد على الفيلسوف الأمريكي ومن خلاله على جميع الذين يقيمون تعارضا بين الحجاج والشعر

---

(1) نفسه، ص.15.

(2) نفسه، ص.10.

(3) نفسه، ص.9، وأنظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مذكور، ص.65.

(4) الخطاب والحجاج، ص.24.

(5) نفسه، ص.11، 101.

(6) نفسه، ص.33.

متعللين بأن الشعر يتأسس على الفردي والحجاج banalité la متأسس على الابتذال وما هو جمعي مشترك[1].

يقول أستاذنا: "ونحن وان كنا نشاطره جزءا من موقفه ورأيه في الحجاج و المتمثل في كون هذا الأخير يقوم على الابتذال (...) فإننا نرى أن ذلك ينطبق على الشعر هو الآخر، كما أن الرؤية الفردية نجدها في هذا وذاك[2]، وبين مظاهر الطابع الحجاجي للشعر وأنه يهدف إلى الحث و التحريض و تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته[3].

ويستهل الباحث تحليله الحجاجي لقصيدة العلة بسبر أغوار عتبتها الأولى [أي العنوان] واستكناه حقيقة ما تتيحه من تأويلات واحتمالات، رجح منها معنيين اثنين:

العلة = السبب.

العلة = المرض.

ترجيحا يتفق ويتماشى ومقاطع القصيدة التي تحكمها ثنائية السبب والمرض، ويقوم هذا العنوان حجة لصالح نتيجة هي أنه: ينبغي "إيجاد" علاج للمرض "أو" يجب إزالة الأسباب لتزول المسببات، والقصيدة بعد هذا ليست سوى تمطيط / نتيجة لعنوانها[4]. وقد توسل المؤلف آلية النحت فابتكر عدة مصطلحية تسعف الدارسين وترفد دراساتهم وتحاليلهم الحجاجية، لجميع أنواع الخطابات، من قبيل؛ الإستراتيجية الخطابية، وتعالق الروابط، والبرنامج الحجاجي[5]، والعلاقة الحجاجية والربط والتعارض الحجاجيين[6].

وأردف أستاذنا الخطابين القرآني و الشعري، بالخطاب المثلي، وذهب إلى أن الأمثال عموما تتضمن مبادئ حجاجية عميقة وقوية، وأن إيرادها في الخطاب والاستشهاد بها يكون

---

(1) نفسه، ص.34.

(2) نفسه، ص.34.

(3) نفسه، ص.35.

(4) نفسه، ص.39.

(5) نفسه، ص.28، 54، 56.

(6) نفسه، ص.43 وما بعدها.

لغايات اقناعية استدلالية[1] وفي سياق رده على الذين يعتبرون المثل حجة عادية ترتبط بسياق خاص يقرر أنه [أي المثل] يجب وألا يعتبر البتة Argument d'autorité أن يعتبر حجة جاهزة، صناعية وأن يوضع ضمن حجة السلطة حجة خاصة وعادية[2].

وارتاد الباحث آفاق الصورة والأيقونات في الخطاب الإشهاري وهو رابع الفصول، وصدره بمقدمة ألمح فيها إلى أن للصورة أنماط مختلفة باختلاف المباحث المعرفية الصادرة عنها؛ فهناك الصورة النحوية، والبلاغية والمنطقية والذهنية والسينمائية، والإشهارية، وخطاب الصورلوجيا القائم على ثنائية صورة الأنا والغير.

وبين بعد هذا أن الصورة تحتل حيزا مهما في المجالات التداولية للأفراد وتكويناتهم، إذ تحيل على جوانب جمالية وتربوية ولغوية ونفسية وفلسفية وحضارية[3]، فالصورة من وجهة النظر هذه لفظ عام يمت بصلات إلى حقول معرفية عديدة. وبانبراء الباحث للخطاب الإشهاري المرتكز على الصورة يكون قد أبدع ونقض التصور العام والشائع الذي لا يستحضر الحجاج إلا باعتباره نشاط خطابي لغوي[4]، وتغدو الأيقونات (الأشياء، الألوان..) حججا في الخطاب البصري الشيء الذي يستتبع أن تكون النتائج من النمط نفسه، أي أيقونات[5].

وبخصوص هذا الفصل نعتب على أستاذنا أنه لم يرفق المتون والخطابات اللغوية الإشهارية بمتونها الأيقونية أي الصور المصاحبة لها حتى تكتمل الصورة الذهنية لدى القارئ.

(1) نفسه، ص.83.
(2) نفسه، ص.92.
(3) نفسه، ص.100.
(4) نفسه، ص.103.
(5) نفسه، ص.107.

خاتمة:

نتتهي مما تقدم إلى جملة أمور نوردها كالآتي:

- إن الباحث "أبو بكر العزاوي" يرفض أن تكون للغة بنية منطقية ويلح على منطقها الداخلي الخاص.
- انه يعتبر الحجاج في اللغة منطقا طبيعيا يسعف في مقاربة وتحليل خطابات ونصوص مختلفة.
- إن اللسان البشري الطبيعي ذو وظيفة حجاجية.
- انه استطاع أن ينتقل من حجاجيات الأقوال والجمل إلى حجاجيات أوسع هي حجاجيات النصوص والخطابات المختلفة.
- إن المكون اللغوي يرفد نظيره الأيقوني البصري ويتكاملان لخلق حجاجية عالية وقوية.

تجليات تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجالات تطبيقها في دراسات أبوبكر العزاوي

ذ. أحمد القصوار
باحث في سلك الدكتوراه
كلية علوم التربية/ جامعة محمد الخامس بالرباط

ساهم الدرس الحجاجي المغربي المعاصر بشكل وازن في تطوير الدرس الحجاجي العربي وانفتاحه على النظريات والمقاربات الغربية وتوسيع مجالات الاشتغال على التحليل الحجاجي. وإذا كانت نخبة من البلاغيين ومحللي الخطاب قد قدمت إسهامات نظرية وتطبيقية قيمة بخصوص نظرية الحجاج (العمري، الوالي، مشبال...)، أو من منظور منطقي وتواصلي (طه عبدالرحمان)، فان الأستاذ أبوبكر العزاوي يعد من رواد الباحثين العرب الذين قدموا نظرية الحجاج في اللغة واشتغلوا على إعمال مفاهيمها على ظواهر لغوية في اللغة العربية وعلى أنماط مختلفة من الخطابات الأدبية والمثلية والدينية والاشهارية، الخ.

في هذه المقالة، سنحاول الوقوف على العناصر الأساسية المعتمدة في نظرية الحجاج في اللغة؛ كما يقدمها الباحث في إطاره النظري والمنهجي. كما سنرصد مفهوم الحجاج وتجلياته، فضلا عن الفرضيات والمسلمات الأساسية لدراسة الحجاج في كتابات ابوبكر العزاوي. من جهة أخرى، سيتم إبراز تجليات تطوير النظرية الحجاجية في دراسات العزاوي، سواء على الصعيد النظري، أو الصعيد التطبيقي على أنماط مختلفة من الخطابات، ولا سيما التحليل الحجاجي للخطاب الشعري والتحليل الحجاجي للخطاب الاشهاري الايقوني. لقد استهدف المشروع البحثي لأبي بكر العزاوي بيان أهمية التحليل الحجاجي للخطاب والنصوص بمختلف أنواعها وتوسيع مجال نظرية الحجاج في اللغة وتطويرها وإعطاء مزيد من الأمثلة والأدلة على شمولية الحجاج وحجاجية الخطابات الطبيعية وإكساب التحليل الحجاجي التداولي للخطاب بعدا إجرائيا يسهل تطبيقه على مختلف النصوص

والخطابات[1].

الإطار النظري والمنهجي: اعتماد نظرية الحجاج في اللغة

تبنى الباحث أبوبكر العزاوي في دراساته لبعض الجوانب الحجاجية للغة العربية وأنماط الخطابات التي تيسر له دراستها نظرية الحجاج في اللغة التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو. ويوضح العزاوي أن هذه النظرية تنطلق من فكرة مؤداها "أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"[2]. وتحاول النظرية أن تبين أن "اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية، وظيفة حجاجية؛ أي أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية"[3].

ويعتبر الباحث أن دراسة الحجاج تندرج ضمن "البحوث التي تسعى الى اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدريجي. وبعبارة أخرى، فان الحجاج يتمثل في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[4]. من ثمة، يتمثل الحجاج في دراسات العزاوي في "ما تشتمل عليه اللغات الطبيعية من وسائل لغوية ومن امكانات صرفية ومعجمية وتركيبية ودلالية يوظفها المتكلم لتحقيق أهدافه وغاياته الحجاجية"[5]. كما أن الحجاج مؤشر له "في بنية اللغة الطبيعية، فهناك روابط وأدوات وتعابير من قبيل (بل، لكن، إذن، حتى، لاسيما، لأن...) وظيفتها الأساسية هي الوظيفة الحجاجية"[6]. ذلك أن الروابط والعوامل الحجاجية هي "الدليل القاطع على أن

---

(1) انظر: أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ط1، 2016، ص 43-44

(2) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2009، ص 7.

(3) نفس المرجع، ص 7

(4) نفس المرجع، ص 7

(5) نفس المرجع، ص 13

(6) نفس المرجع، ص 13

الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها"[1].

وفي سياق إبراز خصوصية تصوره النظري للحجاج وانزياحه عن ما يسميه بالتصورات التقليدية، يميز العزاوي بين نمطين من الحجاج الطبيعي:

1- الحجاج "باعتباره تقنيات بلاغية ومنطقية وأصولية وكلامية، تنتمي إلى البلاغة القديمة والحديثة أو المنطق الطبيعي أو فلسفة العلوم أو أصول الفقه وعلم الكلام"[2].

2- الحجاج باعتباره" آليات لغوية محض، وهو ما يشكل موضوع نظرية الحجاج في اللغة. فالحجاج هنا ظاهرة لغوية نجدها في كل قول وفي كل خطاب"[3]، وبالتالي نجد الحجاج في هذا المنظور في "الأسماء والأفعال والصفات والظروف والحروف، ونجده في التراكيب النحوية والصور البلاغية. نجده باختصار في كل ظواهر اللغة بشكل أو بآخر"[4].

في هذا الإطار، يعمل العزاوي كلما أتيحت له الفرصة على إبراز حدود ما اسماه "التصور العام والشائع للحجاج"، حيث يتم تمثل الحجاج في "التأليف بين مجموعة من القضايا تهدف كلها إلى إثبات صحة قضية أخيرة تقدم باعتبارها النتيجة لهذه المتوالية الاستدلالية"[5]. من هنا يؤكد الباحث في التعريف بنظرية الحجاج في اللغة أنها" تتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد الحجاج منتميا الى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو) أو البلاغة الحديثة (برلمان، اولبريخت تيتيكا، ميشيل ميير..) أو منتميا الى المنطق الطبيعي (جان بيليز غريز)"[6]. ويضيف الباحث أن النظرية التي وضع اسسها ازفالد ديكرو منذ 1973 هي "نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر

---

(1) نفس المرجع، ص 59

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2010، ص 37

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 37

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 37

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 104

(6) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2009، ص 19

عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها: إننا نتكلم عامة بقصد التأثير"[1]. كما يبين العزاوي أن نظرية الحجاج في اللغة انبثقت "من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها اوستين وسورل، وقد قام ديكرو بتطوير أفكار وأراء اوستين بالخصوص، واقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين هما فعل الاقتضاء وفعل الحجاج"[2].

مفهوم الحجاج في نظرية "الحجاج في اللغة" و تجلياته

- الحجاج كمنطق طبيعي للغات الطبيعية

في كتاب "الخطاب والحجاج"، وبعد أن يشير إلى التعريفات المعجمية للحجاج عند ابن منظور، يؤكد الباحث أن التعريف السائد والمعتمد للحجاج يتمثل في "تقديم مجموعة من الحجج والأدلة التي تخدم النتيجة المقصودة والغاية المتوخاة"[3]. كما يعتبر الحجاج اللغوي هو "منطق اللغة وهو المنطق الطبيعي الذي نجده في كل اللغات البشرية، ونجده في كل النصوص والخطابات التي تنجز باللغة الطبيعية بمختلف أنواعها وأنماطها"[4]. ويتعلق الأمر في مفهوم الحجاج الذي يستعمله الباحث وتتبناه نظرية الحجاج في اللغة بـ "معالجة لسانية للحجاج، ويعد هذا الأخير إحدى الوظائف الأساسية للغة الطبيعية، ثم إن الحجاج والنتائج هي عناصر دلالية لغوية"[5].

هكذا، نلاحظ أن العزاوي ما فتئ تكرر في كتاباته[6] بين الحين والآخر أن الحجاج "نجده أيضا في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص، فنجده في الخطبة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية واللافتة الاشهارية والخطاب السياسي

---

(1) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 19

(2) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 20

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 9

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص9

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص27

(6) أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ط1، 2016، ص 22-23

ومرافعة المحامي وفي الرواية والمسرحية الأدبية والمناظرات ومناقشة الأطروحات الجامعية والكتابات العلمية وغيرها"[1]. وانطلاقا من تبنيه لنظرية الحجاج في اللغة، يخلص العزاوي إلى أن دراسة الحجاج "تنتمي إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة ومنطق الخطاب، أي تسعى إلى اكتشاف القواعد الداخلية للخطاب والمتحكمة في تسلسل الأقوال والجمل وتتابعها بشكل متنام وتدريجي. فالحجاج حسب هذا التصور، يتمثل في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[2]. وهذا ما جعل الباحث يشدد غير ما مرة على أن المظاهر الحجاجية للخطاب "أيا كان نوعها، لا تتمثل في الروابط والعوامل الحجاجية فقط، ولكنها تتمثل أيضا في أشياء أخرى، فهي تتمثل في كثير من الظواهر الصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية.."[3].

والملاحظ أن الباحث يحرص على إعادة صياغة تعريفاته للمفاهيم المستعملة، وفي مقدمتها مفهوم الحجاج. هكذا، نجده في كتاب (اللغة والحجاج) يسوق تعريفا تركيبيا يعتبر فيه الحجاج هو "تقديم الحجاج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل الحجاج في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب. وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في انجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"[4].

- **الحجاج والاقناع**

من ثمة، تبرز خصوصية تصور نظرية للحجاج في اللغة للوظيفة الحجاجية للغة. ذلك أن كون "اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة، لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"[5]. كما يخلص الباحث في موضع

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص11

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 13

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 18

(4) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص21

(5) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص21-22

آخر إلى أن" الألفاظ والأقوال والعبارات التي نستعملها ونتجها في حياتنا اليومية لها طابع حجاجي واضح، ولها قوة حجاجية بارزة تسعى من خلالها إلى التأثير في المتلقي، والى دفعه إلى تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين،أو اتخاذ موقف ما من قضية من القضايا، أو إلى تغيير أرائه ومواقفه بشكل عام"[1].

غير أن العزاوي يوضح بأن استعماله لفظة "التأثير" أو "الإقناع" لا ينبغي أن يفهم منها ذلك" المعنى الذي نجده في الدراسات والمقاربات الحجاجية الكلاسيكية (أعمال أرسطو، برلمان،...)، وإنما ينبغي وضعه في الإطار النظري المحدد... وهو نظرية الحجاج في اللغة"[2]. ذلك أن الإقناع والتأثير حسب هذا المنظور - يضيف الباحث - ذو "دلالة اشمل ومعنى اعم، وتكون التقنيات الحجاجية التي نجدها في البلاغة القديمة والحديثة والدراسات المنطقية والفلسفية عبارة عن حالة خاصة وذلك بالمقارنة مع الإمكانات والوسائل الفنية الهائلة واللامتناهية التي تمدنا بها اللغات الطبيعية"[3].

- **توسيع تعريف الحجاج**

انطلاقا من النظر إلى التواصل على انه قد يكون لغويا او غير لغوي، والحجاج يكون هو الآخر بوسائل لغوية وأخرى غير لغوية، يعيد ابوبكر العزاوي[4] صياغة عبارة طه عبدالرحمان التي ضمنها بحثه (التواصل والحجاج). يقول طه: "لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان". هكذا، يقوم ابوبكر العزاوي بتوسيع مجال تطبيق هذه المقولة وتعديلها على النحو التالي: "لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل"، وبالتالي يكون الحجاج مرتبطا بكافة أشكال التواصل"[5]. وهذا ما يعزز التصور العام

---

(1) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص135

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص61

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص61.

(4) انظر ايضا: أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ط1، 2016، ص 22-23

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص106

للحجاج عند الباحث الذي يشدد على شمولية الحجاج، وعلى أن "الخطاب بمختلف أنواعه وأنماطه ذو طابع حجاجي بامتياز"[1].

الفرضيات والمسلمات الأساسية لدراسة الحجاج

- اللغة ذات طبيعة حجاجية

يؤكد الباحث في دراساته على الوظيفة الحجاجية للغة. ذلك أنها "تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، أي أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية اللغة، وفي بنية الجمل والأقوال نفسها، فنحن نجدها في الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية والتداولية"[2]. كما يذكر العزاوي إحدى الفرضيات الأساسية التي تقوم عليها نظرية الحجاج في اللغة؛ وهي "أن طائفة كبيرة من ألفاظ اللغة وكلماتها وتراكيبها ليس له معنى واضح، أو ليس له محتوى إخباري بين، وإذا سلمنا بهذا – يضيف الباحث- فان وظيفتها ستكون إذاك وظيفة حجاجية بالأساس"[3].

من ثمة، تبرز أولوية المكون الحجاجي على المكون الإخباري. ذلك أنه "حتى إذا اشتمل معنى بعض الكلمات أو العبارات على مكون وصفي إخباري، فانه يكون تابعا للمكون الحجاجي، ويكون ثانويا بالقياس إليه"[4] ومرد ذلك بحسب العزاوي إلى أن المعنى الحجاجي هو "الذي يعتمد في تسلسل الخطاب وتناميه، وهو الذي يحكم توالي الأقوال وتتابعها بصورة استنتاجية داخل الخطاب"[5]. بناء على ما تقدم، يخلص العزاوي في دراسته لـ "قوة الكلمات أو اللغة بين الانجاز والحجاج" إلى أن "الألفاظ والأقوال والعبارات التي نستعملها وننتجها في حياتنا اليومية لها طابع حجاجي واضح، ولها قوة حجاجية بارزة تسعى من خلالها إلى التأثير في المتلقي، وإلى دفعه إلى تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين، او

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 125

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص11

(3) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص134

(4) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص134

(5) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص134

اتخاذ موقف من قضية من القضايا، أو إلى تغيير أرائه ومواقفه بشكل عام"[1].

وهذا ما يجعل الباحث سواء في تصوره النظري أو في تحليلاته لمختلف الخطابات يسعى إلى تأكيد" فرضية الطبيعة الحجاجية للغات الطبيعية، وبالتالي اعتبار المنطق أو النموذج الحجاجي منطقا للغة البشرية"[2].

- **الخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية هي خطابات حجاجية**

ينطلق الباحث في دراساته للحجاج في الخطاب[3] من مسلمة مفادها أن" كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية،لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لنص، ومن خطاب لخطاب"[4]. من ثمة، يعتبر العزاوي أن الخطاب هو "عبارة عن متوالية من الأقوال والجمل، أو بتعبير حجاجي مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة او المضادة، والدليل يفضي إلى النتيجة، والنتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه"[5].

وفضلا عن المظاهر الحجاجية التي تهم البنية الداخلية للخطاب، يتحدث العزاوي عن وظيفة حجاجية عامة للخطاب من خلال" ربطه بالمتكلم والمخاطب وملابسات وظروف السياق التخاطبي والاجتماعي العام"[6]. وقد اشتغل الباحث في بعض دراساته على الوظيفة الحجاجية للخطاب التي غالبا ما تكون على حد تعبيره هي "الوظيفة الأساسية والمركزية، أي الوظيفة التي تحكم الوظائف الأخرى وتوجهها"[7].

---

(1) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص135

(2) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص140

(3) انظر ايضا:أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، مرجع سابق، ص 29

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص12

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص18-19

(6) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص19

(7) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص20

4- بعض تجليات تطوير النظرية الحجاجية

إذا كان أبوبكر العزاوي قد أسهم في بيان أهمية التحليل الحجاجي للغة العربية ولمختلف الخطابات المتداولة فيها، فانه عمل على توسيع مجال نظرية الحجاج في اللغة وتطويرها. وقد تأتى له ذلك من خلال اقتراح" مفاهيم ومصطلحات جديدة من قبيل البرنامج الحجاجي والإستراتيجية الخطابية وتعالق الرابط الحجاجية التداولية والحجاج الأيقوني والانسجام التداولي"[1]. ومرد ذلك إلى اعتباره أن مجال الحجاج ليس هو القول او الجملة، وإنما مجاله الحقيقي هو" الخطاب والحوار حيث تتجلى طرائق اشتغاله وتظهر وجوه استعماله"[2]. وقد حاجج الباحث على هذه النتيجة بإعطاء كم غزير من الأمثلة والحجج على شمولية الحجاج وعلى حجاجية مختلف الخطابات التي تناولها في دراساته.

هكذا، لم يخف الباحث سعيه في مشروعه البحثي إلى "تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها ليشمل مختلف النصوص الدينية والأدبية والسياسية والتاريخية والصحفية والاشهارية"[3]. في هذا الإطار، لاحظ العزاوي أن التطبيقات التي عرفتها نظرية الحجاج في اللغة" في مجال تحليل النصوص والخطابات نادرة ومحدودة"[4]. لهذا، فإنها" تختار دائما نصوصا بسيطة لتجريب النظرية عليها ولإبراز أهمية التحليل الحجاجي ومعرفة حدوده وإمكاناته، وتعدد المقاربات والتطبيقات هو الذي سيمكننا بالطبع، من معرفة دقيقة وشاملة بهذه النظرية، وسيمكننا بالتالي من تطويرها واغنائها حتى تكون أكثر قدرة واستجابة لتحليل أنماط عديدة من النصوص والخطابات"[5].

لقد استهدف الباحث توسيع مجال تطبيق النظرية حتى لا تظل محصورة في الروابط والأدوات الحجاجية، بحيث "لا ينبغي أن ينحصر التحليل في الأقوال والجمل، وإنما يجب أن يشمل النصوص الأدبية والدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فنخرج بذلك من مجال

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص125

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص125

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص17

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، . ص17

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص17

القول الضيق إلى فضاء الحطاب الرحب.فمجال الحجاج إنما هو الحوار والخطاب حيث تظهر وجوه استعماله، وتتجلى طرائق اشتغاله"[1]. من ثمة، يصدر الباحث في دراساته عن قناعة راسخة بكون نظرية الحجاج في اللغة قابلة للتطوير وبإمكانية تطبيقها على مختلف الخطابات[2].

5- التحليل الحجاجي للخطاب الشعري

- **الفرضيات البحثية**

ينطلق الباحث من فرضية اثبت صحتها تقول إن التحليل الحجاجي مفيد في دراسة النصوص الأدبية[3]. وإذا كان قد أدرج هذا التحليل بشكل عام ضمن التحليل اللساني للشعر، فانه يتميز عما أنجز في هذا المجال من محاولات وأعمال بكونه يسعى إلى تطبيق نظرية جديدة لم يتم تطبيقها بعد حسب علم العزاوي[4]. وقد استهدف الباحث في تحليك الحجاجي لنص شعري معاصر للشاعر العراقي احمد مطر (قصيدة العلة)" استخراج أهم المظاهر الحجاجية وتأكيد الطابع الحجاجي العام للقصيدة نصا وعنوانا ومعجما وحوارا وصورا بلاغية"[5].

من ثمة، لم يتردد العزاوي من أجل دعم فرضيته في نقد التصور الذي ينظر إلى "الشعر والحجاج على أنهما متعارضان"، ممثلا لهذا الموقف بأعمال تولمين. فاذا كان العزاوي يشاطر تولمين موقفه ورأيه في الحجاج، والمتمثل في كون هذا الأخير يقوم على الابتذال، وينطلق من المعرفة المشتركة، فإننا نرى أن ذلك ينطبق على الشعر هو الآخر، كما ان الرؤية الفردية نجدها في هذا وذاك"[6]. ولدعم موقفه يستشهد بحازم القرطاجني الذي لا ينكر أن

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص35

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص105

(3) انظر:أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، مرجع سابقن ص 30-31

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص35

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص35

(6) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص36

الخطابة قد تستعمل التخييل، مثلما أن الشعر قد يستعمل الإقناع. وهذا ما ينعكس على تصور الباحث للنص الشعري عامة، حيث يعتبر أنه "لعبا بالألفاظ فقط، وليس نقل تجربة فردية ذاتية فحسب، انه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، والى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه"[1].

- **الشعر الحجاجي والشعر غير الحجاجي**

يميز العزاوي بين شعر حجاجي وشعر غير حجاجي. ويعرف الشعر غير الحجاجي بكونه عبارة عن "تلاعب بالألفاظ تكون الغاية منه إظهار البراعة في استعمال اللغة، والتمكن من قوانين الصناعة الشعرية"[2]. ويؤمن الباحث بأن طبيعة الحجاج وقوته "تختلف من نص شعري لآخر، وكلما كان الشاعر صادقا في معاناته، ساعيا الى تبليغ خطاب ما راميا إلى التخاطب والتواصل مع الآخرين، له غاية واضحة و هدف محدد يرمي إليه، كلما كان شعره أكثر حجاجية"[3]. ومرجع ذلك إلى مبدأ نسبية الحجاج وارتباطه بالمقاصد والسياقات التداولية، حيث يعتبره العزاوي من المبادئ التي تقوم عليها نظرية الحجاج في اللغة وإغلب النظريات الحجاجية القديمة والحديثة.

- **اغناء نظرية الحجاج في اللغة بنظرية الأطر**

اعتمد العزاوي نظرية الأطر (المندرجة ضمن البحوث اللسانية والنفسية والمعرفية) المستخدمة في ضبط الآليات التي تتحكم في عملية إنتاج الكلام أو الخطاب وفهمه. وترى هذه النظرية – استنادا إلى محمد مفتاح – "أن معرفتنا مختزنة في الذاكرة على شكل بنيات معطاة ممثلة لأوضاع متكررة نستقي منها عند الاحتياج إليها لتتلاءم مع الأوضاع الجديدة التي تواجهنا"[4]. وهذا ما مكن الباحث من تحليل عنوان القصيدة انطلاقا من إطاري المرض

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص37.

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص38

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص38

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص41

والعلية. وتمثلت الطبيعة الحجاجية للعنوان في "أن الشاعر يقدمه على أنه دليل او حجة تخدم نتيجة معينة من نمط" ينبغي إيجاد علاج للمرض" أو يجب إزالة الأسباب لتزول المسببات، وتتمثل في مقصدية الشاعر وبرنامجه الحجاجي، وتتمثل أخيرا في نص القصيدة بكامله الذي يعتبر تمطيطا لهذا العنوان"[1].

- **الاستعارة الحجاجية وغير الحجاجية**

يشدد العزاوي على أهمية الاستعارة وحضورها المتميز في مختلف الحوارات اليومية والخطابات الأدبية والسياسية والدينية والاقتصادية وغيرها،فضلا عن كونها "تشكل إحدى الخاصيات الجوهرية للغات الطبيعية فإنها تعتبر من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها تأتي في المقام الأول، لا سيما أن القول الاستعاري يتمتع بقوة حجاجية عالية إذا ما قورن بالأقوال العادية"[2].

ويعد العزاوي من الباحثين الأوائل الذين أولوا عناية خاصة بالاستعارة من منظور نظرية الحجاج في اللغة، حيث خلص في تحليله لمختلف الأمثلة المدروسة إلى أن الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية،بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري"[3]. وانطلاقا من أعمال الجرجاني وكونراد ورتشارد ولايكوف وجونسون، يقوم العزاوي بنحت مصطلح "الاستعارة الحجاجية" التي يدرجها ضمن "الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية"[4]. ويعتبرها النوع الأكثر انتشارا" لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية.فنحن نجدها في اللغة اليومية، وفي الكتابات الأدبية

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 41

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 47-48

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 107

(4) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 110

والسياسية والصحفية والعلمية"[1].

بالمقابل، يذهب العزاوي إلى أن الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية تكون "مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين وبمقاصدهم وأهدافهم الحجاجية"[2]. من ثمة، فإنها توجد في سياق "الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي، وليس سياق التواصل والتخاطب"[3]. انطلاقا من ذلك، عمد الباحث إلى تحليل الاستعارات الحجاجية في قصيدة (العلة) مركزا على مركزا على مثال واحد منها (أود أن أرفع راسي عاليا) [4].

6- التحليل الحجاجي للخطاب الاشهاري الايقوني

حاول أبو بكر العزاوي في دراسته الموسومة بـ "الخطاب الاشهاري: الصورة الاشهارية والحجاج الايقوني" المنشورة في كتاب (الخطاب والحجاج) إبراز بعض الجوانب الحجاجية للصورة الاشهارية، مع العمل على الاشهاري الموجزة لجوانبها التصورية والمعرفية والايديولوجية[5].

وعلى صعيد التحليل،هدف الباحث إلى القيام بتحليل حجاجي لنماذج من الصورة الاشهارية بغرض طرح أسئلة جديدة بخصوص دراسة الصورة الاشهارية[6]، حيث وقف عند بعض القضايا من أبرزها: مفهوم الحجاج- البنية الداخلية للصورة- الخلفية الايدولوجية للصورة – المزاوجة بين المكونات اللغوية والمكونات الايقونية، الخ. ولتحليل البنية التصورية للصورة، استند الباحث إلى أعمال جاكندوف، في حين اعتمد نظرية الحجاج في اللغة لتحليل الجوانب الحجاجية الاقناعية[7]. فاذا كانت "الغاية من الإشهار هي التأثير في

---

(1) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 110

(2) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 111

(3) ابوبكر العزاوي، اللغة و الحجاج، مرجع سابق، ص 111

(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 48-49

(5) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 102

(6) انظر ايضا: أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، مرجع سابق، ص36

(7) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 102

المتلقي ودفعه إلى شراء المنتوج، فاننا سنعرف بالتالي – يكتب الباحث- أن هذا يتطلب إقناعا وحجاجا واستدلالا"[1].

وبعد التحليل الحجاجي للخطاب اللغوي الذي تتضمنه بعض الصور الاشهارية، يطرح الباحث الأسئلة التالية:

- هل هناك حجاج في الصورة الاشهارية أو ما هي أهم مظاهره؟
- وهل المكونات الايقونية لها طبيعة حجاجية؟
- وهل يمكن أن ندرس الخطاب البصري بالمنهج الذي ندرس به الخطاب اللغوي؟[2]

للإجابة على هذه الأسئلة،يقر الباحث أن التصور الشائع للحجاج يعتبر نشاطا خطابيا لغويا، حيث يتمثل الخطاب الحجاجي في "التأليف بين مجموعة من القضايا تهدف كلها إلى إثبات صحة قضية أخيرة تقدم باعتبارها النتيجة لهذه المتوالية الاستدلالية"[3]. غير أن سلطان حضارة الصورة اليوم حفز الباحث على التعرف على السلطة الاقناعية للصورة، وخذا ما دفعه إلى دراسة الإمكانات الحجاجية للصورة ولاشتغالها،حيث إن "وجود هذه الإمكانات لا يشك فيه أحد، ولو أنه لم يظفر لحد الآن بدراسة نسقية، والمهتمون بالحجاج يقع تركيزهم على الخطاب اللغوي، وعلى الإمكانات والأدوات التعبيرية التي تمدنا بها اللغات الطبيعية"[4].

وعلى الرغم من الإشارة إلى دراساتOdile Leuen و Michèle Paugetا لا أنه طرحها جانبا لأنها تبنت الحجاج من منظور منطقي او فلسفي او بلاغي. والحال أن العزاوي يعتمد نظرية الحجاج في اللغة في دراساته لمختلف الظاهر اللغوية للغة العربية والأنماط الخطابية. من ثمة، يصدر الباحث عن قناعة أن هذه النظرية "قابلة للتطوير وأ،ه

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 103
(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 104
(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 104
(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 105

يمكن توسيع مجال تطبيقها ليشمل مختلف النصوص والخطابات الأدبية والفلسفية والسياسية والاشهارية والسينمائية والبصرية"[1].

- **من الحجاج اللغوي والحجة اللغوية إلى الحجاج الايقونية والحجة الايقونية**

من أجل دراسة حجاجية للمكونات الايقونية في الخطاب الاشهاري، يعمد العزاوي إلى إعادة النظر في تعريف الحجة، وبالتالي الحجاج عامة.هكذا، يبين الباحث أنه اذا كنا في المستوى اللغوي" نتحدث عن الحجج والنتائج باعتبارها عناصر دلالية، فالحجج قد تكون كلمات أو جملا أو فقرات بأكملها ولكن الذي يقدم باعتباره حجة هو عنصر دلالي ما، ولا تهمنا تحققاته وتمظهراته الشكلية والمادية التي تختلف من سياق لآخر ومن حالة لأخرى، فإننا هنا – يقصد الخطاب الاشهاري- في مستوى اعم تتعامل مع أشكال جديدة من التواصل (الكلامي، الايقوني، السلوكي...) تحتاج إلى توسيع التعريف الذي قدمناه لمفهوم الحجة، وبالتالي لمفهوم الحجاج حتى يشمل مختلف أنماط العملية التواصلية"[2].

- **نظرية الدلالة التصورية**

اعتمد ابوبكر العزاوي نظرية الدلالة التصورية عند جاكندوف الذي يذهب إلى أن البنية الدلالية جزء من البنيات التصورية، حيث يقول لن "البنيات الدلالية يمكن أن لا تكون إلا مجموعة داخل البنيات التصورية، وهي بالضبط البنيات التصورية القابلة لأن يعبر عنها كلاميا"[3]. ويؤكد الباحث أن جاكندوف وضع قيودا لمعنى العبارة اللغوية مشيرا الى القيد المعرفي. ويسلم هذا القيد - يوضح الباحث- بوجود "بنية تصورية انطلاقا من الملاحظة المزدوجة لقدرتنا على التعبير كلاميا عن دخل حواسي، وعلى تنفيذ الأوامر والتعليمات المنقولة إلينا كلاميا"[4]. في هذا السياق، ينقل العزاوي عن جاكندوف قوله بوجود "مستوى

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 105
(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 106
(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 106
(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 107

وحيد للتمثيل الذهني –وهو البنية التصورية-تكون فيه المعلومات اللسانية والحواسية والحركية متلائمة بشكل أفضل"[1].

ويخلص العزاوي إلى أنه في هذا المستوى، ستتم "معالجة كافة أشكال التواصل اللغوي والايقوني بطريقة موحدة وأدوات متماثلة.ففي البنية التصورية، ستحدث عن عناصر تصورية، هي التي تتم معالجتها في هذه البنية، أما العناصر الدلالية المرتبطة بالخطاب اللغوي او بالتواصل باللغات الطبيعية فهي جزء من هذه العناصر التصورية. ولهذا فإننا إذا كنا بصدد دراسة الخطاب البصري المكون من أيقونات (الأشياء، والألوان...) أو التواصل السلوكي، فان الحجج والنتائج تكون في هذا الإطار عبارة عن عناصر ايقونية أو سلوكية. وستكون في الوقت نفسه عناصر تصورية، وذلك في مستوى البنية التصورية. وتتفاعل هذه الأنماط من التواصل غير اللغوي مع التواصل اللغوي وتتكامل معه داخل العملية التواصلية الكبرى لتحقيق نفس الأهداف والغايات"[2].

- **التحليل الحجاجي للصورة الاشهارية**

ولإعمال هذه الفروض النظرية، قام العزاوي بتحليل نماذج من إشهار لبعض السجائر الأمريكية، حيث بين كيف أن المكونات الايقونية تشتمل على عناصر تصورية يتم تقديمها باعتبارها حججا وأدلة لصالح النتيجة المتوخاة والتي تكون من قبيل (هذا هو المنتج الذي تبحثون عنه) او (جودة المنتج).وهذا هو النمط الأول من الحجج وهناك النمط الآخر –وهو الأساس ويتمثل في خصائص المنتوج وميزاته، فمن خصائص هذه السيجارة او تلك نجد النكهة – المذاق – الجودة – الخفة، الخ"[3].

كما ابرز القيم الايجابية للعناصر الايقونية الموظفة في الصور حيث تقدم باعتبارها حججا وأدلة لصالح النتائج المقصودة. في هذا الإطار، أكد العزاوي أن "القيم الايجابية هي

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 107
(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 107
(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 107-108

عناصر ايقونية في مستوى الصورة، وهي عناصر تصورية في مستوى البنية التصورية لأنها ترتبط بالإدراك والتصور. وهذه البنية الأخيرة نعالج كل العناصر اللغوية وغير اللغوية"[1].

واعتمد نظرية الأطر (اعتبرها نظرية لسانية نفسية معرفية حديثة تهتم بضبط الآليات التي تتحكم في عملية إنتاج الكلام وفهمه)، في تحليله للصورة الاشهارية الأولى، حيث تبين له أنها "تقدم لنا إطارا دلاليا معرفيا احاليا معينا هو إطار أمريكا الدولة العظمى أولا، وهو إطار رعاة البقر ثانيا، ومكونات هذا للإطار هي: الطبيعة، القوة والمغامرة، رعاة البقر، الفروسية، أمريكا،...إلى غير ذلك"[2]. والملاحظ أن الصورة المذكورة تشكل نمطا أولا" لا يشتمل إلا على مكونات ايقونية فقط، ولا يتضمن أي مكون لغوي، والحجج والأدلة والنتائج ينبغي أن نبحث عنها في الايقونات"[3]. ويخلص العزاوي في تحليله إلى أن المكونات الايقونية في الصورة كافية لوحدها، وطبيعتها الحجاجية ظاهرة، ولا يمكن ان ننفي عن الصورة طابعها الحجاجي التاثيري الاقناعي، وإلا كانت الصورة غير منسجمة، وانتفت العلاقة الموجودة بين اسم السيجارة والايقونات الواردة في الصورة"[4].

غير أن الباحث عند انتقاله لتحليل الصورة الثانية، يطرح الإشكال التالي: "عندما تشتمل الصورة على مكونات ايقونية فقط (وربما مع اسم المنتوج) فهنا توظف الايقونات باعتبارها حججا، وستحدث بالتالي عن الحجاج الايقوني، لكن عندما تشتمل الصورة على جمل وأقوال توظف حجاجيا، وتتضمن في الوقت نفسه ايقونات عديدة (الاشياء)،فهل هناك -بالتالي- علاقة بين المكونات اللغوية والمكونات الايقونية من المنظور الحجاجي؟ وهل هناك -بالتالي- علاقة بين المكونات اللغوية والمكونات الايقونية من المنظور الحجاجي؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ وبعبارة أخرى: هل توظف هذه المكونات كلها حجاجيا وإذا كان الأمر كذلك فما العلاقة بين النمط الأول والنمط الثاني؟ وهل الأمر يتعلق بتوزيع تكاملي بمعنى

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 108
(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 109
(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 109
(4) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 109-110

أن المكونات اللغوية تكون لها وظيفة حجاجية والايقونات تكون لها وظائف أخرى (تأكيد، توضيح، تمثيل...)؟. إننا نعتقد أن هذين النوعين من المكونات (اللغوية والايقونية) يوظفان معا حجاجيا، وأن التكامل والتفاعل بينهما يهم الجوانب الإخبارية الإعلامية، كما يهم الجوانب الاقناعية الاستدلالية، إلا أن النص اللغوي يؤدي وظيفة أساسية تتمثل في تحديد الوجهة الحجاجية للخطاب، وتتمثل كذلك في تقييد وحصر الإمكانات التأويلية الدلالية والحجاجية. ويتم هذا التفاعل والتكامل بأشكال عديدة وفي مستويات مختلفة وتؤدي كلها إلى نتيجة واحدة ووحيدة"[1].

وهذا ما يوضحه العزاوي في تحليله للصورة الثالثة (اشهار سيجارة لاكي سترايك) والصورة الرابعة (إعلان اشهاري لسيجارة Dunhill).

- **كيفية معالجة العناصر الايقوينة في البنية التصورية**

انتقد العزاوي الموقف الذي تبنته الباحثة الفرنسية Odile LeGuern،حيث تعتبر فيه أن العناصر الايقونية يتم تحويلها من قبل المتلقي الى مجموعة من البنيات القضوية، وبالتالي لا بد أن يمر تحليل هذه الايقونات بمرحلة التأويل القضوي[2]. ويذهب الباحث الى أن لوغوين ترى انه "لا يمكن الاعتقاد بوجود وحدات مقابلة لكلمات اللغة في الصورة، وهي ترى أن العمل الحجاجي يرتبط بالدرجة الاولى بالتلقي. فهو الذي ينشئ البنيات القضوية. أما الدور الحجاجي لمرسل الرسالة البصرية فانه يتحدد في وضع قيود توجه التأويل القضوي للصورة من قبل المتلقي"[3].

من ثمة، يرفض العزاوي تبني هذا الموقف لأنه "يجعل الأمور أكثر تعقيدا مما هي عليه في الواقع،بحيث لا بد وأن يمر فهم الصورة وتحليلها، بل ومختلف الظواهر الايقونية عبر

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 111

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 115

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 115-116

التأويل القضوي"[1]. في هذا السياق،يتساءل الباحث:

- هل يمكن تعميم هذا على السلوك غير الكلامي وعلى الأنماط التواصلية الأخرى؛
- هل هناك ما يدعم هـذا في البحـوث والدراسـات المنجـزة في البيولوجيـا واللـسانيات وعلم النفس والعلوم المعرفية؟.

بناء على ما تقدم، يخلص العزاوي إلى تبني نوقف يعتبر "أن العناصر الايقونيـة تعـالج بها الوحدات اللغوية في البنية التصورية. فهذه البنية تعتبر المـستوى الوحيـد للتمثيـل الـذهني الذي تعالج فيه- وبشكل متماثل ومتلائم-كافـة المعلومـات اللـسانية والحركيـة والحواسـية. نعبر حواسيا عن دخل كلامي،ونعـبر كلاميـا عـن دخـل حواسـي ونعـبر حركيـا عـن دخـل حواسي او كلامي"[2].

من ثمة، لا فرق عند الباحث بـين الحجـاج الايقـوني والحجـاج اللغـوي، وبالتـالي دعوته لتعميم نموذج جاكندوف على كثير من الظواهر، فضلا عـن ايجـاد حلـول ومعالجـات أخرى انطلاقا من النظريات المعرفية الحديثة[3].

انطلاقا مـن كافـة الملاحظـات والتوضـيحات المفاهيميـة والمنهجيـة الـسابقة، يكـون أبوبكر العزاوي من الدارسين الأوائـل الـذين عملـوا علـى تطـوير نظريـة الحجـاج في اللغـة لتصبح نظرية للحجاج في الصورة، وذلك مـن خـلال تطبيـق النظريـة المعيـار علـى الـصورة الاشهارية او الظواهر الايقونية بشكل عام. وهذا ما فتح الباب أمام البحث العلمـي في مجـال الحجـاج الايقـوني لتعميـق وتـدقيق التـصور النظـري واليـات التحليـل لمختلـف التجليـات الايقونية في بعدها الحجاجي.

---

(1) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 116

(2) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 116-117

(3) ابوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص 117

7- خلاصة عامة:

عملنا في هذه المقالة على الوقوف على العناصر الأساسية المعتمدة في نظرية الحجاج في اللغة في دراسات أبوبكر العزاوي. كما رصدنا مفهوم الحجاج وتجلياته والفرضيات والمسلمات الأساسية لدراسة الحجاج في تلك الدراسات. من جهة أخرى، تم إبراز تجليات تطوير النظرية الحجاجية عند الباحث، سواء على الصعيد النظري، أو الصعيد التطبيقي على أنماط مختلفة من الخطابات، ولا سيما التحليل الحجاجي للخطاب الشعري والتحليل الحجاجي للخطاب الاشهاري الايقوني. وبذلك نكون قد ساهمنا بقدر يسير في التعريف ببعض أعمال الباحث واجتهاداته النظرية والتحليلية في مجال نظرية الحجاج في اللغة.

أهم المراجع المعتمدة في إعداد الدراسة

- أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2009؛
- أبوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2010؛
- أبو بكر العزاوي، اللغة والمنطق: مدخل نظري، طوب بريس، ط1، 2014؛
- أبوبكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ط1، 2016.

الاستلزامات الفكرية لكتاب اللغة والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي

ذ. سعيد بليماني
باحث من الرباط

يسعدني في هذا اليوم الدراسي أن أتقدم لقراءة إحدى كتب أستاذ جهبذ وعالم رصين في ميدان الدرس والبحث العلمي كما يسرني أيضا أن أعرض أمامكم خلاصة ما توصلت إليه من ملاحظات حول الدرس اللساني الحديث الذي يروده الأستاذ العزاوي في موضوع الحجاج. وحسبي أن معرفتي به أكدت أن سعة إطلاعه تعلو على مجايليه وتنبىء بعلم جديد، وعلم جديد ينضاف إلى الخزانة المغربية كالمنوني و بنشريفة وغيرهم.

إن الكتاب الذي أتقدم بقراءته في هذه الجلسة هو كتاب أطروحة تحيل على مصادر ومراجع تملأ فراغا في ميدان اللسانيات وبالأخص في ميدان الحجاج والمقام و الاستدلال والسياق إنه إضافة جديدة تشرف على عالم اللغويات من منظور جديد يهيىء أرضية قوية لإنتاج لغوي وحداثي تكتمل فيه صفات الموضوعية والرصانة العلمية المطلوبة والضبط اللازم لقواعد اللغة وقوانينها.

الحجاج واستلزاماته

يندرج الحديث عن الإستلزامات الفكرية لكتاب اللغة والحجاج في إطار تمييز المسكوت عنه أو ما لم يقل داخل النص بطريقة مباشرة، ولكن يفهم من خلال عدد من المؤشرات الدالة، ما يجعل من هده الأفكار المتفرعة عن النص جزءا من النص ذاته.إن أول ما يلاحظه القارئ أن هدا الكتاب يشكل نقطة تحول دالة في الدراسات اللغوية بالمغرب حيث أن التقعيد لأليات الحجاج وضبط القواعد المحددة له لم يعرف قوته الاستدلالية إلا من خلال البيانات و التمثيلات التي نجدها في طيات هدا الكتاب. ويتعلق الأمر بفهم جديد (أتى به الأستاذ العزاوي) للمصادر العربية والغربية المنصبة على هدا الموضوع ومن دلك لن

يبالغ المرء إدا قال أن صاحب الكتاب هو أحسن من تمثل ديكرو خير تمثل والمقصود أن عددا من الدراسات التي اهتمت بمدرسة ديكرو قدمت الخلاصات والترجمات اللازمة للنصوص والدراسات الخاصة بالحجاج لكنها لم تعرف استنبات هدا الأمر في البنية العربية سوى بأمثلة هي أيضا مترجمة. والحال أننا في كتاب العزواي نجد نوعا من الأصالة في تناول هدا الموضوع حيث اننا لا نجد نوعا من القسرية في استنبات قواعد الحجاج داخل اللغة العربية بل أننا نجد نوعا من التقابل المحمود بين الحجاج في الفكر الغربي عند ديكرو وغيره وما نجده في الكتب الثراتية التي تناولت هدا الموضوع. إن مدخر النص ينم عن تركيب جيد لموضوع الحجاج بحيث يفهم القارئ الرسالة الفكرية الموجهة إليه وهي ان للحجاج دورا شاملا في التقعيد للغة والفكر يمتد من الخاص إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي وأن هدا الأمر يرشح إلى مجمل القضايا الأخرى التي لم تدكر في الكتاب كقضايا الحداثة والثرات ومجمل المواضيع المرتبطة باللغة والفكر في الثرات العربي الإسلامي. ويظهر هدا الأمر جليا في تفحصنا لفصول الكتاب والتي تنم عن الشمولية والإحاطة بجل مكونات اللغة فالكاتب أقام الدليل القاطع على أن النظرية الحجاجية التي تعتمد في هدا الكتاب هي نظرية شاملة ومحيطة باللغة العربية سواء في المركب أو الجملة أو الخطاب بل أشمل من دلك تنطبق على اللغة كما تنطبق على سائر وسائل التواصل الأخرى كالصور وباقي الأيقونات التعبيرية الأخرى كالإشهار والسينما والرموز..الخ.

وهدا ما يميز النظرية الحجاجية عن سائر النظريات الأخرى سواء التركيبية أو الدلالية ورغم أن الكتاب لا يشير بالعبارة الصريحة إلى كون بحثه يندرج في الدراسات الدلالية التي تمتلك مقدمة واضحة ولجل مستويات تناول اللغة فهدا يفهم بالاستلزام وهو أن النظرية الحجاجية هي نظرية شاملة أقوى من النظريات التركيبية أو التداولية التي تستفيد من القواعد الحجاجية دون أن تدكرها أو تعتمدها لتخدم مقدمات نظرية أخرى إن كتاب الأستاذ العزاوي يقدم نظرية أصيلة تتميز بالوضوح و الدقة و الشمولية وتدرس الحجاج لجعله مادة أساسية ينتفع بها كرائز أساسي في جل التناولات والمقاربات الفكرية ويقيم الدليل على هده المقدمة والمقصود أيضا ان الكتاب لا يقوم بقطيعة مع التراث كما ادعى

بعض اللغويين أو اتجه إلى ترميم المقولات التراثية كمن يقوم بتزيين بيت قديم بإخراج نظرية قديمة في ثوب نظرية جديدة ولكن اعتمد بناء تركيبيا يوفر للقارئ فرصة التعرف على آليات الحجاج عن كتب مع تمثل جيد كلا النظريتين العربية والغربية. إن الملاحظة الأساسية التي يمكن أن نلاحظها وهي أن الكتاب تمكن من نسج الروابط الفكرية الدالة بين مختلف المواضيع الفكرية واللغوية بشكل دال سواء بين البلاغة والتداوليات أو المنطق إنه فتح جديد يضاف إلى البحوث اللغوية الحديثة. أضف إلى دلك أن المبادئ الأساسية لضمان السلامة الحجاجية في اللغة. ودالك بدراسة المؤشرات التي تجعل الإستدلال أو القيام بالعملية الإستدلالية بعيدا عن كل الشوائب وتجعله مقنعا خصوصا وأن النظرية الحجاجية في الكتاب تقيم تمييزا بينها وبين مفاهيم كالماصدق التي تعتبر أن المعنى الصدقي أو التمثيلي معنى أول واعتبار المعنى الإنجازي معنى ثانويا وهامشيا هده المفاهيم المرتبطة بالدلالة المنطقية و الدلالة الصورية حسم المؤلف في تميزها وبإبراز عدم واقعيتها وكذلك الأمر بالنسبة للنظريات اللاوصفية |التي لا تفيد في تقييد الحجاج وضبط قواعده. أو النظريات التي يسميها الكتاب بالنظريات الحجاجية الضعيفة والتي تقلل من دور المفاهيم الحجاجية في تفسير التوزيعات اللغوية مثل التسوير والإستقطاب وغيرهما كما عمل الكاتب على طرح مجموعة من التميزات الأساسية لفهم النظرية الحجاجية كالتميز بين المعنى الحجاجي والمعنى الإخباري حيث بين المؤلف أثر هذا التمييز في الفكر العربي القديم ما يعني أن المقابلة بين المفاهيم التراثية والمفاهيم الغربية الحداثية وأحسن المؤلف في التوليف بينها بشكل يعز نظيره في باقي التناولات المعاصرة فضلا عن ذلك فإن المؤلف لم يخف مصادره كما في عدد من الدراسات التي تدعي الإبداع دون أن يكون لها يد سوى في بعض التطبيقات الحرفية. وكمثال لدلك نجد المؤلف يقول (إن ديكرو لايتبنى هدا الجواب لأنه يقوم على التمييز بين معنى القول والقيمة القولية فنظرية الحجاج في اللغة ترفض هدا التمييز وترى أن معنى القول لا يمكن وصفه بتاتافي استقلال عن المقام والوظيفة القولية وبعبارة أخرى فالتداول أو المقام مؤشر له في كل أجزاء المعنى).

ان ما يتفرع عن هدا الاستشهاد هو ان المقام التداولي هوما يحدد البنية التركيبية

والدلالية وليس العكس وهدا حكم ارتئي انه يسري على كل النظريات اللسانية الأخرى سواء التي تعتمد التركيب كأساس نظري او التي تعتمد الدلالة كأساس فالكتاب بين أن الحجاج يتأسس من المقام.

ويكون أصلا تتفرع عنه البنية التركيبية والدلالية وزد على هدا ا فان التميز بين المعنى الإخباري والمعنى الحجاجي أساسه ربط المؤشر الحجاجي بالمقام وهدا يعبر عن موقف من النظرية اللسانية بصفة عامة والمقصود أن هناك عبارات داخل الكتاب تحيل على حوار لغوي يطول في الزمن لكن المؤلف يشير فقط ويدلي برأيه بالدليل الوارد والوجيه دون أن يطيل ويسهب، فقد يمر القارئ للكتاب على فقرة دون أن يتبين أنها تحيل على أقوال وترد وتحاجج دون أن يكون لها تسمية موجهة إلى نظرية معينة أو شخص معين ربما أن المؤلف يمارس نوعا من المرونة حتى لا يصدم خصومه المفترضين لغويا. أو كقوله كذلك (وهدا كله يبين أن المعنى الحجاجي مكون أساسي وانه هو الذي يحكم اشتغال الأقوال داخل الخطاب) فهده الجملة كافية لتحدد لنا أن الكتاب هو مشروع نظرية لغوية حديثة ناشئة وجامعة لمختلف الكمالات الفكرية لما سبقها من النظريات اللغوية سواء التراثية او الغربية. من دلك قوله (كل الأمثلة السابقة تبين تعارض المعنى الإخباري والمعنى الحجاجي ولكن الذي يعتمد في بناء الخطاب وتوالي الأقوال وتسلسل الجمل هو القيمة الحجاجية التي للقول فهي التي توجه الخطاب وتحدد المسار الذي ينبغي أن يسير فيه.) وقد التزم المؤلف بكتابته بهده القيمة الحجاجية حيث أن ترتب الفصول يخضع لمنطق حجاجي في الفصل الثاني مثلا يتحدث عن الروابط الحجاجية و هي في الحقيقة تمثيل لبروز الحجاج من خلال روابط كحتى ولكن وبل ولاسيما ولأن وإذ وإذن..الخ. فهي تخضع في وقوعها داخل الجملة لعوامل الحجاج والمقام الذي يحدد معنى الجملة بالدرجة الأولى. فقد انتقل المؤلف من الحديث عن القيمة الحجاجية إلى الحديث عن العلاقات الحجاجية والتي هي إما علاقة شرطية أو علاقة تبريرية أو علاقة تفسيرية. وهو انتقال ساهم في تنوير القارئ على بعض جوانب النظرية الحجاجية في اللغة كما ساهم في الإحاطة بجل جوانبها.

الحجاج والاستعارة

إلى جانب دلك عمل التسلسل الحجاجي لفصول الكتاب إلى تناول مسألة أساسية في اللغة والفكر بصفة عامة. وهي مسألة الاستعارة لدرجة يجوز فيها جعله العنوان الرئيسي لهدا البحث وقد نعلم أن الاستعارة هي محور العلوم الإنسانية بصفة عامة وتقاس قوة الفكر و الأطاريح بمدى معرفة امتداداتها في تناول هدا الموضوع وقد يلاحظ القارئ أن تناول الاستعارة يتميز بالفرادة في هدا الكتاب إذ التناول الحجاجي لهدا الموضوع يمنح نفسا جديدا للنظرية التي تؤسس موضوعه الأصلي وسبب ذلك أن عددا من الموضوعات المصاحبة كالقياس والالتباس والشرح بالإضافة إلى الإسهام في دراسة الاستعارة في تجرد عن العلوم الكلاسيكية للبلاغة والبيان اللفظي فقد أحدث الكتاب وجهة جديدة في التناول والدراسة ويعزز هدا نوع العلاقة التي يمكن ربطها بين الاستعارة و القوة الحجاجية أو الاستعارة والإبطال أو العلاقة بين الاستعارة الحجاجية والاستعارة البديعية دلك وكما يقول المؤلف أن الاستعارة الحجاجية تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية والاستعارة الحجاجية هي النوع الاكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية. أما الاستعارة غير الحجاجية فتكون مقصودة لذاتها ولا ترتبط بالمتكلمين وبمقاصدهم وأهدافهم الحجاجية.

إن كتاب الأستاذ العزاوي يشكل وقفة حقيقية للإطلاع على المحاور الفكرية الرئيسية التي تؤسس للفكر الحجاجي ويشكل مصدر غنى للمكتبة المغربية والعربية بتقسيماته المنهجية وإشاراته الدالة على أمهات المصادر والمراجع في الاستدلال والحجاج سواء العربية أو الغربية. وإن كان يغلب على الكتاب طابع الإيجاز إلا أنه إيجاز محمود لا يثقل على القارئ وأظن أن الأستاذ قادر على كتابة مئات الصفحات حول ديكرو وأنه تقصد الإيجاز رأفة بالقارئ أو بحثا عن الأورد في الرسالة الفكرية التي يروم تبليغها.

الحجاج والإشهار

د. محمد هبصي

باحث من البيضاء

المقدمة: مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي

يتضح من خلال تتبع المسار الفكري للدكتور أبى بكر العزاوي أن كتابه المعنون بالخطاب والحجاج هو امتداد وتطوير لكتابه السابق "اللغة والحجاج"، وحلقة جديدة من سلسلة المؤلفات التي تعهد الكاتب بإصدارها في موضوع الحجاج بشكل عام والحجاج اللغوي بشكل خاص.

سعى الأستاذ إلى بناء مشروع علمي يستلهم مادته من النظرية التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (O.DUCROT) منذ سنة 1973، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤادها: "أننا نتكلم عامة بقصد التأثير".

وفي هذا السياق أكد الكاتب في مختلف مؤلفاته على أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية (Intrinséque) وظيفة حجاجية، أي أن هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها. وأكد أيضا أن الحجاج نجده في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص، ويهدف الكاتب من خلال هذا الكتاب إلى الانطلاقة من مسلمة مفادها أن كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لنص، ومن خطاب لخطاب، ومنها الخطابات البصرية والصور الإشهارية، التي لا تتضمن أي مكون لغوي وحجاجي، وهي تشتمل على ما يسمى بالحجاج الأيقوني، ويبرر هذا الموقف بأن الحجاج يكون متى يكون التواصل والعكس صحيح، وهو مبدأ يؤكد

عليه الكاتب في قوله: لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل، اللغوي وغير اللغوي

القسم الأول: حجاجية الخطاب الإشهاري

إذا كانت دراسة الحجاج في دراسات وأعمال سابقة للأستاذ تنتمي إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة ومنطق الخطاب (Logique du dixours)، أي تسعى إلى اكتشاف القواعد الداخلية للخطاب والمتحكمة في تسلسل الأقوال والجمل وتتابعها بشكل متنام وتدريجي، والحجاج، حسب هذا التصور، يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، فإن الأستاذ يسعى في الفصل الرابع من هذا الكتاب إلى القيام بتحليل حجاجي لنماذج من الصورة الإشهارية. ويهدف من وراء ذلك إلى طرح أسئلة جديدة بخصوص دراسة الصورة الاشهارية أو الصورة بصفة عامة، والوقوف عند مجموعة من القضايا من أبرزها مفهوم الحجاج – البنية الداخلية للصورة – الخلفية المعرفية للصورة – المزاوجة بين المكونات اللغوية والمكونات الايقونية ....إلخ. والربط بين الجوانب المعرفية التصويرية للصورة وجوانبها الحجاجية الإقناعية، بحيث اعتمد الكاتب في الجانب الأول على ما قدمه جاكندوف (Jackendoff) بخصوص البنية التصورية، واعتمد في الجانب الثاني نظرية "الحجاج في اللغة" (L argumentation dans la langue)، وغاية الأستاذ من هذا الاعتماد هو طرح أسئلة جديدة واعتماد مصطلحات ومفاهيم أخرى في مقاربة الصورة الاشهارية وإن كانت الدراسات السابقة تقتضي اللسانيات البنيوية أو السيولوجيا أو البلاغة التقليدية أو الحديثة كإطار مرجعي، مثل العلاقة الاعتباطية- الخطية- بالغة الصورة – التعيين والإيحاء- المستوي الجدلي- التمفصل المزدوج إلخ، أي إن الإطار المرجعي كان هو اللسانيات البنيوية أ و السيميولوجيا.

لقد نوع الأستاذ من المنتوجات الاشهارية ووزعها بين ما يتعلق بالمنتوج الغذائي وما يتعلق بالمنتوج الترفيهي وما هو خاص بالنظافة، وقبل إبراز خاصية كل منتوج يمكن وضع الأسئلة التالية:

هل هناك حجاج في الصورة الإشهارية؟
وما هي أهم مظاهره؟
وهل المكونات الأيقونية لها طبيعة حجاجية؟
وهل يمكن أن ندرس الخطاب البصري (Visuel) بالمنهج الذي ندرس الخطاب اللغوي؟

ينطلق الأستاذ من التصور العام والشائع للحجاج هو أنه نشاط خطابي لغوي، يتمثل في التأليف بين مجموعة من القضايا تهدف كلها إلى إثبات صحة قضية أخيرة تقدم باعتبارها نتيجة لهذه المتوالية الاستدلالية. لكننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر أن للصورة سلطة إقناعية استغلت بشكل كبير في حضارة تتجه نحو الاستغناء عن الكتابة، وتفضل عليها أشكالا تعبيرية أخرى قادرة على خلق استجابة أكثر سرعة، ومشغلة بميكانيزمات اللاوعي بشكل عميق، ثم إن التعرف على واقع هذه السلطة الإقناعية يدفعنا إلى دراسة الإمكانيات الحجاجية للصورة ولاشتغالها. ووجود هذه الإمكانات لا يشك فيها أحد، ولو أنه لم يظفر لحد الآن بدارسة نسقية.

يعتقد الأستاذ أن نظرية الحجاج في اللغة قابلة للتطوير، وأنه يمكن توسيع مجال تطبيقها ليشمل مختلف النصوص والخطابات الأدبية والفلسفية والسياسية والإشهارية والسيميائية والبصرية. وبما أن الأستاذ يميز عادة في الخطاب – أي خطاب – بين ثلاثة مستويات:

مستوى معرفي ذهني (Cognitif)

مستوى أداتي.

مستوي سوسيوثقافي.

فإن هذا التمييز ينطبق على الخطاب البصري، وعلى الصورة الإشهارية أو السينمائية، وهو ما يدفع إلى التفكير في دراسة الجوانب الحجاجية لهذه الأنماط الخطابية الأخيرة، وللمكونات الأيقونية بشكل خاص.

ولكن إذا كنا في المستوي اللغوي نتحدث عن الحجج والنتائج باعتبارها عناصر دلالية، فالحجج قد تكون كلمات أو جملا أو فقرات بأكملها، ولكن الذي يقدم باعتباره حجة هو عنصر دلالي ما، ولا تهمنا تحققاته وتمظهراته الشكلية والمادية التي تختلف من سياق لآخر ومن حالة لأخرى، فإننا هنا في مستوي أعم نتعامل مع أشكال عديدة من التواصل (الكلامي، الأيقوني، السلوكي...) نحتاج إلى توسيع التعريف الذي قدمناه لمفهوم الحجة، وبالتالي لمفهوم الحجاج حتى يشمل مختلف أنماط العملية التواصلية.

فالتواصل قد يكون لغويا أو غير لغوي، والحجاج يكون هو الآخر بوسائل لغوية وأخرى غير لغوية. وفي هذا المجال يوسع الأستاذ قولة الأستاذ طه عبد الرحمان ما نصها: "لا تواصل باللسان من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل باللسان" إلى قولة مفادها: لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل"، فيكون الحجاج مرتبطا بكافة أشكال التواصل.

ومن أجل هذا التعديل والتوسيع المطلوب سيعتمد الأستاذ نظرية الدلالة التصويرية كما هي عند جاكندوف، وبالضبط في كتابه (Sémantics and Cognition) المنشور سنة 1983، والذي يذهب فيه إلى أن البنية الدلالية هي البنية التصورية، وذلك في إطار الجدل القائم حول علاقة المعنى بالتصور، وبشكل أدق فإن البيات الدلالية هي جزء من البنيات التصورية (Conceptuelles) ففي هذا المستوى ستتم معالجة كافة أشكال التواصل اللغوي والأيقوي بطريقة موحدة وأدوات متماثلة. ففي البنية التصورية سنتحدث عن عناصر تصورية، هي التي تتم معالجتها في هذه البنية، أما العناصر الدلالية المرتبطة بالخطاب اللغوي أو بالتواصل باللغات الطبيعية فهي جزء من هذه العناصر التصورية. ولهذا فإننا إذا كنا بصدد دراسة الخطاب البصري المكون من أيقونات (الأشياء، الألوان...) أو التواصل السلوكي (Non verbal)، فإن الحجج والنتائج ستكون في نفس الوقت عناصر تصورية. وتتفاعل هذه الأنماط من التواصل غير اللغوي مع التواصل اللغوي وتتكامل معه داخل العملية التواصلية الكبرى لتحقيق نفس الأهداف والغايات المتوخاة.

ورغم أن للصورة قيم سلبية فإن الأستاذ يؤكد على توظيف القيم الايجابية، لأنها عناصر أيقونية في مستوى الصورة، وهي أيضا عناصر تصورية في مستوي البنية التصورية، بحيث ترتبط بالإدراك والتصور. وفي هذه البنية الأخيرة تعالج كل العناصر اللغوية وغير اللغوية.

لو طرحنا السؤال بخصوص هذه الصورة الإشهارية: أين هي مظاهر الحجاج في الصورة المعتمدة، وأين هي وسائل التأثير والإقناع؟

رغم أن العادة جرت بربط الحجاج باللغة والخطاب، بحيث تجد صور إشهارية بدون أقوال ولا جمل، وإنما هناك الصورة بتداعياتها وإيحاءاتها، وما تستدعيه في مخيلتنا وذاكرتنا، أي في خلفيتنا المعرفية. وفي هذه الحالة اعتمد الأستاذ نظرية الأطر (Frame theory) وهي نظرية لسانية نفسية معرفية حديثة تهتم بضبط الآليات التي تتحكم في عملية إنتاج الكلام وفهمه، وبه أمكن القول أن هذه الصورة تقدم لنا إطارا دلاليا معرفيا إحاليا معينا.

وتشكل الصورة الأولى النمط الأول من الصورة الإشهارية الذي لا يشتمل إلا على مكون لغوي. والحجج والأدلة والنتائج ينبغي أن تبحث عنها هنا في الأيقونات.

والمكونات الأيقونية في هذه الصورة كافية لوحدها، وطبيعتها الحجاجية ظاهرة، ولا يمكن أن ننفي عن الصورة طابعها الحجاجي التأثيري الإقناعي وإلا كانت الصورة غير منسجمة.

إن القيم الإيجابية للمكونات الأيقونية هي التي توظف باعتبارها حججا ولغايات حجاجية استدلالية، فلحجج ليست حججا ثابتة مستقرة، وليست حججا بذاتها وطبيعتها ولكن السياق التصوري المعرفي أولا، والحجاجي الاستدلالي ثانيا، هو الذي يكسبها طابعها الحجاجي، وبعبارة أخري فقد تكون حججا وأدلة تخدم غاية محددة ونتيجة معينة في هذا السياق، ولا تكون كذلك في سياق آخر.

أما عن الصورة الإشهارية التي تتوزع بين الخطاب اللغوي والخطاب الأيقوني فقد عالجها الأستاذ من منظور التوزيع التكاملي، بمعنى أن المكونات اللغوية تكون لها وظيفة حجاجية والأيقونات تكون لها وظائف أخرى ، تكون من باب الأكيد أو التوضيح أو

التمثيل أو غير ذلك، كما يعتقد الأستاذ أن هذين النوعين من المكونات (اللغوية والأيقونية) يوظفان معا حجاجيا، وأن التكامل والتفاعل بينهما يهم الجوانب الإخبارية الإعلامية كما يهم الجوانب الإقناعية الاستدلالية، إلا أن النص اللغوي يؤدي وظيفة أساسية تتمثل في تحديد الوجهة الحجاجية للخطاب، وتتمثل كذلك في تقييد وحصر الإمكانات التأويلية والدلالية والحجاجية. ويتم هذا التفاعل والتكامل بأشكال عديدة وفي مستويات مختلفة وتؤدي كلها إلى نتيجة واحدة ووحيدة.

كما أشار الأستاذ في هذا الصدد إلى أن الربط بين الحجة والنتائج، داخل العلاقة الحجاجية، لابد له من ضامن، وهذا الضامن هو ما أسماه ديكرو "المبادئ الحجاجية" على غرار مبادئ ومسلمات الاستدلال المنطقي، وهذه المبادئ – خلافا للمسلمات المنطقية ذات الطبيعة الحتمية والمطلقة – تتصف بكونها عامة ونسبية وتدريجية، وهي عبارة عن قواعد عامة تجعل العمليات الحجاجية ممكنة.

ختم الأستاذ دراسته في هذا الكتاب بالكيفية التي تتم بها معالجة العناصر الأيقونية في البنية التصورية وإمكانية ترجمتها إلى عناصر دلالية، بحيث اعتمد في ذلك على الموقف الذي تبنته الباحثة الفرنسية (Odile Le Guern): وهو أن العناصر الأيقونية يتم تحويلها من قبل المتلقي إلى مجموعة من البنيات القضوية، أي أن تحليل هذه الأيقونات ودراستها لا بد وأن يمر بمرحلة التأويل القضوي (Interprétation Propositionnelle)، لأن الصورة تمثل بشكل تركيبي، لمجموعة من الأشياء ومجموعة من المحمولات التي لا تنفصل عنها في التمثيل البصري. ولتلقي صورة ما، فإنه من الضروري القيام بنشاط تحليلي تفكيكي يتم بواسطته التميز والفصل بين الموضوعات ومحمولاتها وصفاتها. وترى هذه الباحثة حسب تصور الأستاذ أن العمل الحجاجي يرتبط بالدرجة الأولى بالمتلقي، فهو الذي ينشئ البنيات القضوية، أما الدور الحجاجي لمرسل الرسالة البصرية فإنه يتحدد في وضع قيود توجه التأويل القضوي للصورة من قبل المتلقي.

ويتبنى الأستاذ الموقف الذي يتمثل في أن العناصر الأيقونية تعالج بالطريقة نفسها التي تعالج بها الوحدات اللغوية في البنية التصورية، فهذه البنية تعتبر المستوى الوحيد

للتمثيل الذهني الذي تعالج فيه كافة المعلومات اللسانية والحركية والحواسية (Linguistiques , Mortices et sensorielles)، فالإنسان يعبر حواسيا عن دخل كلامي، ويعبر كلاميا عن دخل حواسي، ويعبر أيضا حركيا عن دخل حواسي أو كلامي، فلا فرق بين الحجاج الأيقوني والحجاج اللغوي ولو تعددت الأمثلة في هذا المجال.

وخلاصة القول من هذا الكتاب أن الأستاذ سعى إلى إبراز بعض الجوانب الحجاجية للصورة الإشهارية، سواء منها النمط المشتمل غلى المكونات الأيقونية فقط، أو النمط الذي تتم فيه المزاوجة بين العناصر اللغوية والعناصر الأيقونية، وقد تم التركيز في هذا الإطار على النقط التالية:

- الحجاجية الأيقونية.
- مظاهر التفاعل والتكامل بين النص اللغوي والمكونات الأيقونية.

وأكد الأستاذ علي أنه تبني نظرية لسانية حديثة هي نظرية "الحجاج في اللغة" وهي سابقة في دراسة وتحليل الصورة الإشهارية أو الظواهر الأيقونية بشكل عام.

لائحة المراجع

- العزاوي، أبوبكر: (2004)، **الحوار والحجاج وتدبير الاختلاف والتربية على حقوق الإنسان**، مجلة عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.
- " : (2006)، **اللغة والحجاج**، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.
- " : (2007)، **الخطاب والحجاج**، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.
- ":(2010)، **حوار حول الحجاج**، الأحمدية للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء

اللغة والحجاج

قراءة في كتاب "اللغة والحجاج" للدكتور أبي بكر العزاوي

د. زكرياء السرتي

باحث في اللسانيات وتحليل الخطاب المغرب

تقديم:

يعد كتاب "اللغة والحجاج"[*] للدكتور أبي بكر العزاوي مجهودا إضافيا نوعيا في مجال الأبحاث والدراسات اللسانية الحديثة التي تستهدف الإحاطة بأسرار اللغات الطبيعية، ومكوناتها الصوتية والتركيبية والدلالية والتداولية... ويتمثل هذا المجهود النوعي في تقديم رؤية نظرية جديدة إلى المتلقي العربي الذي لم يتعرف بشكل واف على مبحث الحجاج بوصفه خاصية وآلية محورية في الخطاب الطبيعي، بجميع أصنافه ومستوياته.

ولما كان الدكتور العزاوي[1] باحثا مجدا، اقترن اسمه بمجال التداول والحجاج، ونشر العديد من الدراسات القيمة، وشارك في ندوات متخصصة وطنيا ودوليا، فإننا سننصرف إلى التعرف على أسس وملامح مشروعه العلمي، من خلال تقديم قراءة في فصول كتابه: اللغة والحجاج، مع الإلماع إلى الآفاق التي يرنو إليها بصر اجتهاده.

1. نظريات الحجاج:

اهتمت اللسانيات والفلسفة وعلوم الإعلام والتواصل وغيرها بالحجاج، و«أصبح موضوعا لانشغال نظري كما هو الحال بالنسبة إلى المنطق والتواصل والإقناع. فقد بنيت كل نظريات الحجاج في ارتباط مع الاستدلال والمنطق. بعضها تم تكوينه على هامش المنطق أو في تعارض معه، وبعضها قادته رغبة توسيعه، أما بعضها الآخر فتكون ضمن منظور عقلانية

(*) صدر الكتاب عن العمدة في الطبع، الطبعة الأولى، سنة 2006، الدار البيضاء.

(1) أستاذ التعليم العالي بجامعة السلطان المولى سليمان، رئيس الجمعية المغربية لتكامل العلوم.

rationalité غير مهتمة به indifférente. هكذا تم تعريف الحجة غالبا بالمقارنة مع الاستدلال الصوري أو البرهنة، ودائما بالاستناد إلى العقلانية rationalité عموما»[1].

وكما ارتبط الحجاج بالاستدلال والمنطق، ارتبطت الأبحاث الحجاجية بمجال البلاغة والفلسفة، الأمر الذي جعل الفعالية الحجاجية ميدانا لتنافس طائفة من العلوم والتخصصات، فتطورت نظريات متنافسة جميعها يدعي امتلاك الأحقية في دراسة الخطاب الطبيعي من منظور حجاجي. يقول الأستاذ العزاوي موضحا الفروق القائمة بين تلك النظريات الحجاجية[2]:

«بخصوص النظريات الحجاجية: هناك نظريات حجاجية عديدة، بعضها ينتمي إلى البلاغة وبعضها ينتمي إلى المنطق أو المنطق الطبيعي، وهناك من عالج الحجاج من منظور لساني، ويمكن أن نعرف – ولو بإيجاز – بثلاث نظريات أساسية في هذا المجال، لكل من برلمان وجان بليزغريز وأزفالد ديكرو بالشكل الآتي:

يتمثل الحجاج بالنسبة إلى برلمان (C.Perelman) في مجموعة من التقنيات الخطابية الموجهة إلى إقناع المتلقي أو الرأي العام. وهو إن كان يلح على ضرورة التمييز بين البرهنة والحجاج، فإنه يعتبر البرهنة شكلا من أشكال الحجاج، إلا أنها تختلف عنه من حيث إنها تركز على جانب واحد هو الجانب الصوري الاستنتاجي. فإذا كانت البرهنة يمكن أن تقدم على شكل حساب، فإن الحجاج يهدف إلى الإقناع والتأثير والاتفاق، ولا يمكن تصوره إلا في إطار نفسي اجتماعي .

أما جان بليزغريز فينظر إلى الحجاج باعتباره نشاطا منطقيا خطابيا، إنه نشاط خطابي لأن الأمر يتعلق بتفكير كلامي؛ أي أن الوسيلة المستعملة للتواصل هي اللغة، وهو نشاط منطقي لأنه يتمثل في مجموعة من العمليات الذهنية، ولأنه ينتمي بالتالي إلى ما يعرف بالمنطق الطبيعي، إن الحجاج – بالنسبة إلى غريز – هو مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية لمتكلم

---

(1) 1 -Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, p :3-5, Paris : La Découverte,2000. Repères :292.

(2) من المنطق إلى الحجاج، حوار مع الأستاذ أبي بكر العزاوي، مجلة فكر ونقد ع61.

ما، يتوجه بخطابه إلى مستمع معين، من أجل تغيير الحكم الذي لديه عن وضع محدد. ويتأسس الحجاج عنده، انطلاقا من مفهوم الخطاطة التي هي أعم منه، فليس هناك إنتاج خطابي لا يؤدي إلى إنتاج خطاطات وتمثيلات عن العالم الآخر، ولكن ليست كل غاية خطابية حجاجية بالضرورة.

أما النموذج الذي اقترحه أزفالد ديكرو، فهو نظرية لسانية تدرس الحجاج في اللغة، باعتباره ظاهرة لغوية. الحجاج، بالنسبة إلى هذا اللغوي، فعل لغوي ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، ثم إنه مؤشر له في بنية اللغة فهناك أدوات وروابط وعبارات لغوية يتمثل دورها الوحيد أو الأساسي في القيام بالعمليات الحجاجية».

2. الخلفية النظرية: الحجاج اللغوي

وانطلاقا من الاقتناع العلمي الذي يميز الباحث اللساني في الاشتغال النظري، حدد العزاوي الخلفية النظرية لسائر دراساته وأبحاثه، منذ ما يزيد عن العقدين، فكانت نظرية الحجاج اللغوي هي الإطار الذي تندرج فيه وتتفاعل الأعمال التطبيقية التي أسدت للغة العربية خدمة جليلة مكنت من استكشاف جانب كبير من خصائصها ومميزاتها التركيبية والدلالية والتداولية.

إن هذه النظرية، التي صاغها اللساني الفرنسي أزفالد ديكرو بمعية ج. ك.أنسكومبر، تتأسس على منطلقات جوهرية أهمها:

ارتباط التكلم بالرغبة الأكيدة في التأثير والتوجيه والإقناع، بما يضمن تعديل مواقف المخاطب أو المتلقي.

الحجاج فعل لغوي ينضاف إلى جملة الأفعال اللغوية التي حددها فلاسفة اللغة العادية، أوستين وسورل...

البحث في الحجاج هو استكشاف لمنطق اللغات الطبيعية، أي دراسة الآليات والوسائل والإمكانات التي تتمتع بها تلك اللغات مقابل الإمكانات والآليات الصورية البرهانية التي تمتلكها اللغات الاصطناعية.

وانسجاما مع ذات السياق، اتخذ المؤلف هذا الإطار النظري لمشروعه العلمي، فكانت محاور المقاربة اللسانية التداولية لموضوع اللغة العربية وروابطها وظواهرها، تنهل من مفاهيم ومصطلحات نظرية الحجاج اللغوي، دون أن يقتصر الأمر على الاستعارة والاستضمار، بل امتد إلى التشغيل والتوظيف في سياق تحليل الأقوال والعبارات، ومعرفة الأدوار الحجاجية المسندة إلى الروابط والعوامل، وغيرها كما سنأتي على ذكره في الفقرات التالية.

لكن السؤال المحوري الذي يطالعنا هنا، هو: ما نوع المجهود النوعي الذي أتى به المؤلف؟ أو بعبارة أخرى، هل اكتفى بتبني الإطار النظري المذكور؟

الجواب هو أن الباحث تجاوز التبني الصريح إلى بسط مكونات هذه النظرية اللسانية، ومختلف منطلقاتها ومفاهيمها وآفاقها. فقد سعى، في البداية[1]، إلى تشريح مفهوم الحجاج الذي يلتبس على كثيرين إمكان تمييزه عن الاستدلال والبرهنة: «إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[2].

وفي السياق ذاته، ميز المؤلف بين الحجاج والاستدلال، لأنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين بإطلاق. «فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما، مستقلة بعضها عن بعض، بحيث إن كل قول منها يعبر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعا من أوضاع العالم، باعتباره وضعا واقعيا أو متخيلا. ولهذا فإن تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسسا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، أي على ما تقوله أو تفترضه بشأن العالم. أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب»[3].

---

(1) في الفصل الأول

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 16.

(3) نفسه، ص 17.

3. الجهاز المفاهيمي للحجاج اللغوي:

في ثنايا الفصل الأول، شرح المؤلف أهم المفاهيم اللسانية التي تقوم عليها، وتشغلها نظرية الحجاج اللغوي، ومن أبرزها الحجة والنتيجة. ولم يكتف ببيان دلالاتها الاصطلاحية، بل وقف على تطورها داخل الفضاء النظري الذي ولدت فيه؛ ذلك أنها كانت عبارة عن أقوال فقط، ثم تطورت واتسعت لتصير الحجة عنصرا دلاليا يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر. وهكذا أمكن أن تتمثل الحجة في قول أو فقرة أو نص، كما صح أن تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي أو غير هذا[1].

هذا التحديد النظري الحجاجي اللغوي يختلف عما نجده لدى تولمين الذي يرى أن الحجة «بصراحة هي تنسيق بين علة raison أو علل وقضية تسعى هذه العلل لإثباتها أو البرهنة عليها. ولهذا تمارس الحجة l'argument وظيفة تسويغية أساسية وتبقى وظائفها الأخرى الممكنة ثانوية وربما طفيلية parasitaires بالنسبة لتلك الوظيفة المسوغة justificatrice. وقد قادته (أي تولمين) خاصية تعدد أشكال الحجاج إلى إدماج مفهوم أساسي هو الحقل field حتى يتم تحليل انتماء الحجج إلى نمط منطقي خاص»[2].

ونحن يلزمنا التذكير بأن نظرية الحجاج اللغوي، إذ ترى اللغة الطبيعية متوفرة بشكل ذاتي وجوهري على إمكانات التأثير والإقناع، فهي في نفس الآن تنظر إلى أن كثيرا من العبارات والألفاظ والأدوات والروابط والعوامل تؤدي وظيفة حجاجية، خاصة حينما تعمل على التنسيق بين العناصر الدلالية، وإقامة علاقة حجاجية بموجبها يكون بعضها حججا، ويكون بعضها الآخر نتائج.

أما الحجاج البلاغي، سواء في النظريات الكلاسيكية (أرسطو مثلا) أو المعاصرة (بيرلمان وميشال مير وتولمين وغيرهم)، فإنه يرى الحجج عناصر خطابية محددة ومصنفة

---

(1) نفسه، ص 18.

(2) Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, p :57, -2 Paris : La Découverte,2000. Repères :292.

سلفا (حجج شبه منطقية، حجة السلطة..). وهكذا يميز بيرلمان بين أربع تقنيات حجاجية كبرى[1]:

1- الحجج الشبه منطقية quasi logiques المتمثلة في التضاد والتعريف والمقارنة والهوية والتعدية وقاعدة الإنصاف.

2- تقنيات الربط التي تجمع بين عناصر متمايزة، سواء الربط الموجود سلفا في الواقع،

3- أو الربط الذي يؤسس بنية الواقعي.

4- تقنيات التفكيك Dissociation التي تفصل بين العناصر التي تعد في الأصل جزءا من كل.

ولأن مجال هذه المقالة لا يسمح بمزيد تفصيل في أنماط الفروق بين المفاهيم اللغوية والبلاغية للحجج، فإننا سنتابع آراء المؤلف الذي عرض بعض السمات الخاصة بالحجج اللغوية، إذ هي سياقية (أي أن السياق هو الذي يصير عنصرا دلاليا ما حجة لصالح عنصر دلالي آخر هو النتيجة)، ونسبية (بمعنى أن لكل حجة قوة حجاجية معينة)، وقابلة للإبطال (نسبيتها تفتح الباب لإمكان إبطالها وتجاوزها).

ولعل هذا التفاوت البارز بين الحجج قوة وضعفا، هو ما يدفع إلى تبني مفهوم السلم الحجاجي الذي يعد علاقة ترتيبية للحجج، أو هو فئة حجاجية موجهة تخضع لقوانين محددة، منها قانون النفي وقانون الخفض وقانون القلب[2].

4. البعد الحجاجي للروابط في اللغة العربية:

ولما كان الحجاج خاصية جوهرية للغات الطبيعية، أي أنها تتوفر في بنياتها التركيبية والدلالية والصوتية والتداولية على إمكانات ووسائل تضمن توجيه الأقوال نحو مقاصد أو

(1) Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, p :41, -1 Paris : La Découverte,2000. Repères :292.

(2) اللغة والحجاج، 20-25.

نتائج محددة، فإن دراسة الروابط والعوامل تصبح منفذا ضروريا لتفعيل البناء النظري، ومن ثم تغذية الفرضيات بخلاصات ناتجة عن تطبيقات ومقارنات تخص لغة أو لغات معينة. وقد بين المؤلف، في حوار خاص، السياق العام لاهتمامه بالروابط والأدوات كما يلي[1]:

«أشير في البداية إلى أن المحور العام الناظم لأبحاثي ودراساتي بشكل عام - بالطبع هناك اهتمامات علمية وأدبية أخرى ولكنها تأتي في المرتبة الثانية - وهو دراسة الروابط الأدوات والحروف والظروف والعبارات اللغوية في اللغة العربية من منظور حجاجي ومن منظور معرفي. والذي دفعني بالطبع إلى الاهتمام بها أمران:

الأمر الأول: هو عرض أنجزته منذ زمن بعيد حول (حتى) في إطار الدروس التي كان يلقيها الأستاذ محمد خير الحلواني. وقد كان لقولة الفراء المشهورة (أموت وفي نفسي شيء من حتى) فعل السحر في نفسي، ونفس الأثر تركته هذه القولة في الأستاذ ديكرو لما اطلع عليها، إذ أثبتتها بنصها العربي وأثبتت ترجمتها في أول صفحة من أطروحتي للدكتوراه الفرنسية. فوقف عندها ديكور طويلا مؤكدا أنه يحاول أن يفعل الشيء نفسه مع Mais و Un peu /Peu التي درسها لمدة طويلة، وأنه لازال يبحث فيها، ويقلب النظر فيها مكتشفا في كل مرة خاصية لغوية جديدة أو فرقا دلاليا جديدا· وقد صرح أنه إنما يحاول أن يفعل شيئا من قبيل ما فعله الفراء، معبرا عن إعجابه بهذا اللغوي والبلاغي الكبير، وإعجابه بصبره وأناته، فهو ظل يدرس (حتى) طوال حياته وهاهو يحتضر، ولم يشف غليله ولم يصل الى مراده ولازال حائرا في أمرها، ولازال في نفسه شيء منها·

الأمر الثاني: هناك اهتمام عالمي بالأدوات والحروف والظروف، فهناك في أوروبا وأمريكا من يدرس هذه الأدوات تركيبيا في إطار النحو التوليدي أو إطار أنحاء أخرى، وهناك من يدرسها دلاليا وتداوليا، وهناك من يدرسها معرفيا، أي في إطار اللسانيات المعرفية. (...) ونقول بهذا الصدد: من عرف الجزء فقد عرف الكل، فدراساتي في مجال الحجاج ومنطق اللغة تعتمد بالدرجة الأولى على دراسة هذه الأدوات والروابط المنطقية الحجاجية (إذن، لاسيما، بل، لكن، حتى، لأن...). وفي مجال اللسانيات المعرفية، والدلالة

(1) جريدة بيان اليوم المغربية، 2-12-2006.

المعرفية بوجه خاص، فأنا أدرس الظروف والعبارات الفضائية من قبيل: (فوق/ تحت ـ أمام/ خلف ـ وراء...) التي لها علاقة بالفضاء والإدراك والمعرفة ووضع الجسم وغير ذلك. وقد أنجزت في هذا السياق مجموعة من المؤلفات بالعربية عن الحجاج ومنطق اللغة. وأنجزت أبحاثا ومؤلفات وترجمات في مجال دراسة الفضاء اللغوي، والدلالة المعرفية بوجه عام ستظهر قريبا إن شاء الله».

وبناء على هذا التوجه العام، خصص الفصل الثاني من "اللغة والحجاج" لدراسة بعض الروابط في اللغة العربية: بل ولكن وحتى. ولكيلا نغمط المؤلف حقه، فقد جاء الكتاب وافيا من حيث دقة الوصف الحجاجي الذي يتلاءم مع مفاهيم نظرية الحجاج اللغوي، وكذا من حيث إجراء المقارنات اللازمة التي يفرضها المجهود النحوي واللساني معا، الشيء الذي يثبت لهذا المشروع العلمي أصالته وحداثته[1]، إذ يتفاعل مع الأوصاف النحوية العربية مناقشة وتحليلا، وينزع إلى الجدة والتميز في نهاية البحث.

5. حجاجية الاستعارة:

في الفصل الثالث "الاستعارة والحجاج"، يستهل المؤلف قائلا[2]: «يهدف هذا العرض إلى تناول الاستعارة من منظور نظرية "الحجاج في اللغة". وقد انطلق من قراءة مقال ميشال لوغرن "الاستعارة والحجاج". وقد اعتمد فيه صاحبه أعمال برلمان إطارا نظريا ومنهجيا. والاستعارة تعد خاصية من أهم الخصائص الجوهرية للغات الطبيعية، مثلها في ذلك مثل الالتباس والقياس والشرح إلى غير ذلك».

وتقتضي مقاربة الاستعارة، من منظور حجاجي، معرفة صلتها بالقوة الحجاجية، من خلال عرض الأقوال والعبارات الاستعارية على السلم الحجاجي بوصفه علاقة ترتيبية للحجج، لأن هناك علاقة وثيقة بين مفهوم السلم الحجاجي ومفهوم القوة الحجاجية.

---

(1) إنها الملاحظة النبيهة للدكتور حسن مسكين من خلال تعليقه على الكتاب موضع الدراسة، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 8502.

(2) اللغة والحجاج، ص 100.

فالقول الذي يقع في أعلى درجات السلم هو الدليل الأقوى. ولبيان قوة الأقوال الاستعارية، يعرض المؤلف طائفة من الأمثلة كما يلي:

1- رأيت إنسانا جميل المحيا.

2- رأيت شمسا.

3- الوقت يمر بسرعة.

4- الوقت يطير.

هذه الأمثلة تكشف أن الأقوال الاستعارية تبدو أعلى حجاجيا من الأقوال العادية، وهو ما يعني «أن الاستعارة – في رأينا – تقوم بدور مماثل لدور بعض الروابط الحجاجية مثل "حتى". فالدليل الذي يرد عادة بعد هذا الرابط يكون أقوى حجاجيا وأعلى سلميا من الأدلة التي ترد قبله»[1]. والخلاصة التي انتهى إليها المؤلف هي أن الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري[2].

وفي محور ثان، تناول الباحث علاقة الاستعارة بالإبطال، خاصة حينما تجري المقارنة بين الأقوال والعبارات الاستعارية من جهة، والأقوال العادية من جهة ثانية، ويتم توظيف روابط التعارض الحجاجي مثل "لكن" و"بل". ولعل ما يميز القول الاستعاري، بهذا الصدد، هو أنه يأبى أن يجيء بعده رابط من تلك الروابط، أي أنه لا يقبل أن يرد في سياق الإبطال أو التعارض الحجاجي.

أما في المحور الثالث من الفصل المذكور، فنصادف تمييزا بين الاستعارة الحجاجية والاستعارة البديعية، على نحو تمييز عبد القاهر الجرجاني بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة، وتمييز كونراد بين الاستعارة اللغوية والجمالية. ويقصد أبو بكر العزاوي بالاستعارة

---

(1) اللغة والحجاج، ص103.

(2) نفسه، ص105.

الحجاجية تلك التي تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وتحقيق أهدافه الحجاجية. ولهذا، تعد الاستعارة الحجاجية النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية. فنحن نجدها في اللغة اليومية، وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية[1].

أما الاستعارة البديعية فإنها تكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين وبمقاصدهم وأهدافهم الحجاجية. وإنما نجد هذا النوع من الاستعارة عند بعض الأدباء والفنانين الذين يهدفون من ورائه إلى إظهار تمكنهم من اللغة، فالسياق هنا إذن هو سياق الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي وليس سياق التواصل والتخاطب[2].

ولا ننسى أن نشير إلى الاهتمام البالغ، عبر كل فصول الكتاب، بتقديم الأمثلة والشواهد من نصوص وخطابات متنوعة: قرآنية وشعرية ومثلية... ذلك أن التمثيل مزية تطبيقية لاختبار الكفايتين الوصفية والتفسيرية اللتين يستهدفهما البناء النظري عادة، وبالأخص نظرية الحجاج اللغوي التي تستند إلى القول بذاتية وجوهرية الحجاج في النشاط اللغوي الطبيعي.

6. الخطاب والقوة الحجاجية:

لئن كان اهتمام نظرية الحجاج اللغوي بالقدرة الإقناعية الكامنة في التخاطب الكلامي أمرا ظاهرا، فإنما يندرج ذلك الاهتمام في سياق دراسة الوظائف المتعددة للغات الطبيعية، والمفاضلة بينها كافة. ولا شك أن كثيرا من اللغويين والفلاسفة، وفلاسفة اللغة العادية على وجه الخصوص، وجهوا انتقادات كثيرة لهذا المنظور القائل بكون الوظيفة الإخبارية هي الوظيفة الرئيسة للغات الطبيعية. « فقد لاحظ هؤلاء أن طائفة كبيرة جدا من الأقوال لا تتمثل وظيفتها في الإخبار، ولا تصف أي واقع، ولا تخضع لمعيار الصدق والكذب، نذكر منها الأقوال الإنجازية والأقوال الملتبسة والأقوال التقييمية. فهذه العبارات

---

(1) نفسه، ص108.

(2) نفسه، ص109.

التي تبدو لنا وصفية في الظاهر هي لاوصفية، وهذا ما يجعل أوستين يستعمل مصطلح "الخداع الوصفي"»[1].

هكذا استعرض المؤلف نشأة الاتجاهين الوصفي واللاوصفي اللذين قدما تصورين متباينين حول الأقوال المستعملة في اللغة العادية، ومدى ارتباطها بمعياري الصدق والكذب. أما التصور التداولي للغة، كما نجده في أعمال أوستين وسورل وغرايس، فإنه يرفض أن تكون اللغة مجرد وسيلة لتمثيل الواقع أو الذهن، إنها جهاز يمكن من إنجاز أفعال من نمط معين مثل الأمر والوعد والنهي والتعجب والتهديد، وغيرها من الأفعال الكلامية.

ولمزيد التوضيح والبيان، عرض المؤلف مفهوم "الفعل اللغوي" وخصائصه وتصنيفاته (من خلال أعمال ديكرو وأوستين وسورل وموشلير)، ليميز علاقة القضية أو المحتوى القضوي بالقوة الإنجازية، ومن ثم التعرف على الطبيعة العميقة للأفعال اللغوية.

ولم يكن إبراز الهدف أو المقصد الإنجازي للغة، أو أفعال الكلام خاصة، بعيدا عن بيان السلطة والسلطان والقوة التي تتمتع بها. ذلك أن القوة الحجاجية مظهر لتلك السلطة التي يستند إليها المتكلمون بلغة من اللغات الطبيعية، ليمنحوا كلماتهم قوة تأثيرية مغيرة للواقع والأشياء.

7. مظاهر التجديد في المشروع العلمي:

يحق لنا أن نتساءل أخيرا عن الحلقات التي تؤسس المشروع العلمي للباحث الدكتور أبي بكر العزاوي، وهو الشغوف بإنجاز الأبحاث والدراسات المتعددة في مجال اللسانيات والتداول، وكذا في اللسانيات المعرفية. فبالإضافة إلى كتاب "اللغة والحجاج"، نجد مؤلفات ومقالات ودراسات متنوعة بعضها رأى النور، وبعضها الآخر ما يزال ينتظر الطبع، نذكر منها:

- ✓ "الحوار والحجاج والاختلاف"

(1) نفسه، ص114.

✓ "الخطاب والحجاج"

✓ "الفضاء في اللغة"

✓ Argumentation et Enonciation.

لكن السؤال الذي يتوارد علينا، ونحن أمام مشروع علمي قاعدته نظرية الحجاج اللغوي، يتعلق بمدى العلاقة التي ينسجها الباحث مع هذه النظرية. أهي التطبيق الحرفي للنظرية على اللغة العربية أم السعي إلى بلورتها وتطويرها؟

وقد جاء جواب المؤلف موضحا ومفصلا، في حوار علمي سابق، جوانب التجديد في هذا المشروع العلمي المفتوح على أبواب المستقبل عطاء وتفاعلا وتطويرا[1]:

1- «بالطبع، لا يمكن أن أكون نسخة ثانية من أزفالد ديكرو، ولا يمكن أن أكتفي بمجرد التطبيق الحرفي لما جاء به، فأنا أقرأ كل ما يكتبه هو أو ما يكتبه طلبته وأصدقاؤه والباحثون المتعاونون معه، وأستفيد منه، وعلي أن أضيف وأجدد وأطور، طبعا في حدود إمكانياتي المعرفية والعلمية، فلست صاحب نظرية، لكن يمكن للإنسان أن يساهم ببعض الاقتراحات والتعديلات والإضافات والتطويرات، يمكن أن يكون له دور في إحداث نوع من التجديد والتطوير». ففي الوقت الذي كان اهتمام الأستاذ ديكرو منصبا فقط على دراسة الروابط الحجاجية في اللغة الفرنسية، حاول المؤلف في أبحاثه وأعماله إبراز بعض خصائص الروابط الحجاجية العربية، مع ما هنالك من اختلافات بارزة بين الحالتين بالنظر طبعا إلى الاختلاف الموجود بين اللغات البشرية. ولقد كانت دراسته تلك للروابط الحجاجية العربية أول دراسة تم إنجازها بحسب شهادة كثير من الباحثين واللغويين المغاربة والمستشرقين من أمثال جيرار تروبو وجمال الدين كولوغلي وغيرهم (كان هذا في سنة 1984 وما بعدها).

2- «عملنا على تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها. فلم يعد مجال النظرية محصورا في دراسة العوامل والروابط والأدوات الحجاجية. ولا ينبغي أن يقف

---

[1] جريدة بيان اليوم المغربية، 2-12-2006.

التحليل عند حدود الجملة أو القول، بل ينبغي أن يشمل النصوص والخطابات بمختلف أنواعها رأي الخطابات الأدبية والصحفية والسياسية والإشهارية والاقتصادية والدينية والفلسفية وغيرها· فمجال الحجاج ـ كما قلنا في بحث سابق ـ إنما هو الحوار والخطاب حيث تظهر وجوه اشتغاله، وتتجلى طرائق وكيفيات استعماله· وهذا هو ما قمنا به في مجموعة من البحوث والدراسات المنشورة، والتي جمعنا بعضها في كتابنا الذي يحمل عنوان (الخطاب والحجاج)».

3- «عملنا كذلك على تطبيق نظرية الحجاج في اللغة على ظواهر جديدة لم يدرسها لا ديكرو ولا تلامذته· وأقصد هنا ظاهرة الاستعارة وأقصد أيضا ما أسميته بالحجاجية الأيقونية (L'argumentation iconique) والتي نجدها في مختلف أنماط الصور ونجدها بشكل خاص في الصورة الإشهارية، ويمكن أن أذكر ظواهر أخرى مثل الانسجام النصي وتعالق الروابط في إطار منطق النص أو منطق الخطاب والبرنامج الحجاجي».

4- «حاولنا في بعض الأبحاث أن نربط بين الجوانب الحجاجية للغة أو للخطاب والجوانب المعرفية التصورية».

الأكيد أن المؤلف، وهو يمدد اشتغال نظرية الحجاج اللغوي ليشمل الروابط والأدوات في اللغة العربية، ويتناول مستويات الإنجاز اللغوي سواء العادي منه أو المجازي الاستعاري، ويحلل النصوص والخطابات الدينية والشعرية والإشهارية والأيقونية وغيرها، فهو يظل حريصا على الدفع بالإشكالات الجوهرية للنظرية إلى أقصى مداها، والبحث عن آفاق جديدة يمكن ارتيادها واستكشافها.

الخطاب والحجاج

قراءة في المفاهيم والإجراءات

د. محمد أديوان

كلية الآداب الرباط

ليس من الجديد الكلام عن الحجاج في الدراسة اللغوية مادام هذا المبحث قد اتسم بكبير من الأهمية في الآونة الأخيرة في الدراسات اللسانية والبلاغية والمنطقية. بيد ان اهتمام هذه النواحي المعرفية بالحجاج بأنواعه البرهاني والاستدلالي واللغوي يختلف من جهة الى جهة بحيث يصعب الحديث عن توجه واحد يشمل سائر عينات الدراسة. بل كل فريق من الدارسين ينشغل بنوع خاص من البحث.

فالرياضيات ومنطق الحجاج البرهاني فيها لا علاقة له بالحجاج اللغوي المبني على الاحتمال والامكان لا الحتمية القاهرة.

فالحجاج اللغوي هو الذي يصادفنا في سائر الكلام اللغوي الذي يتعامل به البشر سواء في لغتهم العادية المباشرة أم في مراسيمهم الأدبية النثرية وتدبيجاتهم الشعرية. ونعثر على الحجاج أيضا في الخطاب الديني والتفاوض والرواية والمرافعة الحقوقية و المناظرة الفلسفية.

إن المبدأ الأول في أي كلام بين متكلمين هو تحقيق المطلب التواصلي، ولا يتحقق هذا الأخير إلا في إطار حجاجي. فكل المواقف التي نستعمل فيها اللغة بغرض تواصلي هي مواقف حجاجية تتطلب من المتلقي تأويلا للرسالة المبعوثة إليه عبر القناة اللغوية المؤطرة بالرغبة في التكلم ونية توصيل غرض معين إلى المتلقي.

يعتبر الحجاج أساسا من الأسس التداولية التي تسمح للخطاب بان ينتج الدلالات.

وهذا الإنتاج للدلالات المرافقة للسياق من عمل المقام التداولي الذي يؤطر الخطاب ويعتبر شارل موريس أحد مؤسسي التداوليات وهو الذي اتاح ترتيب المكونات و المستويات الضرورية لفهم أي لغة وأي نص لغوي، وهي:

أ- المكون التركيبي: وموضوعه بنية الجملة ودراسة العلاقات الداخلية التي تربط الكلمات او العلامات فيما بينها. وهذا المكون يسمح ايضا بتقديم وصف لقواعد التركيب السليم لنحو الجمل المكونة للنص.

ب- المكون الدلالي: ومهمته ضبط الاحالات و المراجع التي تحيل عليها العلامات سواء في عزلتها ام في تفاعلها الخارجي مع العالم وبذلك تتحدد علاقتها مع الحقيقة او الحقائق والوقائع.

وهذان المكونان يظلان مستويين مرتبطين بنظام اللغة من حيث هو نظام في حد ذاته و لا ينفتحان على نية المتكلم او المؤثرات المحيطة به والموجهة لخطابه.

ج- المكون التداولي البركماتي: ومهمته تأويل المحتويين التركيبي والدلالي السابقين في اطار علاقتهما مع المؤثرات الخارجية و النفسية الموجهة للخطاب.

وهذا ما تم التعبير عنه عند ريكناتي Recanati1979 ص 8. بقوله:

"أن التركيب والدلالة يدرسان اللغة من حيث هي لغة" أي بصفتها نظاما لقواعد تم الاصطلاح و التواضع بصددها، في حين ان التداوليات تدرسها من جهة أبعادها الخارجية. انها لا تدرس اللغة في حد ذاتها وإنما استعمالاتها".

ومما اهتمت به التداوليات مسألة الحجاج الذي حدده "بريلمان Perelman" في قوله: "مجموع التقنيات الخطابية التي تسمح باستمالة العقول وتوجيهها إلى الأطروحات التي ندافع عنها أو نعرضها أمامها".

وبصفة عامة فان الحجاج هو ممارسة تأثير على الآخرين انه شيء أساسي في اللغة مادامت وظيفة اللغة في الغالب هي إقناع الذين نخاطبهم.

إذا كان هذا شان الحجاج كآلية لغوية فان هذا الشأن قديم التاريخ وقدم الآلية اللغوية بحيث يصعب ان نتحدث عن قول ليس لصاحبه غرض في عرض وجهة نظره او حمل الآخرين على إتباع وجهة نظره.

ولقد تبين "مايير M.Meyer" أن الإقناع ليس سوى نتيجة للعلاقة بين المباشر والضمني اللذين يتم تحديدها بحسب الأخر المتلقي.

وهذا ما عبر عنه ديكرو Ducrot 1972 ص5 عندما اعتبر ان اللغة لا تكتفي بان تحمل لنا المعلومات المباشرة والمعاني الظاهرة وإنما هي تحمل إلينا المعاني الضمنية.

إذا كانت هذه هي وظيفة الحجاج في اللغة فان الحجاج في الأقوال المختلفة يكتسي طوابع متباينة بتباين خصوصيات هذه الأقوال وهنا تكمن اهمية الجهود التي ما فتئ الباحث اللساني أبو بكر العزاوي يبذلها من اجل بيان مكانة الحجاج في أنواع من الخطابات العربية كالخطاب القرآني والخطاب الشعري والخطاب الشعبي في المثل والخطاب الإشهاري والأيقوني.

كل هذه الخطابات مجالات للتواصل البشري وقيام الإنسان أو المتكلم به، ماعدا الخطاب ألقراني وهو الخطاب الإلهي الذي يتلون فيه الخطاب مع اختلاف المتكلمين الذين يردون في سياقات القصص والسور ذات الطبيعة الدعوية أو التربوية أو التاريخية.

ان شغف الباحث بهذه الخطابات المختلفة جعله يدبج دراسات دقيقة بها من التطبيقات ما يتيح للجاهل بأمور الحجاج معرفة متنوعة ولحظات ممارسة تحليل اوجه الحجاج بصورة تقرب القاصي وتذلل الصعاب أمام المبتدئين.

تتسم دراسات الباحث بجودة انتقاء الأمثلة المحللة ووضوح طريقته التعليمية التربوية. ونضرب لذلك مثال لتحليله لسورة الأعلى من القران الكريم فهو قد بدأ بتحديد المفاهيم الدقيقة الموجهة للتحليل ثم عرج على تناول مستويات الخطاب والحجاج في اطار العلاقات الفضائية والزمانية والمنطقية وحدد المؤشرات المنطقية والنحوية البانية للحجاج والباعثة على الاقناع. وفي كتاب "حوار حول الحجاج" العزاوي 2010 ص 89. يرد تعليل

ذلك في قول نسوقه هنا: "هناك مشاكل عديدة تعترض التحليل الحجاجي للنص منها كثرة الروابط والعوامل الحجاجية في بعض النصوص وغيابها في نصوص أخرى.

إن الحجاج يعتمد في المثل على الاستلزام الحواري الذي يعتبر إحدى الدعائم المؤسسة للمعنى التداولي لخطاب المثل. فالأمثال مجال لاستدعاء اقتضاءات بدونها لا يمكن للتواصل بالأمثال ان يتم. ولقد حاول الباحث في دراسة حول الخطاب المثلي ان يدعم وجهات نظره التطبيقية باعتماد الأنساق الحجاجية الشهيرة في ميدان الاستلزام المنطقي عند كانيو و كركمان و لكنه انتقده ولاحظ ان تجربة التحليل لخطاب المثل بواسطة الاستلزام المنطقي تجربة غير ناضجة وغير كاملة لأنه استلزام منطقي عند هؤلاء الدارسين. واعتبر الباحث المثل حجة جاهزة في الحجاج لا تحتاج الى ما يؤيدها في العملية التواصلية باعتباره حجة السلطة على حد تعبير الدارس.

لقد قدم الباحث لهذه الدراسات المختلفة بمقدمات أولية نعتبرها المقصد الحقيقي لما قام به من تعميق لقضايا الحجاج وذلك عندما تناول في كتابه "اللغة والحجاج" مجموعة من الموضوعات المرتبطة باللغة الطبيعية ومقوماتها التواصلية ومؤهلاتها الإقناعية، كما تناول في عروض مسبقة اشكالا من الروابط اللغوية والعوامل الحجاجية التي لها وظائف تداولية منها لكن وبل وحتى ولاسيما ولما واذن....الخ وهي روابط ذات طبيعة وظيفية حجاجية تمثل مؤشرات لغوية لتحقيق الاقناع.

منذ نشر جاكندوف كتابه "الدلالة والمعرفة سنة 1983" صارت البنيات الدلالية جزءا من البنيات التصورية بل هي ذاتها. ومن ثم انطلق الباحث العزاوي في دراساته يعتبر البنيات الدلالية بنيات تصورية فتغير لديه النتيجة. وإذا كان مفهوم الحجة وكذا مفهوم النتيجة قاصرا في تعريفات اللسانيين امثال ديكرو فإن العزاوي اختار الانحياز الى تعريف تصير فيه الحجة والنتيجة عنصرين تصوريين بحيث يتم تحليلهما في مستوى البنية التصورية structure conceptuelle .

ولعل الباحث هنا يكاد يعيد الاعتبار لمفهوم القصدية والنية في التعبير اللغوي بناء على اعتبار أن الحجة والنتيجة هما تصوران دلاليان يقودان الى التداول الحجاجي الذي يشكل أساس التواصل في كل نص وخطاب مهما كانت مرجعيته.

ان هذا التأمل المنهجي في مفهوم الحجة والنتيجة قاد العزاوي إلى تحليل حجاجي للقرآن والشعر والمثل. ويمكن ان نعتبر تحليله الحجاجي من الناحية الإجرائية قابلا للامتداد عبر النصوص اللغوية المختلفة وبذلك يكون التحليل الحجاجي اللغوي سندا للتحليل المنطقي والتحليل البلاغي المختلفان عنه في السبيل والمنهج والرؤية والمنطلق.

ان دراسة مبادئ الانسجام والورود في النصوص باب لتزكية هذا الطرح الحجاجي وملامسة أنماط إنتاجه الدلالي.

وللإضافة أقول هنا بان اقمن النصوص بالدراسة والتحليل الحجاجي النصوص الاقناعية ذات الطبيعة الفلسفية لان الفيلسوف مهما كان موقفه من العالم فهو يسعى إلى إقناع مخاطبيه واستمالة هواهم الذاتي وعقولهم المفكرة.

وان عمل الروابط النحوية و المنطقية الموجهة للدلالة في الخطاب الفلسفي أيضا صالحة لتكون مدخلا كافيا لتحليل وجهة نظر المؤلف الفيلسوف.

وبناء عليه فان تحليل نص ديكارت حول أهمية العقل سيكون حتما معتمدا على مقدار أهمية المؤشرات اللغوية الرابطية. " les connecteurs فهي المحددة لهندسة التصور الديكارتي لمفهوم العقل ووظائفه. فالنص الديكارتي صالح ليكون موضوعا لتحليل حجاجي يبني قوة الدلالة على أساس الفهم المؤول للآلية الحجاجية اللغوية الموجهة لحركة انسجام النص وبنيته التصورية.

إن أهمية النص الديكارتي كغيره من النصوص الفلسفية تنبع من إرادة قوية لتأسيس تصور أو تصورات دلالية ودلالات تصورية جديدة في الحقل المفاهيمي. ولذلك فالحاجة إلى اعمال التحليل الحجاجي اللغوي يعتبر في نظرنا حلا مثاليا لعدم السقوط في حرية التأويل الدلالي للقول الفلسفي.

فالتحليل الحجاجي صمام أمان للمحلل يقيه شر مهالك الطرق التأويلية المتحررة من قيود البرهنة او صناعة الحجة والنتيجة وكذا فهمها في الخطاب الفلسفي.

وما ذكرته هنا هو تذكير بنتائج توصلت اليها في دراسة مفصلة حول كتاب خطاب في المنهج. للفيلسوف العقلاني روني ديكارت حيث بينت كيف يشتغل التحليل الحجاجي لصالح فهم الموقف العقلاني لديكارت عبر دراسة تداولية لخطابه في كتابه المذكور أعلاه.

وليس هنا مسافة كافية لعرض لنتائج الدراسة و لتفاصيلها نظرا لما يتطلبه الأمر من الحيز في هذا المقال الخاص بالتذكير ببعض جهود أخينا الفاضل اللساني المنطقي أبو بكر العزاوي في حقل الحجاج اللغوي ولكننا عازمون على نشر الدراسة المشار اليها في القريب بإذن الله حتى تعم بها الفائدة و تنفتح بها أفاق الحوار.

ان لسانيات الخطاب والنظريات التداولية والسميائية، والبحث اللساني بصفة عامة سوف يستفيد من تطور البحوث في مجالات التحليل الحجاجي نظرا لكونه مجالا يبرز قوة الإنتاج الدلالي وآلية بناء التصورات الدلالية والدلالات التصورية على أساس من مراعاة مراسيم انسجام النص والخطاب بأنواعه المختلفة.

اذا جاز لنا ان نضع اعمال الباحث العزاوي في الميزان فإننا نلاحظ انه يميل الى الاعتراف بالاختلاف بصفته تفاعلا ايجابيا يتيح منصات لتفعيل الحجاج واستدبار القطعية في التحليل والنهائية في فهم الدلالات. فالفهم الحجاجي ليس نهائيا بل هو احتمالي ونسبي منبعثا من جهد تحليلي للقرائن والحجج مع ادراك للمقاصد والاستلزامات الحوارية التي لا علاقة لها بأي استلزام منطقي مهما يكن.

يتوق العزاوي الى جعل الحوار مبدا للتعايش والتقارب مع الاختلاف. وهو يستفيد هذا الموقف ويستمده من رؤية جان بليز كريز J.B Grize الذي يعتبر كل خطاب حوارا، سواء أ كان ظاهرا ام خفيا. فالاختلاف ضروري لتأسيس الحوار والحوار بوابة ضرورية للحجاج. وبهذا تكتمل الدائرة بين الاختلاف والحجاج.

وهذه نظرة تبناها المفكر طه عبد الرحمان عندما اعتبر في كتابه الحق العربي في الاختلاف الفلسفي بان كل كلام حوار وان الأصل في الحوار مبدأ الاختلاف.

وهذه فكرة تعيد بطريقة من الطرق الاعتبار لمبدأ المناظرة في الفكر الإسلامي حيث كان مبدأ الاختلاف بين الفرق والمذاهب وأصحاب النحل الباب الذي تدخل منه إلى إقامة الحجة وصناعتها وصناعة النتيجة أو النتائج المترتبة عنها.

إذا كان الحجاج قد ساق فلاسفة ولسانين من عصور مختلفة الى تناول مبادئ بناء التصورات الدلالية والدلالات التصورية في الخطابات المختلفة، فان إعمال ديكارت وبركلي وديكرو وبرلمان وموشلير وجاكندوف جان بليز كريز وطه عبد الرحمن وأبو بكر العزاوي وغيرهم من المحللين تعتبر من المحاولات المغنية للدرس الحجاجي والمشكلة لمراحل من تطور البحث التداولي اللساني اللغوي.

من هذا العرض لجهود الدارسين الحجاجيين فإنني سعيت الى الوقوف مليا عند بعض ملامح جهود الباحث اللساني أبو بكر العزاوي لبيان دورها في مجال الدرس الحجاجي المعاصر. مع انها كانت مرتبطة دوما بالتطبيقات المتجعة للسبل التعليمية والتربوية التي تساعد المبتدئين على تعلم الحجاج وتبين بعض مداخله الشائكة في لغة بسيطة ومنهج تعليمي واضح.

ذلك هو الباحث العزاوي الذي عرفته زهاء ربع قرن من الزمن في خلقه العلمي وبساطته المعهودة وصدقه في البحث والتنقيب.

التحليل الحجاجي للغة والخطاب المفاهيم - الأطر - الأبعاد
قراءة في مشروع د. أبو بكر العزاوي

د. حسن مسكين

1- من المنطق إلى الحجاج:

إذا كانت علاقة المنطق باللغة جلية وعميقة، لا يستطيع أحد أن ينكرها، فإن التأويلات التي ميزت كثيرا من الدراسات والمقاربات التي تناولتها قد جنحت إلى كثير من الخلط، خاصة حينما تم اختزال هذه العلاقة في مجرد بنية نسقية قبلية، حولتها من لغة طبيعية، لها منطقها الخاص، إلى نظريات رياضية تلغي كل تميز، تنفرد به اللغة الطبيعية، بحيث تصبح هذه الأخيرة فقط عبارة عن تمثيل منطقي، أو ترميز رياضي، صوري لبنيات وأنساق منطقية، مقدمة سلفا، محكومة بسمة الاختزال ومعيار القيمة والمفاضلة.

لقد راهن د. أبو بكر العزاوي في هذا المشروع على تجاوز تلك المقاربات المثقلة بالاختزال والمفاضلة والإسقاط، والتي تجرد اللغة من جوهرها (الطبيعي)، وتقديم مشروع يركز على (منطق اللغة) وليس (المنطق في اللغة) الذي شغِل به كثير من اللغويين والمناطقة وفلاسفة اللغة. وقد كان سند الباحث في ذلك نظرية (ديكرو) التي تؤكد على العلاقات اللغوية القابلة لأن توصف وصفا نسقيا تنمو من خلال الاتصال والانفصال، التقاطع والتغاير، مولدة بذلك أنماطا من الانسجام القولي والخطابي، المتسلسل والمتنامي الذي يفرض بدوره مراعاة خاصة لاسيما للنفي والشرط والروابط التي تميز الحجاج اللغوي عن الحجاج المنطقي.

إن هذا التوجيه يحدد صفة المنطق الذي يحكم اللغة الطبيعية من حيث الوظائف التي تميزها، وهي عديدة ومتنوعة: (مرجعية، إفهامية، تفسيرية، تحسينية، ومنطقية واستدلالية...).

إن هذه الصفات والخصائص والوظائف المميزة للغة الطبيعية تمنح إمكانية تحليلها من زوايا عديدة، ومن ضمنها تلك القائمة على مبادئ الصدق والكذب والمقدمات والنتائج

والحجة والبرهنة. لكن هذه الصفات والمبادئ لم تغر اللسانيين فقط؛ بل شكلت موضوع دراسة وتحليل من لدن المناطقة الذين أفادوا واستفادوا من أبحاث غيرهم، فأصبح الحديث عن (الأنساق الصورية والنمذجة والترميز والنسقية) سواء في صيغتها اللغوية أو المنطقية، الصورية، الرياضية. غير أن إقرار الباحث د. العزاوي بهذا التقاطع الناتج عن هذه العلاقة (منطق – لغة) لا يعني تماثلهما، بل إن لكل منهما خصائصه وسماته المتميزة، النابعة من الاختلاف البنيوي العميق بين ما هو لغوي، طبيعي وما هو لغوي صوري، صناعي، إن في جانب الأنساق المكونة لكل واحد منهما أو الطبيعة التي تميز مكوناتهما، أو أدوات اشتغالهما أو وظائفهما.

إن هذا التنوع في المقاربات بين المناطقة واللسانيين وعلماء النفس قد أفرز في النهاية غنى في النتائج وتنوعا في النماذج الساعية إلى تحليل أعمق وأدق للغة الطبيعية: فمن مقاربة (لايكوف) القائمة على تحليل الأنساق والعلاقات المنطقية المتحكمة في اللغة الطبيعية وعالمها الدلالي الذي تفرزه، إلى مشروع (لورنزن) المستند إلى الأنساق الجدلية الحجاجية، المتحكمة في دلالات الحوارات والخطابات بعيدا عن مفهوم الصدق والكذب الذي تشبث به (لايكوف)، إلى مشروع (غريز) القائم على (الإنجازات والتمثلات الذهنية) وما يتولد عنهما من أقوال خطابية يحكمها منطق خاص. وهذه المقاربة الأخيرة هي التي اعتمدها. د. العزاوي وحاول تطويرها في مشروعه الحجاجي، منطلقا في البداية من بيان تلك الفروق الجوهرية بين ما هو صوري، صناعي وما هو لغوي، طبيعي، بحيث إذا كانت الأولى (خطية الدلالة، جلية المقصد)، فإن اللغات الطبيعية (إيحائية، رمزية)، تتسم بالتنوع والتعدد والمفارقة والتعارض المنتج، أوجزها المؤلف في مجموعة من المسلمات هي: مسلمة الحوار – مسلمة المركب الثقافي القبلي – مسلمة السياق- مسلمة إنشاء الموضوع.

لا يتوانى المؤلف في تحديد عناصر اشتغاله، وتوضيح المفاهيم التي أقام عليها مشروعه العلمي في الحجاج، فهو يعمد في كل إنجاز إلى تبيين تلك الفروق الدقيقة بين الحجاج والبرهنة، إذ رغم العلاقات القائمة بينهما في العديد من العناصر والمقولات، فإن الفروق موجودة وعميقة، أبرزها يكمن في خاصية (الاحتمال) المميزة للحجاج اللغوي عن

(البرهنة) التي مجالها اللغات الصناعية التي تؤكد النتائج المنطقية الصارمة، البعيدة عن (الاحتمال)، إذ العلاقة القائمة بين المقدمات والنتائج هي بالضرورة علاقة (استلزام) منطقي لا أثر فيها للتخمين أو الاحتمال أو التوقع الذي هو سمة من سمات الحجاج اللغوي، إضافة إلى خاصية التنوع من الحجاجي إلى البرهاني فالصوري فالاستنتاجي فالاستقرائي فالاستنباطي فالتمثيلي، على أن ذلك يرتبط بطبيعة وأدوات الاشتغال في اللغتين: (الطبيعية) و(الصناعية). وبناء على هذا التمايز، فإن الحجاج خطابي، أما البرهان فمنطقي رياضي.

واعتبارا للمعطيات السالفة الذكر، فإن الحجاج الذي يحكم مشروع د. العزاوي هو القائم على نظرية الأفعال المبنية بدورها على إنجاز تسلسلات خطابية لها قيمة استنتاجية، القصد منها (التأثير والإقناع) أو (التوجيه)، من خلال مقومات وأدوات وروابط ومقدمات تنتهي إلى نتائج ليست بالضرورة حجاجية،برهانية خالصة كما هو الحال في البرهان المنطقي؛ بل إنها تخضع للنسبية والاحتمال القائم في بنية اللغة الطبيعية ذاتها.

2- التحليل الحجاجي للخطاب: المفهوم والإطار:

حرصا على مبدأ النسقية والانسجام، تابع الباحث توسيع المفاهيم التي شكلت منطلقات أساسية في كتابه الأول: (اللغة والحجاج)، وذلك من خلال تحليل نماذج أخرى، لكن بالتركيز على عناصر تحمل في بنيتها اللغوية مستويات حجاجية عميقة ودالة، مثل (الأقوال، الجمل، الوظائف، الأصوات، المعجم، التركيب، الدلالة والتداول) هذا الأخير الذي لم يحض حسب المؤلف بالعناية التي يستحق في الدراسات السابقة، مع أنه المجال الأوسع والأعمق الذي يجسد روح الحجاج. فإذا كان هذا الأخير يعد من أبرز الوظائف الحاسمة في اللغة، فإن تجلياته لا تحد في خطاب واحد، بل تشمل جميع الخطابات مهما تكن طبيعتها وأيا كانت مرجعياتها ومقاصدها: (أدبية، قانونية، سياسية علمية، تجارية، اقتصادية..).

فما هي - إذن- أهم المنطلقات التي بنى عليها الباحث هذا المشروع؟ وما هي أهم المفاهيم التي استند إليها في ذلك؟ وأين تتجلى حجاجية الخطاب الذي شكل موضوع

المشروع؟ وما مستوياته الظاهرة والخفية ؟

انطلق الباحث من تصور يقر بأن الخطابات القائمة على أساس لغوي كلها حجاجية، وإن كانت مستويات ودرجات هذا الحجاج تتمايز حسب المبادئ والمقولات الأدوات والمقدمات ودرجات الانسجام الذي يسمح بالحديث عن (قوانين) داخلية تحكم اللغة والخطاب وتؤدي إلى توليد استنتاجات خاصة بكل إنجاز لغوي أو خطابي، يفضي بدوره في النهاية إلى منطق الخطاب الذي هو الهدف الأكبر في هذا المشروع.

لقد دأب الباحث كما هي عادته – في تأطير عمله بمجموعة من التوضيحات الهامة والدقيقة، تفاديا لأي تأويل خاطئ، منطلقا من ملاحظات أربعة صدر بها مشروعه في البحث عن حجاجية الخطاب، كاشفا عن مبادئ أساسية منهجية تتسم بالنمذجة والتحليل والاقتصاد والدقة والمقصدية، وهي مبادئ علمية حضرت بوضوح في هذا المشروع. وقد برز ذلك جليا أيضا في تحليل خطاب جليل القدر، عظيم الشأن، إنه الخطاب القرآني الذي حظي بتحليل دقيق، تطلب من الباحث مداخل منهجية مؤطرة توضح السياق الاجتهادي الذي ورد فيه، والقائم على تعيين وتحليل مكامن الحجاج وطرق اشتغاله مقارنة بخطابات أخرى أدبية، سياسية، تاريخية وإشهارية وفي إخضاع هذا الكل في تنوعه واختلافه وخصوبته إلى محك ا لاختبار من خلال تشغيل أدوات التحليل الحجاجي التي لم تحض في السابق بالتوظيف الدقيق والعميق مقارنة بالكثرة الوافرة من الدراسات الفكرية والتاريخية والفنية التي حضيت بها خطابات أخرى لدى كثير من الباحثين المختصين في تحليل الخطاب.

3- الخطاب: من التواصل إلى الحجاج:

لا يخلو أي خطاب من الوظيفة الحجاجية التي تنمو من خلال نوع العلاقات التي تنسجها الروابط وتصلها بوظائف أخرى فنية وتحسينية وبلاغية وتعليمية وتواصلية وإيديولوجية، غير أن هذه الوظيفة الحجاجية تبدو جلية في خطابات معينة أكثر من غيرها، تبعا لنوع ونمط المتواليات والأقوال والجمل والمقدمات والحجج والعلاقات المنطقية والدلالية التي يبني بها المرسل خطابه بغرض التأثير والإقناع وتوجيه المتلقي نحو النتيجة المرجوة من

خلال علاقات (سببية أو شرطية أو استلزامية أو تعارضية) وذلك حسب خاصية (الهيمنة) التي توجه الخطاب، والتي تتعمق وتتوسع وتتجدر بفضل عناصر ومقومات أخرى داعمة مثل (السياق التخاطبي ومقام التخاطب، بل والسياق العام) الذي يتشكل فيه الخطاب ويعمل على توجيه مساره نحو وجهة إخبارية أو تحسينية أو حجاجية، بحيث يجعل من هذه الأخيرة الموجه الأكبر والمتحكم الأبرز في باقي الوظائف الأخرى التي تتوارى إلى مستويات أدنى مقارنة بالوظيفة الحجاجية التي تظل حاضرة في سائر الخطابات حتى تلك التي لا تجعل هذه الوظيفة من أولى أولوياتها من حيث الأهداف. غير أن حضور هذه الوظيفة يبقى مع كل ذلك خاضعا لنوع من السلمية والنسبية التي تنقص أو تتضاعف، تتقوى أو تضمر حسب درجة ومستوى حضور العناصر والمقومات والمقولات السالفة الذكر. وليس أدل على ذلك من حضورها القوي في الخطاب القرآني الذي تمثله في هذا المشروع (سورة الأعلى)، هذه الأخيرة التي تضمنت حسب الباحث ثلاثة مقاطع أساسية، أبرزها المقطع الأول الذي اشتمل في بدايته النتيجة الكبرى للسورة، وهي قوله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ التي هي غاية الخالق تعالى في إقناع عباده بالتوحيد والعمل بما تضمنه خطابه من أوامر ونواه لأجل سعادتهم. وهذا ما تطلب حججا وأدلة تؤدي إلى هذه الغاية (النتيجة) من قبيل الحجج الآتية: (الخلق، التسوية، الهداية، الإخراج من المرعى، الإحالة إلى الغثاء والأحوى).

إن الحجاج في هذه السورة ذو وجهة أحادية، منسجمة لا تعارض فيها، وإن كان يمكن أن تصاغ صياغات متنوعة، حسب نوع الرابط الذي يحكمها (لأن، أن- إن -إذا - إذن) إضافة إلى الرابط (الذي) الحاضر بقوة لتأكيد خاصية الربط ونسج العلاقات القائمة في هذه السورة والتي تنوعت حسب الصياغات الواردة في النمذجة المقدمة للعلاقات التي تصل بالنتيجة والأدلة والحجج التي ثلتها بما هو تحليلي، تفسيري:

سبح اسم ربك الأعلى ← (لأنه) هو الذي خلق + فسوى

← (لأنه) قدر + فهدى.

وبما هو استنتاجي← (بما أن) ربك هو الذي خلق + فسوى + وقدر + فهدى

إلى ما هو استدلالي + تبريري ← (بما أن) ربك هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى

← تسبح باسم ربك (إذ) هو الذي = خلق + فسوى + وقدر + فهدى

وإذ كان المقطع الأول من السورة محكوما بعلاقة إقامة الدلائل والحجج على النتيجة الأساس، وهي ضرورة أن يسبح المخاطب لله تعالى (الأعلى والخالق، المسوي، المقدر، الهادي..)، فإن المقطع الثاني قائم على علاقة (التدليل) عن الكيفية والطريقة التي ستتم بها عملية (التسبيح) و(العبادة)، حيث تتوالى الدلائل ذات العلاقة (التفسيرية العلية)، الكفيلة بتمكين النبي (ص) من أداء الرسالة بنوع من التيسير المبني على (المعرفة) و(التمكين) من الله تعالى، والتذكير والنفع التام (للمتمسك)، مقابل الخلود في النار (للغافل)، (الشقي)، (المعرض) عن هذه الذكرى.

غير أن هذا المسار (الخطي) سرعان ما سيتحول في المقطع الثالث من السورة، من منظور التعارض، حيث الحجج الواردة بهد هذه الأدلة: (تؤثرون الحياة الدنيا). (والآخرة خير وأبقى) – (إن هذا لفي الصحف الأولى) – (صحف إبراهيم وموسى) هي أقوى وأعمق وأدق، لأنها استعملت حججا تعارضية، تعمق وتوضح وتقارن بين طريقين وإنجازين، أحدهما سلبي والآخر إيجابي. وستتم الإشارة في النهاية إلى أنه رغم الأدلة والحجج الواضحة والبينة، ورغم تذكير الرسول (ص) بهذه الحجج والأدلة، فإن الإنسان يؤثر الحياة التي هي (دنيا، طارئة، زائلة، فانية وعاجلة)، عن الآخرة التي هي (الأخير والأبقى والأمتع)، ليس فقط لأن هناك حججا دامغة وأداة قوية ذكرها الحق تعالى في بداية السورة أي (الخلق، التسوية، التقدير، الهداية، العلم بالسر والعلانية، التيسير...)؛ بل لأن ذلك مبتوت ومثبت أيضا في الصحف الأولى (صحف إبراهيم وموسى). وكأنها هنا نهاية إنكارية تتضمن كثيرا من التعجب كحال هذا الإنسان المنكر لكل برهان.

يعالج الباحث أيضا في هذا المشروع[1] أحد أبرز وأهم الخطابات التي برع فيها العرب وهو الشعر. فإذا كان الخطاب الشعري القديم والحديث قد حضي بالاهتمام الأكبر تأريخا وتحليلا ودراسة ونقدا؛ فإن اللافت في أساليب ومناهج هذه الدراسات أنها جنحت

---

[1] انظر : كتابه : الخطاب والحجاج : الفصل الثاني :دارالرحاب الحديثة – بيروت – 2010 .

إما إلى الوصف والتأريخ والانطباع، وإما إلى تجريب أدوات ومناهج مسمدة من البنيوية كما أفرزتها النظريات الغربية، مما نتج عنه في كثير من الأحيان نوع من الإسقاط أو التأويل المغرق في التجريد والتعمية التي تذهب رونق وروح الخطاب ذاته، التي تنبع من لغته ورؤى أصحابه.

ولعل هذا الجانب بالذات هو الذي بحث فيه د. أبو بكر العزاوي، لكن من منظور تحليل حجاجي يجمع بين الدقة والعمق والمرونة في آن. إذ رغم أن الباحث يقر بأن أصول نظريته الحجاجية مستمدة من النظرية اللسانية (نظرية ديكرو) [1] أساسا،إلا أنه يراعي خصوصية الموضوع، ويقارن وينتقد ويعدل ويضيف حسب ما يفرضه التحليل، سواء في جانب العنوان أو المعجم أو الحوار أو الصور أو الانسجام أو غيرها من العناصر الخطابية، متجاوزا بذلك التصور الحجاجي الذي يكتفي بالوقوف فقط عند الروابط والأدوات والأقوال والجمل، ويهمل مستوى الخطاب الذي تتجسد فيه أهم الإنجازات الحجاجية بشكل أوسع وأعمق.

لقد استدل الباحث في توضيح مقصده من تحليل الشعر حجاجيا، من خلال عقد مقارنات وتمييزات تبرز الأسس التي انطلق منها -كما هو أسلوبه – في كل فصل أو مبحث، بحيث نجده قد انتقد التصورات التي تقيم تعارضا بين الشعر والحجاج بدعوى ارتباط هذا الأخير (بالذات والأهواء، والمشاعر)، في حين يتصل الحجاج (بالإقناع والبرهنة). وقد أكد الباحث بالمقابل أن الحجاج والشعر يشتركان في الإقناع والتخييل، "لأن أي نص شعري أو أدبي تكون له، إلى جانب الوظيفة الشعرية، وظائف أخرى مثل الوظيفة الانفعالية والوظيفة التوجيهية الإقناعية، والتي يعبر عنها بالتعجب والندبة والاستغاثة والأمر والنداء أو بأسماء الأفعال والروابط التداولية الحجاجية. إن النص الشعري ليس لعبا بالألفاظ فقط، وليس نقل

---

(1) انظر لمزيد من التفصيل:

- L`argumentation dans la langue : Anscombre et Dicrot (1983).
- Les échelles argumentatives : O. Ducrot (1980).
- Le dire et le dit : ● Ducrot (1984)
- Les mots du discours : O. Ducrot (1980)
- Délalogique à l`argumentation : J.B : Grize (1982)
-Logique naturelle et communications ; J.B. Grize (1996).

تجربة فردية ذاتية فحسب، إنه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه"[1].

غير أن الباحث نبه إلى ضرورة التميز داخل هذه العلاقة بين نمطين من الحجاج:

1- الحجاج القائم على تقنيات بلاغية ومنطقية وأصولية وكلامية، مستمدة من البلاغتين: القديمة والحديثة، والمنطق الطبيعي وفلسفة العلوم وأصول الفقه وعلم الكلام.

2- وبين نمط الحجاج اللغوي، القائم على أسس لغوية قائمة في بنية الأسماء والأفعال والصفات والظروف والحروف والأدوات والتراكيب والصور البلاغية، بل والرؤيوية أيضا، مما يدفع عن هذا النمط من الحجاج اللغوي صفة البهرجة والزينة واللعب اللفظي والبديعي، البعيد كليا عن عمق الحجاج، لأنه يفتقر إلى مقومات الحجاج اللغوي، مثل التواصل والتفاعل والمقاصد والسياق والتداول والإحساس، ودقة المقصد. هذا عكس ما نجده في قصيدة (العلة) للشاعر العراقي أحمد مطر (1987) حيث إن صدق إحساسه وعمق تجربته، إضافة إلى المقومات الفنية والتأثيرية التي استخدمها، جعلت منها قصيدة حجاجية متميزة. فالعنوان (العلة) يشكل حسب هذا المنظور (مرضا) يمكن أن يؤول من جهة تأويلا (ماديا) ومن جهة أخرى تأويلا (معنويا)، إلا أنهما في العمق يحيلان إلى تفسير واحد، مادامت العلاقة القائمة بينهما تندرج في سياق علاقة الخاص بالعام أو المثال بالنموذج.

فالمرض يتطلب من يكشفه لكي يعالجه ويشفيه وهذا أمر موكول للطبيب. كما أن المرض الذي يحيل إلى المجتمع (غياب الحرية، هيمنة الاستبداد، تفشي الطغيان...) يتطلب بدوره علاجا خاصا وحاسما وشاملا. إذن نحن أمام (أسباب) عديدة و(نتيجة) واحدة، متماثلة، رغم تنوع المظاهر والتجليات والصفات.

نلاحظ هنا أهمية العنوان الذي اختاره الشاعر والذي شكل علامة بارزة، وعنصرا

---

(1) الخطاب والحجاج : د. أبو بكر العزاوي : ص 35- مرجع سابق.

Linguistics and natural logic : G. Lakoff (1970).

لافتا، جعل الباحث د. العزاوي يوليه عناية خاصة وأهمية بالغة، تندرج في سياق الأهمية التي أولتها النظريات اللسانية للعنوان باعتباره إطارا موجها وضابطا وبانيا (لانسجام) الخطاب لأنه المحور الذي يتولد ويتنامى منه هذا الأخير، إذ يعد حسب د. محمد مفتاح بمثابة الرأس للجسد والأساس الذي يبنى عليه[1].

إن هذه العلة تختزل وضعا مثقلا بالأزمات والأعطاب والجراح وكافة أشكال الضعف الذي يتطلب معالجة شاملة ودقيقة، ولعل استحضار السياق والشروط التي نسج فيها الشاعر هذه القصيدة عبر تمثلات (نظرية الإطار) التي تسمح باستحضار أوضاع المتكلم والمخاطب والسياق والذاكرة وما تختزنه من معرفة ورصيد من الأفكار سيفيد في تفسير كثير من الأسباب التي دعت الشاعر إلى اختيار هذا العنوان المشحون بدلالات عميقة.

العنوان إذن حجة أو دليل على نتيجة عامة تتمثل في فساد مجتمع: أفرادا ومؤسسات، مما يستدعي حلولا تقضي بعلاج الأسباب أي العلل القائمة والجلية والمستشرية.

كما أن التكرار الموظف بشكل ذكي قد ساهم هو الآخر في ضمان انسجام النص، بعيدا عن الرتابة. وقد شمل هذا التكرار: الكلمات والمقاطع والروابط، مثل (لكن)، (بل) امتد إلى (المواقف) أيضا، مما ولد (علاقات حجاجية) قائمة على التسلسل والربط والتوالد الذي ينتج معنى عميقا أو يشيد دلالاة جديدة. ثم إن الباحث انتهى إلى أن قصيدة (العلة) من نوع الخطاب المعلم (marqué) لأنها اشتملت على روابط وأدوات وعوامل حجاجية، صاغ بها الشاعر نسيج علاقات القصيدة بناء وأفكارا، مدعومة بإشارات وعلامات موجهة تحد الوجهة التي يبتغيها من الخطاب حجاجيا، خاصة إذا علمنا أن (الحوار) يعد أبرز وأهم أشكال التفاعل اللفظي والحجاجي بين المتخاطبين. وما كثرة الأسئلة ونوعيتها، وطبيعة الأجوبة وصيغها، سوى دليل على هذا البعد الشعري والحجاجي لهذا الخطاب.

ولقد ساعدت الأفعال المختارة بدقة في ضمان صفة (القوة الحجاجية) للقصيدة:

الأمر: (سلطة):

---

(1) تحليل الخطاب الشعري : د. محمد مفتاح : ص 123 – ط 1 – المركز الثقافي العربي – البيضاء 1985.

خذ نفسا = أنت مرهق.

أنت مرهق ← خذ نفسا.

أو فعل الاستفهام:

م تشتكي؟ غير أن الاستفهام هنا ليس نحويا، بقدر ما هو حجاجي، لأن الهدف منه ليس معرفة صدق الخبر من كذبه؛ بل إنه خاضع لسياق خاص خطابي يتصل بالرابط (لكن الذي يخدم نتيجة مؤداها: (أستطيع التعبير عما أحسن به + والبوح بما أشتكي منه: هو إذن جواب غير إخباري).

إن هذه النهاية ما كانت لتتخذ هذا المنحى المتميز لولى هذا الحضور المكثف أيضا للأداة (لكن) التداولية الحجاجية. المتجاوزة لخاصية الربط النحوي لتحقق بذلك خاصية حجاجية يسري فعلها في شتى مقاطع القصيدة. وقد نجح الباحث في تأكيد الدور الحجاجي المتميز للأداة (لكن) حين صاغ العلاقات مجتمعة صياغة لغوية، شبه صورية على هذا النحو:

[أريد أن............. ولكن أخاف أن...................]

والتي يمكن أن نملئها بتعبيرات تتأرجح بين (الرغبة) و (الرهبة).

أريد أن ← لكن → أخاف أن.

↓ ↓ ↓

رغبة ← رابط حجاجي → رهبة

↓ ↓ ↓

حرية ← (انسجام) → منع.

إضافة إلى ما حققته هذه الروابط من انسجام منتج، خاصة الأداة (لكن)، فإن هناك أيضا توظيفا عميقا ورمزيا وحجاجيا (للاستعارة) التي برزت بشكل لافت ومثير مما يؤكد الصيغة الحجاجية للاستعارة فضلا عن سمتها البلاغية والصورية، حتى إن الباحث اعتبر هذه القصيدة استعارية حجاجية، حيث إن الشاعر مزج بين القوة المادية والقوة المعنوية أو الرمزية لكثير من الإستعارات [أود أن أرفع راسي].

حيث إن تلك الرغبة التي تنتاب الشاعر باستمرار نحو الحركة والحرية والانطلاق

والتعبير والنقد،لا تكاد تنطلق حتى تتأثر أو تكبث. وهذا ما تم توصيفه حسيا، بمحاولة (رفع الرأس) أي بالصعود من الأسفل نحو الأعلى بما يجسده ذلك من إيحاءات معنوية وتعبيرات رمزية مكثفة، لكن هناك باستمرار عوائق وموانع كثيرة تحول دون تحقيق هذه الرغبة وإنجاز هذا الطموح.

إن النص في النهاية ذو طبيعة حجاجية مزدوجة مبنية على مستويين: مستوى حجاجي (خارجي) باعتبار أن النص بكامله حجة ودليلا يخدم النتيجة التي يسعى إليها وهي (جلب النصرة وإبعاد الاستبداد. ومستوى (داخلي): يتجلى في جميع المقومات والعناصر التي ساهمت في تشكيل القصيدة وانسجامها، (العنوان، المعجم، التركيب، الأدوات، العوامل، الروابط، الصور، العلاقات). وعلى هذا الأساس، يمكن أن نخلص مع الباحث إلى أن" الحجاج في المستوى الخارجي يوجد في المقصدية ومقتضيات الحال والشروط والتواصلية والتفاعلية والمقام التخاطبي العام، أما في المستوى الداخلي، فإنه يتمثل في العنوان، الحوار، الجسم، الروابط، الأفعال اللغوية والمبادئ الحجاجية"[1].

4- حجاج الأمثال:

انطلق الباحث من نقد التحليل المنطقي للأمثال، خاصة في أعمال (ريجال، كريكمان، كانيو، بوريدان، سوار) [2] ممن اعتمدوا مفهوم الاستلزام المنطقي (implication logique) بمعناه الصوري الذي يعتبر (المثل) بنية مستقلة أو حكيا مصغرا، يحكمه تنظيم منطقي قائم على مبدأ (الاستلزام)، الذي يتشكل في صيغة بنية لها سمات نبرية ودلالية محددة، قائمة الذات، و تعبير عن (مبادئ) تحيل بدورها إلى معاني ودلالات منطقية عامة، محكومة بعلاقات الاستلزام بين مكونها الأول (المقدمة) ومكونها الثاني (النتيجة)، وخلص

---

(1) الخطاب والحجاج : ص : 59.

(2) انظر :

qui dort-dines ou le pivot implicatif (M. Riegel) : dans les énoncés parémiques : … Rigel . M et Tombo I – 1987 .

Richesses du proverbe : volume 2 : Typologies et fonctions (C. Buridant et F. Saurd) : université de lille : 1984

بالتالي إلى ضرورة تجاوزالتحليل االاستلزامي المنطقي، الصوري الذي يؤكد الارتباط المنطقي بين مكونات المثل وتلك العلاقات الاستلزامية القائمة بين عناصره (السور الكلي، الرابط الاستلزامي، الصور القضوية الأساس.

وهكذا إذا كان الباحث يقر بأن الأمثال تشترك في كونها ذلك "الوعاء الذي يتضمن خبرات الشعوب وحكمها وتجاربها الحياتية، فيما يشبه الحقائق العامة (vérités générales) والمعاني الكلية"[1] فإنه يرفض ربط هذا التصور في حيز ضيق كما هو عند الباحثين السابقين ممن التزموا بالتحليل الاستلزامي المنطقي الصوري، معتبرا أن هذا التحليل ضيق وعاجز عن كشف التوازيات والتشكيلات الدلالية الكامنة فيه، بدليل أنه حتى الأمثال التي استند إليها (ريجال: Rigel) في تأكيد خاصية الاستلزام المنطقي لا تستجيب كليا لهذا التحليل[2]، لأنها تتجاوز الاستلزام إلى علاقات دلالية أخرى قائمة على (السببية والاحتمال والتلازم والشرط) وهو ما يستدعي إمكانية قراءة كل مثل من هذه الأمثال قراءات متعددة، فإذا أخذنا" المثل الثاني (qui aime bien, châtie bien) فقد نقول إنه مثل استلزامي، ومعناه أن المحبة الصادقة، تستلزم التأديب الحقيقي، ولكن هذا المثل نفسه قد يقرأ قراءة سببية من نمط: إن التأديب الحقيقي إنما حدث بسبب المحبة. وقد يقرأ أيضا قراءة شرطية، والشيء نفسه يقال عن بقية الأمثال"[3]. لقد سعى الباحث إلى تأكيد (أطروحته) في الأمثال بتوسيع مدونة التحليل ليكشف من خلالها نجاعة وكفاية تحليله. وهذا ما نلمسه بوضوح في طبيعة النتائج التي انتهى إليها من تحليله للعديد من الأمثال الشعبية المغربية من النمط التركيبي (الشرطي) نحو صيغة (إلى.....،...) مقابل (Si, IF..): (إلى حضر الماء كيترفع التيمم).

والنمط التركيبي: (الموصولي) نحو صيغة: (اللي...) مقابل (.... qui) (اللي ما

---

(1) المرجع نفسه : ص 66.

(2) الأمثال موضوع التحليل هي :

1- Qui dort dine – 2- qui aime bien , châtie bien 3- qui donne aux pauvres, prête a Dieu. 4- qui ne dit mot , consent .5- qui ne risque rien, n'arien 6-qui paye ses dettes s'enrichit 7- qui va à la chasse perd sa place. 8- qui veut aller loin, ménage sa toiture. 9- qui veut la fin , veut les moyens. 10- qui vole un œuf , vole un bœuf. 11- qui a bu, boira. 12- qui se sent morveux , se mouche.

(3) الخطاب والحجاج : ص :71-72.

عندو فلوس، كلامو مسوس)، منتهيا إلى أن التحليل الاستلزامي المنطقي الصوري يظل قاصرا عن كشف الإمكانيات الهائلة التي تتضمنها هذه الأمثال، إذ هو تحليل جزئي ومحدود، وبالتالي فإن هذه الأمثال تتراوح بين العلاقة (السببية) في المثل الأول، والعلاقة (الاستنتاجية) في المثل الثاني والعلاقة (الاحتمالية) في المثل الثالث. وبهذا يظهر مدى التنوع القائم أولا في هذه الأمثال والتعدد في إمكانات القراءة بفضل أبعادها وتشكلاتها الدلالية والسببية والاحتمالية والاستلزامية غير المنطقية الصورية أو الحتمية كما تصور ذلك (ريجال Rigel) ومن سار حذوه من الباحثين، بل هي استلزامية (احتمالية) كما هو الشأن في الأمثال العامية المغربية التي تبدأ بالأداة (إلى = Si = If) = (إلى) ما نويتي ما صليتي]. بل إن الأمثال التي تبدأ بالأداة (اللي = qui) نفسها، والتي توحي ظاهريا أنها تخضع للاستلزام المنطقي الصوري، تتضمن استلزاما (تداوليا طبيعيا) كما هو الشأن في المثل المغربي:

[اللي كلى دجاج الناس، يسمن دجاجو] التي يمكن أن تقرأ في إطار علاقة استلزامية؛ لكنها ليست صورية منطقية، بل (تداولية طبيعية)، يمكن تقديمها بعبارات شارحة (paraphases) على هذا النحو: [من أكل دجاج الناس، عليه أو يلزمه أو ينبغي أن يأكل الناس دجاجه]: فالمقدم يستلزم التالي، لكن ليس بشكل حتمي وضروري. ومع ذلك فهذا المثل وغيره يقبل قراءات أخرى غير استلزامية، إذا استعمل في سياقات لا تستدعي علاقة الاستلزام.

ويبدو جليا أن التحليل الذي قدمه الباحث لهذه العينة الهامة من الأمثال المغربية[1] والأجنبية، مكنه من الوصول إلى نتائج هامة من أبرزها:

---

(1) من الأمثال التي شكلت موضوع تحليل في الكتاب:
- إلى هاج البحر كيعيط للشتاء.
- إلى خرجت الليالي ، لا تشري ثوب غالي.
- إلى طلقتيها لا توريها دار اباها.
- اللي خاف نجا.
- اللي خفاك أصلو ، شوف فعلو.
- اللي خلص دينو شبع.

وانظر قائمة الأمثال كاملة في الخطاب والحجاج : ص 96-97 – مرجع سابق .

1- التحليل القائم على الاستلزام المنطقي الصوري قاصر ومحدود الإمكانات والنتائج.

2- التحليل الحجاجي قادر على تجاوز قصور الاستلزام المنطقي الصوري، وكشف التنوع والغنى القائم في النصوص والخطابات مهما تكن طبيعتها ومقاصدها، وصيغها، ومنها الأمثال حيث الحضور القوي لعلاقات عدة: (سببية، شرطية، احتمالية، استلزامية، تبريرية، تفسيرية وغيرها.

3- هناك حالات يقوم فيها المثل بدور المبدأ الحجاجي الإقناعي (topos) خاصة في الحوار والسجال والمناظرة، باعتباره (مسلمة منطقية) تضمن التعالق بين الحجة والنتيجة.

4- قد يتضمن المثل حجة جاهزة قوية ترقى إلى مرتبة (الشاهد) و(الحكمة) التي تمارس نوعا من السلطة الحجاجية (Argument d'autorité)، علما أن الأمثال تتفاوت حسب نوع الأداة وشكل الصيغة والموقع الذي تحتله داخل سياق التخاطب.

5- الأمثال مسلمات حجاجية ذات قوة حجاجية ترقى إلى مستوى السلطة، لكنها غير استلزامية (حتمية)، بل (استدلالية تداولية)، مرنة ونسبية، واحتمالية خاضعة لمنطق لغوي خاص طبيعي، يتجاوز حدود الاستلزام المنطقي الصوري.

5- حجاج الصورة / حجاج اللغة: تعالق وتكامل:

يذهب المؤلف إلى أن الخطب البصري يعالج بما يعالج به الخطاب اللغوي، إذ هناك تفاعل وتكامل بين الأيقوني واللغوي.

فإذا كان الباحثون والعلماء والنقاد واللغويون والفلاسفة قد عنوا بدراسة الصورة منذ القديم، إلا أن الاهتمام بها قد ازداد بشكل أكبر في السنوات الأخيرة حتى إن عصرنا الحالي أصبح مقترنا بها.

وإذا كانت الدراسات والتحاليل التي اهتمت بالصورة عامة قد استندت إلى نظريات البلاغة القديمة والحديثة أو خصت الصورة الإشهارية بالعناية الأكبر، اعتمادا على النظريات اللسانية البنيوية أو السميولوجية الحديثة، خاصة مع (غريماس وبارت وميتز) وغيرهم، فإن

الباحث د. العزاوي قد سعى إلى تنمية هـذه الدراسـات وتقـديم تحليـل يبحـث مـن جهـة في البنيات الداخلية للصورة ومن جهة أخرى في الدلالات والخلفيـات الأيديولوجيـة والرمزيـة مستندا في ذلك إلى نظرية (البنيوية التـصورية) (جاكنـدوف Jakendoff) (1983) ونظريـة (الحجـاج في اللغـة): (Dicrot) (1984-1980-1972)، و (غريـز (Grise) (1996-1990 - 1982)، منتهيا من خلال تحليلـه المركـب إلى المقولـة الآتيـة ((لا تواصـل مـن غـير حجاج ولا حجاج بغير تواصل)) بحيث إذا كـان التواصـل يـتم بـأنواع عـدة مـن الكفايـات الكلامية والسلوكية والأيقونية؛ فإن الحجاج يعد مقوما أساسيا في جميع الخطابات، مهما تكـن طبيعتها، على أن الأهم في الصورة الاستشهارية الـتي تغيـب فيهـا اللغـة الطبيعيـة هـو البعـد الحجاجي الذي يظل مرتبطـا (بالبنيـات التـصورية): (Conceptuelles) القابلـة لأن يعـبر عنها بأشكال مختلفة: لغوية أو سلوكية أو أيقونية، تشكل علاقـة بـين حجـج ونتـائج تتفاعـل لتولد تواصلا، فتـأثيرا، فإقناعـا، فحجاجا،وهكـذا يتنـاول المؤلـف عـدة نماذج،لعـل أبرزهـا حضورا صورالإشـهارالأمريكية، فمـثلا في إشـهار الـسجائر الأمريكيـة (مـارلبورو) نجـد أن الصورة الإشهارية تشتمل على أيقونات عديـدة: صـورة الأمريكـي الـضخم الجثـة المرتـدي لبنطلون الدجين أو رعاة البقر أو الطبيعة الخلابـة المشمسة، أو الجلـسات العائليـة الدافئـة أو أدوات فاخرة رفيقة من النوع الممتاز..، فهذه المكونات الأيقونية تشتمل على عناصر تصورية يتم تقديمها باعتبارها حجة وأدلة لصالح النتيجة المتوخاة والـتي تكـون مـن قبيـل: (هـذا هـو المنتوج الذي تبحثون عنه) أو (جودة المنتوج). وهذا هو الـنمط الأول مـن الحجـاج. وهنـاك النمط الآخر – وهو الأساس- ويتمثل في خصائص المنتـوج وميزاتـه، فمـن خـصائص هـذه الـسيجارة أو تلك نجد: النكهة – المذاق – الجودة – الخفـة[1]. إن هـذا النمـوذج مـن الـصور الحجاجية (الإشعارية) النمطية، يحيل أيضا إلى أبعاد (دلالية)، و(معرفية) و(رمزية) وتـدعيات (نفسية) و(اجتماعية) و(اقتصادية) و(ثقافية) مخزنة في ذاكرتنا عن مصادر (القوة الأمريكيـة)، ومظاهرها وطرق تصريفها بـصريا[2]، وهـذه الأخـيرة تنـسج مكوناتهـا مـن خـلال عناصـر

(1) الخطاب والحجاج : ص 107.

(2) يندرج هذا التصور أيضا ضمن (نظرية الأطر) المستمدة من اللسانيات النفسية المعرفية.

ومبادئ حجاجية تتسم بالنسبية والمرونة والتدرج، كي تضمن

(الانسجام) الذي هو إحدى المقومات الأساسية (لقوة الخطاب)، بل والضامن الأسمى (للتواصل والتأثير والإقناع). وبالتالي فإن البحث في هذه المكونات البنيوية الداخلية للصورة (الحجج – النتائج- الأدوات- اللغة – الألوان- - الحيز – الصيغة) هذه الأخيرة التي قد ترتقي إلى الشمول لتصبح عامة، ويمكن أن تصاغ على الشكل الآتي:

[كلما.....، تكون... أو صيغة: بقدر ما....، تكون....]

غير أن الإشكال يكمن في الطريقة التي تتم بها تحليل الصورة الأيقونية في (البنية التصورية) المرتبطة بمفهوم الإطار والذهن؟

فإذا كانت الباحثة الفرنسية (Odule libeum) ترى أن التحليل الحجاجي للصورة مرتبط (بالبنيات القضوية والذهنية) التي تنشأ تداعيات وتأويلات خاصة بالمتلقي، بتوجيه من المرسل، يحد من جنوح التأويل، ويقيده وفق موجهات ثلاثة هي: (البنية الداخلية للصورة)، و(استعمال الأيديولوجيا)، و(المزاوجة بين الرسالة البصرية والنص اللغوي)، فإن ذ. العزاوي ينتقد هذا التصور، لأنه يساهم في تعقيد التحليل، بدل بسطه وتوضيحه، ويقترح بدل ذلك، أن يستند التحليل الخاص بالصورة إلى التحليل ذاته الذي تعالج به الوحدات اللغوية" فهذه البنية تعتبر المستوى الوحيد للتمثيل الذهني الذي تحلل به، وشكل متماثل ومتلائم. كافة المعلومات اللسانية والحركية والحواسية، فنحن نعبر بحواسنا عن دخل كلامي، ونعبر كلاميا عن دخل حواسي، ونعبر حركيا عن دخل حواسي أو كلامي"[1].

هكذا يخلص الباحث إلى نتيجة أساسية تؤكد أن لا فرق بين الحجاج الأيقوني والحجاج اللغوي، وعليه فالأدوات التي تستخدم في تناول الظواهر اللغوية، يمكن أن تستعمل في تحليل الصور الأيقونية، وتؤدي بالتالي إلى استنتاج نتائج هامة في مجال تحليل أنواع الخطاب سواء كان لغويا أم بصريا.

---

(1) الخطاب والحجاج ص 116 .

Pilgrims Language

الأستاذ الدكتور أبو بكر العزاوي من القلائل الذين جمعوا بين المعرفة الواسعة بالتراث العربي الإسلامي بكل ينابيعه وفروعه وامتداداته، معرفة وفهما وتفسيرا وتأصيلا ، وبين الاطلاع الواسع على الإنتاج العلمي واللغوي والثقافي الحديث والمعاصر في تنوعه ، وبمختلف لغاته ، لكن من غير تقليد أو ذوبان . كتاباته تعبر عن شخصية الباحث المجدد المجتهد ، العصي عن التحديد أو التصنيف بشهادة كبار العلماء الذين درس على أيديهم من أمثال أزفالد ديكرو وجان بليز غريزوعباس الجراري ومحمد مفتاح وغيرهم ، ولم يزده علمه إلا تواضعا وإصرارا وصبرا على مواصلة البحث والاجتهاد الذي يثمر في كل مرة مؤلفات ودراسات جديدة ومتميزة تكشف بحق أننا أمام باحث حقيقي وعالم موسوعي من طينة خاصة ، استحق عن جدارة واستحقاق لقب رائد الحجاج في العالم العربي وشيخ الحجاجيين العرب.

لهذه الأسباب كلها اجتمعت ثلة من الباحثين والأساتذة الجامعيين والأكاديميين والمبدعين المتميزين من تخصصات متنوعة لسانية وأدبية ونقدية وسيميائية وبلاغية وحجاجية ، تتناول مشروعه الرائد في الحجاج اللغوي بالدراسة و التحليل وتعالج مختلف المفاهيم والأدوات والخلفيات النظرية والمنهجية التي أطرت أعماله وأبحاثه ، في محاولة لكشف المنطق الذي يحكمها ، والفلسفة التي توجهها ، والآليات الإجرائية التي يستخدمها الباحث خاصة في مجال التطبيق ، الذي يعتبر الجانب الأبرز في مشروعه العلمي . ذلك أن ما يميزه عن العديد من مشاريع الباحثين الآخرين، هو إصراره المتواصل عبر هذا الزمن الطويل (أكثر من ٣٠ سنة) منذ تسجيله لأطروحة الدكتوراه عن الحجاج في اللغة العربية بفرنسا تحت إشراف أزفالد ديكرو سنة ١٩٨٣) من العطاء والإنتاج والتأليف على اختيار المجال الصعب ألا وهو تنزيل واختبار تلك المفاهيم والآليات الحجاجية على نصوص وخطابات عديدة ومتنوعة الأجناس (القرآن الكريم ، الشعر ، الخطابة ، الأمثال ، الإشهار وغيرها)، و بدقة وعمق قلما نجدهما في أعمال أخرى لباحثين ممن عنوا بتحليل الخطاب استنادا إلى نظريات الحجاج اللغوي والبلاغي أو نظريات أخرى .

عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع

الاردن - اربد - شارع الجامعة
تلفون: ٧٢٧٢٢٧٢ ٢ ٠٩٦٢ / فاكس: ٧٢٦٩٩٠٩ ٢ ٠٩٦٢
الرمز البريدي: (٢١١١٠) / صندوق البريد: (٣٤٦٩)
almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع
الأردن - العبدلي مقابل عمارة جوهرة القدس

9 789957 631062

مطبعة حلاوة
Halawa
Printing Press
هاتف: ٧٢٧٥٥٣٥ ٢ ٠٩٦٢
خلوي: ٠٩٦٢ ٧٩٥٢٣٩٣٣٢